روايات 7 الزمن

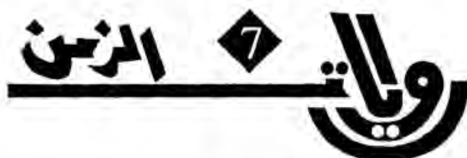
# الآخرون



حسونة المصباحي



منشورات الزمن



تصدر عن جريدة الزمن

المدير المسؤول : عبد الكبير العلوي الإسماعيلي

المشرف

سعيد يقطين

التحرير : محمد التهامي الحراق

الإخراج التقني : طاقم الزمن

الإدارة والتحرير : 153، شارع سيدي محمد بن عبدالله رقم 7 ـ العكاري ـ الرباط

الهاتف + الفاكس : 44 98 29 7 3 212 00

البريد الإلكتروني: az-zaman@menara.ma / az-zaman@hotmail.fr

ooo

الإيداع القانوني : 2003/0544
ردمك : 0 - 29 - 408 - 9954



طبع : مطبعة النجاح الجديدة ـ الدارالبيضاء
توزيع : سبريس

الحساب البنكي : جريدة الزمن، البنك التجاري المغربي، وكالة أبي عنان ـ الرباط
رقم : 072E001182

روايات 7 الزمن

2003

# الآخرون

رواية

حسونة المصباحي





منشورات الزمن

إلى اردموته هيللر



# الآخـرون

حسُونة المصْبَاحي

طبعة مغربية، منشورات الزمن، الرباط،

2003

# الآخرون... سيرة أحلام تتكسر

"الآخرون" كتاب حسونة المصباحي المتميز، هو سيرة جيل دفع ثمنا يفوق ما دفعته الأجيال السابقة كما تقول "رنا" إحدى شخصيات الكتاب. إنه الجيل الذي افتتن بالحركات الثورية آنذاك، وألهبته كراسات ماوتسي تونغ، وأسطورة جيفارا، وهلوسات رامبو، وأغاني والت ويتمن، وتلبسه حلم واحد، هو أن يغير العالم دفعة واحدة، وحين يبدو هذا الحلم مستحيلا، لأن الشرق أصبح عقيما ومعتما مثل بئر مهجورة، تبدأ الهجرة إلى أصقاع العالم المختلفة لمتابعة تحقيق الحلم هناك من المقاهي الضائعة في المنافي.

ويرسم لنا المصباحي شخصيات واقعية نابضة بالحياة، من الآشوري العراقي المليء بأحلام الطفولة والسينما، إلى العفيف الأخضر وطروحاته وصداماته الفكرية والسياسية في البلدان العربية وفي فرنسا ذاتها، إلى الكاتب نفسه.

يبدأ الكتاب بقصة الآشوري سامي شاهين، ويعود إليها بعد فترة وأخرى، هذه القصة المتداخلة من مدائن كثيرة وأماكن كثيرة تتخللها الحكايات والأحلام الصغيرة المنكسرة. أن سامي شاهين، على النقيض من العفيف الأخضر والكاتب نفسه، لا يريد شيئا من هذه الحياة سوى تحقيق حلمه البسيط بإخراج فيلم سينمائي. لا يريد، وهو المطرود من مدينته الأولى ووطنه ومن بعد بيروت، أن يغير شيئا، أو يبني عالما فاضلا آخر، ومع ذلك، إنه في الأربعين الآن، متخم بأوجاع الحروب والخسارات والحياة الباطلة: "في تلك الحرب القذرة خسرت أعز صديق إلى نفسي خلال فترة الخدمة العسكرية، اسمه عبد الكريم، مثلي كان مهووسا بالسينما، مدمنا على قراءة الروايات البوليسية، عازما على السفر إلى أوروبا حال تسريحه من الجندية. كان يقول لي دائما: املي أن أدرس المسرح والسينما في أرقى معاهد لندن أو باريس".

يقدم لنا الكاتب هذه الشخصية كشخصية روائية حقا بالرغم من واقعيتها الشديدة بأحلامها وأزمنتها المتداخلة. وأبعادها التي لا تحد. كما ينجح المصباحي في تقديم شخصية "الأستاذ"، التونسي الذي يظهر ويختفي عبر الكتاب، لكنه حاضر بقوة بالرغم من ذلك. إنه شخصية تذكرنا بالشخصيات التي رسمها **مالرو** في أكثر من رواية من رواياته، وخاصة في **الوضع البشري**، شخصية تختزل المعرفة البشرية والتجربة الحياتية الغنية، وتحلم انطلاقا من ذلك، بأن تغير البشر والعالم. وهي شخصية أصبحت معلما أساسيا وسمة عامة في أدب ما بعد منتصف القرن، بكلمة أخرى إنها "الشخصية الكلية" حسب **ماركوز** التي تعبر عن حركة الواقع الجوهرية التي لا يراها الآخرون، وتضع مثل هذه الشخصية أمامها مهمتين شبه مستحيلتين، الكشف عن هذه الحركة أمام عيون كل البشر، والعمل على قذفهم في أتونها من أجل خلق عالم جديد.

إن "الأستاذ" هو بوصلة التحولات الكبرى وضميرها أيضا، وسيرته سيرة تلك المدن وأولئك الناس. لقد طلع علينا بعد بداية الصعود الاجتماعي عملاقا، ممتلئا معرفة وخبرة وتجربة، وعرف كيف يربط بين التراث والحاضر، وعاد إلينا فجأة بعد غياب طويل لا أحد يعرف سببه، مكسورا متعبا مع تراجع وضمور فترة الهيجان: "اسمعوا يا أولادا لقد اكتشفت الآن أن جميع الإيديولوجيات والمذاهب أوهام وأكاذيب تفضي إلى نتيجة واحدة: عبودية الفرد. لذا أنا لم أعد أؤمن بشيء إلا بجسدي الهزيل هذا. وأعتقد أنني سوف أكون سعيدا إذا ما أنا أكملت ما تبقى لي من العمر في مثل هذه الحال من العدمية المطلقة".

وبين شخصية سامي شاهين، و"الأستاذ" النقيضتين، تتوزع عدة شخصيات تنساب مع إيقاع الحياة، وأخرى تقف على حافة السكين، ومن بين هذه الشخصيات شخصية الكاتب نفسه الذي سجل لنا سيرته التي وسمها الفقر، والحماسات والخيبات الثورية الأولى، ومدن القمع العربية، ومقاهي العالم الواسع من باريس إلى زيوريخ. إنه يبدل مدينة عربية بأخرى، بحثا عن الحرية المفتقدة التي لن يجدها... من طرابلس إلى بغداد، ومن تونس إلى دمشق حيث يلتقي بعشرات مثله شردتهم الأوطان التي عشقوها حتى العظم. وفي كل مدينة سبق لمن خبرها قبله: "اسمع يا صديقي الطيب القلب! يبدو أنك لا تعرف أين أنت بالضبط، لذا علي أن أوضح لك الأمور قبل أن

تنكسر رقبتك وتتورط في الدواهي. هذا الأمان الذي ربما أنت تشعر به منذ وصولك إلى "..." هو مجرد خدعة. وأنا حين جئت إلى هنا اعتقدت أن الأحوال أفضل مما هي عليه في "..." غير أن اعتقادي هذا سرعان ما تبخر. كل ما في الأمر هو أنني خرجت من سجن لأدخل آخر أشد فظاعة وهذه المخابرات تملأ الدنيا، وتراقب كل صغيرة وكبيرة". أما في بغداد فهناك شبح هائل الجثة، سريع الحركة، يطوف في المدينة ليلا ليزرع الموت والرعب، وسيتعرض بعدما وصل بيومين إلى لكمات قوية تسقطه على الأرض مضرجا بدمه، دون أن يعرف لماذا، وسيعود إلى غرفته ليبكي بعدما مات في قلبه الشوق الملتهب للثورات والأفكار والشعور.

هذه الخيبات المتتالية بالمدن العربية، ستنسحب على الشرق كله الذي يسير بخطى حثيثة نحو تدهور جديد على كل المستويات. إن المشرق الذي كان يحلم به قد اندثر وأضحى أثرا، والذهاب إليه سوف يكون بمثابة "الذهاب إلى مقبرة هائلة تبرز شواهد قبورها أمجادا قديمة".

ولكن إذا أغلقت الطريق إلى الغرب، فإن الطريق إلى الغرب سالكة.

وسيصل إلى ميونيخ حاملا حقيبة صغيرة هي كل ما ملكه في الشرق: "حالما دخلت شقتي الصغيرة ارتميت على الكنبة البرتقالية، وانخرطت في البكاء لسبب لا أدريه، ربما لأنني تذكرت وأنا أدير المفتاح في القفل كل تلك العذابات التي كابدتها على مدى سنوات التمرد المرة". وهي رحلة كان الكاتب قد خصص لها كتابا أصدره السنة الماضية بعنوان: **رحلات.**

وبالإضافة إلى شخصيات الكتاب الكثيرة المرسومة معظمها بمهارة فنية عالية، فإن **الآخرون** يمتاز بلغته السردية المنسابة بعفوية كبيرة، والمشحونة بوجه ينجح في إصابتنا بالعدوى، وبصدقه العالي الذي قلما نجده في كتب سيرة عربية، على قلة مثل هذه الكتب، لكن لا ندري لماذا قدم **الآخرون** على انه رواية كما هو مكتوب على الغلاف، مما يصرف ذهن القارئ إلى البحث عن الشروط الروائية التي تبرر تقديمه كذلك، فلا يجدها. وبالتالي يفقده ذلك شيئا من متعة قراءة **الآخرون** على أنه سيرة، وسيرة ذاتية أيضا، وهي متعة ليست بالقليلة.

**فاضل السلطاني**

هو الذي رأى كل شيء ، فغنني بذكره يابلادي
عرف الأشياء جميعها وأفاد من عبرها
أبصر الأسرار وكشف عن الخفايا
وجاء بأخبار الطوفان
خاض أسفارا بعيدة متقلّبا بين التعب والراحة
فنقش في نصب من الحجر ماعاناه وخبره.

**(ملحمة جلجامش)**

إنهم يموتون ميتات لاتحصى بينما يموت
الاخرون مرة واحدة وحيدة. هنا حصانتهم ضدّ
الحياة وضد الموت.

**هنري ميلر**
**(شيطان في الجنة)**

إن معشري يملأون البيدر والدسكرة والمخمرة. أنا الاخرون

**اميل حبيبي**
**(الوقائع الغريبة في اختفاء سعيدأبي النحس المتشائل)**

# القسم الأول

أعلم أني لا أستطيع أن أستمتع بلذائذ باريس إلا بصحبته لذا هتفت قبل أسبوع من سفري إليها لصديق أعرف أنه على صلة يومية به، ورجوته أن يحثه على الاتصال بي في أقرب فرصة ممكنة. في ساعة متأخرة من الليل رن الهاتف وجاءني صوته وقد تكسر بسبب السكر. غصن عنب انحنى تحت ثقل ثماره:

- أهلا أيها اللعين الجميل... هل تأمر بشيء؟

- سأكون في محطة "الشرق" صباح الخميس المقبل. الساعة السابعة بالضبط. فهل تنتظرني؟

- أنا أمقت النهوض باكرا إلا إذا ماكان الأمر يتعلق بمقابلة حسناء وأثق من أنني سوف أتذوق حلاوة عسلها، أو باستقبال وغد مثلك ! قال، ثم أطلق قهقهة شيطانية ارتجت لها السماعة.

ليلة الأربعاء، الساعة التاسعة وست دقائق، غادر القطار القادم من فيينا محطة ميونيخ باتجاه باريس. العربات مزدحمة بمسافرين من مختلف الأعمار والأجناس. يوغسلاف حفرت فواجع الحرب ندوبا عميقة علي ملامحهم حتى بدوا وكأنهم فقدوا نهائيا الرغبة في الحياة. بلغار بنظرات خبيثة تذكر بنظرات مخبري الأنظمة الشيوعية. هنجاريون متحفزون كأنهم يتأهلون للتقضاض على كنز سري. عجائز يابسات عابسات كأنهن طالعات للتو من أنقاض امبراطوريات أوروبا التي انهارت قبل قرن. شبان وشابات ببنطلونات الدجينز يشربرن البيرة والكوكاكولا ،يزعقون فرحين بالذهاب إلى عاصمة النور والحب.

مصبات الأنهار باقية منذ الأزل. أما مصبات أنهار الهجرات البشرية فمتغيرة طول الوقت، وليس من السهل تحديد وجهاتها.

معي في المقصورة بافارية في الخمسين تقريبا، ذابلة الوجه والعينين، غير أنها بدت مرحة ومتقدة حيوية ونشاطا: "منذ عشرين عاما لم أرِ باريس. وقبل أسبوع قلت لزوجي: لم أعد أتحمل، وعلي أن أسافر إلى مكان ما وإلا فإني سأنفجر وأحطم كل شيء. سيهتم هو بالأطفال خلال غيابي. أما أنا فسوف أتيه في شوارع باريس ومتاحفها مثل مراهقة عاشقة!". كان هناك أيضا عجوز فرنسي، نحيف، طويل، بعينين رماديتين باردتين وشعر بلون الثلج القذر. لبضع لحظات ظل يحدق في ثم قال:

- أحس أنك أمريكي - لاتيني. أليس كذلك؟

- لم تخطئ! قلت.

- من أين؟

- ارتبكت قليلا، غير أني سرعان ماوجدتها: من جواتيمالا !

حدق في من جديد لكن بشيء من الارتياب هذه المرة، ثم سأل:

- ولكن أين تعلمت الفرنسية؟

- في الشارع ! أجبت وبي رغبة في مواصلة هذه اللعبة المسلية.

صمت العجوز الفرنسي قليلا، ثم أضاف دون أن ينظر إلي هذه المرة:

- يبدو أني أخطأت في تحديد هويتك !

بعدها غرق في صمت ثقيل لم يخرج منه بعد ذلك أبدا. على أية حال ليس هو الوحيد الذي يخمن أنني أمريكي- لاتيني. آخرون كثيرون حدث لي معهم الشيء ذاته. قبعتي السوداء العريضة وملامح وجهي الغليظة قد توحي فعلا بأني نازل للتو من جبال الهنود في جواتيمالا أو بوليفيا.

راحت السيدة البافارية تثرثر حول مسائل شتى. وضحكت حتى أصيبت بنوبة سعال حين رويت لها بعضا من قصصي الطريفة مع البافاريين. ولما لاحظنا أن العجوز الفرنسي بدأ يتقلب مبديا رغبة واضحة في النوم، خرجنا إلى المعبر الفارغ. فتحت زجاجة نبيذ ورحنا نشرب ونتحدث عن باريس وعن أجمل الأماكن فيها. حالما خرج القطار من محطة "شتوتجارت"، اعتذرت السيدة البافارية، ثم ذهبت لتنام هي

أيضا. بقيت وحدي أشرب أمام الليل الخريفي المنتصب أمامي مثل خيمة هائلة. فكرت في دروب رملية قطعتها وأنا طفل وسط نباح الكلاب البدوية الغاضبة، في سفراتي عبر بلدان اسكندنافيا المغطاة بثلوج ديسمبر، في ماريا الجميلة التي طافت بي في بارات ستوكهولم قبل مايزيد على عشرة أعوام في... بعد أن قطع القطار الحدود الألمانية- الفرنسية غرقت في النوم أنا أيضا.

أثناء النوم، حلمت بتينا طالبة الفلسفة الجميلة التي تعمل نادلة في بار "التيركنهوف" في ميونيخ. رأيت نفسي أتمشى في جادة تشبه جادة "سان ميشيل" في باريس. جموع غفيرة زاهية والدنيا خريف، أو هكذا بدا لي. حين وصلت إلى ساحة تشبه ساحة "السربون" برزت أمامي تينا. كانت تلبس قميصا أزرق فاتحا وبنطلون دجنز وتنتعل حذاء صيفيا خفيفا أحمر. حالما رأتني ارتمت في أحضاني وراحت تعانقني بحرارة. سألتها: "ماذا تفعلين هنا؟". أجابت باسمة: "تعال. سأريك مكاني المفضل!". سرنا. يدي في يدها الناعمة الحارة. تحت القميص يتراقص نهداها بشكل مهيج. أثارتني فقررت أن أبوسها من فمها. وعندما هممت بذلك، اختفت المدينة والجموع الغفيرة، وامتدت أمامنا واحات خضراء ذكرتني في الحين بمراكش. وكانت هناك حدائق برتقال وليمون. بعد أن قطعنا مسافة قصيرة وسط الواحات، امتد البحر أمامنا يلون قميص تينا. سألتها: "هل تسكنين هنا؟". وضعت سبابتها على شفتيها القرمزيتين مشيرة علي بالصمت. أطعتها. تابعنا السير ويدي في يدها حتى توقفنا أمام بئر يصاعد منها نور عجيب. تركت تينا يدي وصاحت : "تعال"، ثم قفزت داخل البئر. ترددت أنا قليلا ثم قررت أن أقفز مثلها غير أن شيئا ما أعاقني . حاولت المرة تلو المرة غير أنني لم أفلح. حزنت. وكنت أعتزم أن أقوم بمحاولة أخيرة حين دخل مراقب التذاكر المقصورة وهو يصيح: "القطار سيكون في باريس بعد نصف ساعة!". آه باريس! ليس هناك مدينة مثلها يخفق لها قلبي اشتياقا وحنينا. دائما حين أذهب إليها أشعر كما لو أني أذهب إلى امرأة لايمكن أن أبرأ من حبها. لقد جعت فيها، وفيها تشردت، ونمت في أحقر الفنادق، وبكيت من الوحدة في لياليها الباردة، وذقت أمر مشاعر اليأس والإحباط، وفي الآن نفسه عشت فيها أروع لحظات الحب والصداقة والأمل والطموح.

وأنا أقترب من نهاية الرصيف، برز لي من بين حشود المسافرين وهو يصيح عاليا: "باريس كلها باتت ساهرة في انتظار العاشق المتيم". وضعت الحقيبة الثقيلة وتعانقنا طويلا.

العتمة لاتزال كثيفة. السماء غائمة قليلا. الهواء بارد متبّل بروائح القهوة والكرواسون الساخن. عمال البلدية يغسلون الشوارع والساحات. سرنا بهدوء. لم نرغب في ركوب الميترو لأن متعتنا الدائمة هي الاستمتاع بباريس وهي تنهض من نومها. لقد فعلنا ذلك مرارا خصوصا أيام كنا نعربد في بارات "السان جارمان" حتى الفجر، ثم نتمشى بمحاذاة "السين" باتجاه "المارية" بعد أن نتناول فطور الصباح هناك، أمضي أنا إلى فندقي الصغير في شارع "مالار" لأنام حتى الظهر، أما هو فيواصل التيه بين البارات مكتفيا بغفوات خفيفة في ركن مقهى هادئ، أو على مقعد في حديقة حين يكون الطقس دافئا.

نصل إلى مركز "جورج بومبيدو". يشير إلى مقهى مواجه ساحة المركز ويقول: "هذا أجمل مقهى في هذه الناحية. رواده كلهم فنانون وسينمائيون ونساء أنيقات فاتنات وفيه أفضل تواليت في باريس كلها. مارأيك لو جلسنا فيها حتى طلوع النهار؟". لم يكن هناك أي زبون بعد غير عجوز ستينية مع كلبها الصغير الرمادي. يرحب بنا الجرسون الشاب ترحيبا لطيفا ويقول لي إن قبعتي السوداء تعجبه كثيرا. ننحشر في ركن قصي. نطلب بيرتين ونواصل الثرثرة. هو كالعادة بلا مأوى وبلا عمل. ليس هذا أمراً مفاجئا على أية حال. منذ عشر سنوات وهو على هذا الوضع. كلما وجد عملا أو مأوى ارتكب كل الحماقات الممكنة من أجل أن يفقدهما وبأسرع وقت ممكن. أتمعن فيه. نظيف. أنيق. ولم أره مرّة عكس ذلك. حتى في أحلك الظروف، لم أعاين في مظهره مايدل على أنه كائن يهيم على وجهه طول النهار وطول الليل غالب الأحيان.

- هناك أمر يحيرني. كيف تستطيع أن تظل نظيفا وأنيقا رغم أنك في الشارع طول الوقت تقريبا؟

يبتسم. يشرب ماتبقى من البيرة، ثم يجيب:

- تواليت هذا المقهى مثلا أنقذني أكثر من مرة. بإمكاني أن أغتسل فيه وأن أحلق ذقني. بل أحيانا حين يتعتعني النوم أغلق باب المرحاض وأغفو لساعة أو أكثر. والآن أقدر أن أدلّك على أفضل تواليتات باريس!.

تأخذ العتمة في التلاشي، فتغص الشوارع بالناس. حول ساحة مركز جورج بومبيدو يبرز شبان مغاربة بملامح شريرة، وبنطلونات دجينز ممزقة عند الركبة، ويشرعون في الدوران حولها مثل ذئاب تبحث عن فريسة. في الطاولة المقابلة، تجلس سيدة سمراء لها ملامح عربية. تطلب قهوة حليب وكرواسون، ثم تغرق في قراءة جريدة "ليبارسيون".

بعد البيرة الثالثة يزداد مرحا وانشراحا. وفي الحين يلقي بنفسه وسط لهب أوهامه العجيبة. تلك الأوهام التي لولاها لما استطاع أن يتحمل حتى هذه الساعة أعباء حياة قاسية مريرة عرف خلالها الجوع والحرمان والسجون والتيه عبر مدن الشرق والغرب على حد السواء: "صحيح أنني فشلت في تحقيق حلمي القديم، أي الوصول إلى أمريكا، وإلى هوليود بالذات، غير أنني لم أفقد الأمل في أن أصبح سينمائيا كبيرا. وإذا ما تم لي ذلك، فسوف تنتهي جميع متاعبي. سوف أكون غنيا ومشهورا في العالم بأسره. هذا اليوغسلافي الغجري أمير كوستريكا مثلا ليس أفضل مني. حتى يارموش يمكنني أن أتحداه. أنا على يقين من ذلك. يكفي أن أعثر على من يفتح لي الباب، ويعطيني الفرصة لكي أبرز مواهبي. بعدها يصبح كل شيء ممكنا. في مهرجان "كان" العام الماضي، التقيت روبرت دي نيرو وتحدثت معه قليلا. كان لطيفا جداً معي. قال لي: حين تأتي إلى أمريكا سوف أساعدك!. نعم قال لي ذلك. هناك فتاة أمريكية تعرفت عليها هنا في باريس قبل شهرين. دعوتها إلى العشاء مرتين. حدثتها عن غرامي بالسينما حتى أبكيتها. قبل سفرها، وعدت بأن تفعل كل شيء لكي تساعدني على الحصول على تأشيرة دخول إلى أمريكا. إنها من عائلة ميسورة. أبوها رجل أعمال. وأمها طبيبة في القلب. أنا واثق من أنها لاتكذب عليّ. اسمع ياصديقي. لابد أن أنجز حلمي الذي أحمله في صدري منذ الطفولة مثل الجمرة، وأصبح سينمائيا كبيرا وإلا فإن أبي كيكا الأبكم الأصم لن يكون راضيا عني في قبره !".

ها قد بدأت الأسطوانة تدور، تلك الأسطوانة التي أسمعنيها غصبا عني عشرات المرات. وإذا ماحاولت إيقافها فسوف يغضب وتصبح باريس شعثاء مغبرة مثل عجوز مشردة في بوادي الجنوب. من الأفضل إذن أن أصمت وأتحمل وخزات الأسطوانة القديمة حتى النهاية.

تونس، خريف 1982. نحن في بدايات أكتوبر غير أن درجة الحرارة لاتزال مرتفعة جدا. مرارة الصيف القاسي لاتزال كامنة فينا كمون النار في الرماد، مشيعة أنفسنا كل يوم بمزيد من الإحباط واليأس. لكن قبل أن أمضي في سرد وقائع الحكاية يبدو لي أن "نحن" هذه ملتبسة إلى حد ما، لذا وجب التوضيح.

"نحن" تشير في ذلك الوقت إلى مجموعة من المثقفين الغاضبين. كان البعض يسميها تحببا بالفتية الصعاليك، والبعض الآخر بالفتية الشرسين. كنا نلتقي كل يوم لنتحاور ونسكر وتعربد. حين ينفذ الصبر، ويبيت الوفاق صعبا، نتشابك بالأيدي وبالعصي أخرى إن لزم الأمر، ونذهب إلى النوم بعيون متورمة، وبوجوه مخدوشة، وبأقمصة ممزقة، وبأنوف تنزف دما. في صباح اليوم التالي ننسى كل شيء ونتعانق بحرارة ملقين تبعات الخناقات والمعارك التي نشبت بيننا على الأحوال الجوية، أو على رداءة الأكل والشراب في مطاعم المدينة. كنا نمضي النهار بطوله في حانات "باب البحر" بين العامة وباعة البيض المسلوق والفول النتن والمنحرفين جنسيا والقوادين واللصوص. لم يكن لنا عدد محدد. أحيانا نكون ثلاثة فقط. أحيانا ستة. أحيانا عشرة أو أكثر من ذلك بكثير. تعارفنا جميعا مطلع السبعينات. بعضنا عرف السجن وسراديبه بسبب أفكاره وموالاته للتيارات الماركسية المتغلغلة في أوساط الشبيبة الطلابية في ذلك الوقت. البعض الآخر كتم ثورته، أو هو أفرغها في قصائد ونصوص حماسية مزقها لما اقتنع بخوائها وضحالتها. بيننا ريفيون بأصوات غليظة كأصوات الفلاحين، وبأنوف ضخمة، وعيون كعيون البقر الوحشي، وأبناء قرى ساحلية يغنون أغاني صيادي الأسماك حين يتعتعهم السكر، ومدنيون من تلك الأحياء الشعبية العريقة التي كانت تشكل قديما القلب النابض للعاصمة.

طبعا يمكن القول إن هناك أشياء كثيرة كانت تجمع بيننا، لعل أهمها الحلم. الحلم بأن يتسع الوطن لأحلامنا، وبأن نسافر إلى المدن التي نحب لندلق جنوننا على أرصفتها آخر الليل.

إذن في ذلك اليوم من أيام بدايات أكتوبر 1982 (أعتقد أنه يوم السبت) كنا خمسة أو ستة، لا أذكر بالضبط. وكنا نشرب البيرة في مقهى "الأنترنسيونال" بجادة "باب البحر" ونتحدث بأصوات عالية حول أحداث الصيف الذي مضى. كانت إسرائيل قد غزت لبنان مطلع حزيران. وكانت صور الحصار الهمجي الذي شاهدناه على شاشة التلفزيون لاتزال تلاحقنا مثل الكوابيس المرعبة. آه! كم كان أغسطس قاسيا علينا خصوصا لما ظلت الطائرات الإسرائيلية تقصف بيروت على مدى يوم بكامله دون هوادة. يومها حاولنا أن نتظاهر احتجاجا على جبن الأنظمة العربية وصمتها، غير أن الشرطة شتتتنا في لحظات وألقي القبض على من أصروا على مواصلة التظاهر. ظللنا نغلي كالمراجيل. الحرارة خانقة في النهار كما في الليل. ونحن في المقاهي نعوم في العرق ونتابع الأحداث لحظة بلحظة. لا أحد منا ذهب إلى الشاطيء أو حتى إلى حديقة لكي يشم هواء نقيا. كنا نختنق كما لو أننا محاصرون بدورنا. ثم تضاعف حنقنا وخيبتنا لما نظم جيراننا من الناحية الغربية مظاهرة صاخبة لا احتجاجا على الغزو الإسرائيلي، بل ابتهاجا بانتصار فريقهم الوطني في مباريات كأس العالم في كرة القدم. ولكي نخفف من وطأة ما كنا نسمع ونرى، رحنا نعب الشراب حتى فقدان الوعي. وعندما تمت الموافقة على ترحيل الفلسطينيين إلى تونس، هرعنا جميعا إلى ميناء بنزرت. ظللنا ننتظر ساعات وساعات تحت الشمس الحارقة. شاهدنا عصام السرطاوي الذي اغتيل في لشبونة بعد أشهر قليلة يذرع رصيف الميناء وعلي وجهه هدوء أوقيد في منفاه.

شاهدنا بورقيبة على أكتاف حراسه، يلوح بيديه لحشود من الناس كانت تهتف داعية له بطول العمر. وبالرغم من أن المرض والتعب كانا باديين عليه، فإنه حرص على المجيء ربما لكي ينتقم من أولئك الذين نعتوه بالخائن، وقذفوه بالطماطم في بيروت لما طالب العرب عام 1965 بقبول حل التقسيم. حالما وصلت الباخرة، وشرع الفلسطنيون ينزلون منها متعبين ومحبطين. ضجت الجموع الغفيرة بالهتاف، ولوح الأطفال بالأعلام التونسية والفلسطينية من فوق الجسر المتحرك، وزغردت النساء من شرفات البيوت حتى أن عددا كبيرا من أولئك الذين عاشوا أيام الحصار العسيرة انفجروا بالبكاء من شدة التأثر.

بدأ الضوء ينحني. غصّ مقهى "الأنترنسيونال" بالزبائن. اشتدّ لغط العصافير في سماء "باب البحر" التي أخذ لونها يتحول من الأزرق الفاتح إلى البنفسجي الغامق. أخذت البيرة التي ظللنا نعبها عبا طوال الظهيرة تفعل فعلها. بين وقت وآخر كنا نتوقف عن الحديث لنستمع إلى واحد منا يقرأ قصيدة أو مقطعا من نص قيد الكتابة. فجأة رأيناه. كان جالسا في الطاولة المجاورة يتابع نقاشنا طابعا على شفتيه ابتسامة ساخرة إلى حدّ ما. شاب في الخامسة والعشرين تقريبا، قوي البنية، بعينين سوداوين فاجرتين -فيما بعد قال لي إن أمه كانت تقول له وهو صغير بأن له عيني عاهرة-، وأنف غليظ، ووجه لم تكن قد فارقته بعد تعابير الطفولة. وكان يرتدي بنطلون دجينز وقميصا أحمر بمربعات بيضاء مفتوحا على صدر غزير الشعر. سألناه:

- هل أنت فلسطيني؟

- لا، عراقي: ثم أضاف بعد قليل: لكنني كنت مع الفلسطينيين في بيروت.

- كنت مقاتلا؟

- لا.. كنت أعمل في مكتب الإعلام التابع للجبهة الديموقراطية.

- حدثنا عن أيام الحصار... كيف عشتها أنت شخصيا؟

- لم أعشها لأني كنت في مهمة في قبرص لما دخل الإسرائيليون بيروت.

خاب ظننا قليلا غير أننا لم نكف عن قذفه بمزيد من الأسئلة.

- هل أنت ماركسي؟

- لا... أبدا. لم تريدون أن أكون ماركسيا؟

- ألم تذكر قبل قليل أنك كنت تعمل في الجبهة الديمقراطية؟

- هذا لا يعني شيئا. هناك كثيرون يعملون في الجبهة الديمقراطية ولا علاقة لهم بالماركسية لا من قريب ولا من بعيد.

- ولماذا خرجت من العراق؟

- هذه قصة أخرى: قال وهو متضايق.

- يعني ماذا؟

- يعني أنني لا أريد أن أخوض في هذه المسألة، ردّ بحزم.

ظللنا نحدق فيه وعيوننا تلمع فضولا. أشعل سيجارة ثم قال:

- ولماذا أنتم متلهفون لمعرفة كل شيء عن حياتي في لحظة واحدة؟! دعونا نتعارف أولاً.

نهضنا جميعا لمصافحته "اسمي سامي شاهين"، قال وهو يصافحنا بدوره. بدا لي الاسم مصريا إلى حدٍ كبير، وغير متطابق مع صاحبه. وكنت على وشك أن استفسر الفتى العراقي حول ذلك لكن حين تذكرت أن أغلب الذين ينتمون إلى منظمات فلسطينية بما في ذلك القادة الكبار يحملون أسماء مستعارة، ابتلعت سؤالي بأقصى السرعة.

بعد أن تصافحنا، انضم إلى مجلسنا:

- من خلال ماسمعت من حديثكم بدا لي أنكم أدباء وشعراء...

- نعم... نحن كذلك.

بدا على وجهه الارتياح، وفي عينيه الفاجرتين لمع بريق فرح :

- في بيروت كان أفضل أصدقائي شعراء وكتابا صعاليك مثلكم! ضحك بقوة وضحكنا نحن أيضا. لساعة ظللنا مستغرقين في الحديث والشراب. بعدها انتقلنا إلى مطعم "طونطونفيل"، مطعم اليساريين والمثقفين في ذلك الوقت. خلال تلك السهرة الطويلة الحمراء، بدأت علاقتي بذلك الفتى العراقي التائه، الذي أصبح فيما بعد واحدا من أكثر الأصدقاء قربا إلى نفسي.

الساعة التاسعة والنصف. مازلنا نشرب في نفس المقهى ناطّين من موضوع لآخر مثل طائرين يقفزان من غصن إلى غصن ابتهاجا بطلوع الشمس. بعد الكأس الخامسة، يروي لي آخر مغامراته :

-اسمع ياصديقي... ليس هناك شراب في الدنيا ألعن من الويسكي. إنه قادر أن يجلب لك مصائب يمكن أن تقطع رقبتك. قبل ثلاثة أسابيع بالضبط، نظم العرب المقيمون هنا سهرة سينمائية. وفي نهايتها، أقاموا حفل استقبال قدمت خلاله أرقى أنواع المشروبات. وبالرغم من أني ذهبت إلى هناك، وأنا لا أكاد أميز طريقي، فإني رحت أعب الويسكي مثلما أعب الماء بعد ظمأ شديد. فجأة. غام كل شيء من حولي، ولم أعد أعي ما أقول أو ما أفعل. ولما أفقت ظهيرة اليوم التالي وجدت نفسي في شقة صديق لي. وكان قميصي ممزقا إربا إربا، وعلى وجهي وجسدي خدوش

وكدمات زرقاء. استفسرت صديقي عن السبب فأعلمني أنني قمت بأفعال مشينة خلال الاحتفال، إذ رحت أشتم العرب، وأسخر من أفلامهم ومن ثقافتهم. لم أكتف بذلك، بل فتحت سروالي وبلت عليهم. وطبعا هجموا علي ثم ألقوا بي في الشارع بعد أن أشبعوني ضربا وركلا. ومن فرط خجلي من نفسي ومما فعلت، مكثت خمسة أيام كاملة لا أخرج ولا أقابل الناس. لهذا أقسمت بأغلظ الأيمان أن لا أشرب قطرة ويسكي واحدة مستقبلا !.

باريس الآن تسبح في ضوء الخريف. السماء زرقاء تماما. لاقطعة سحاب واحدة. الشمس تبدو لذيذة مثل كعكةأخرجت للتو من الفرن. ساحة مركز "جورج بومبيدو" بدأت تمتلئ بعشاقها. الشبان المغاربة لا زالوا يدورون ويدورون مثل معتوهين. ندفع ثم ننهض. نتفق على أن نلتقي بعد ساعتين ونصف في مقهى "أطلس". أركب أنا الميترو وأمضي إلى "بال فيل". حالما أخرج من النفق، يتجلى أمامي عالم غريب، مدهش، فيه تختلط اللهجات والروائح والألوان والأجناس اختلاطا يجعلني أشعر أنني لم أقطع أربع محطات ميترو فقط، بل مسافات شاسعة بآلاف الكيلومترات. مع كل خطوة أخطوها أحس وكأني أرمى من بلاد إلى بلاد، أو من قارة إلى قارة في رمشة عين. ماليون طوال كالزرافات ينظرون حولهم بعيون بلون الكبد المريض. جزائري يهذي محركا يده بسرعة فائقة، باصقا على الأرض بحنق بين وقت وآخر. على بعد بضع خطوات منه، قبائلي بمعطف أسود متآكل الكمين، يعنف ابنه باللهجة البربرية، وابنه البالغ من العمر ثمانية أعوام تقريبا مطأطأ الرأس، وشفتاه تختلجان استعدادا للبكاء. سينغاليات في أزيائهن التقليدية الزاهية الألوان، يقهقهن ضاربات على أفخاذهن بأيديهن ، محركات أكفالهن وكأنهن يتهيأن للانخراط في الرقص على أنغام "التام التام". مغربي بجلابية وسخة يتسول مادا يدا سوداء كأنها عمود محروق، مرددا نفس الجملة: "الله يرحم الوالدين! "الله يرحم الوالدين!". شبان تونسيون متحلقون على الرصيف يطلقون كلمات بذيئة بأصوات عالية: "ياحموده. شوف. شوف آك اللي وراك. أراني فوقها. أراني نعجن فيها عجنان!". عجوز يهودي كئيب مثل بومة يدب مثبتا عينيه على الأرض وكأنه لا يرغب أن يرى من وماحوله. آسيويون بوجوه خالية من أي تعبير يراقبون المشهد العام بعيون ميتة. ترى أي سر

جعل كل هذه الشعوب، وكل هذه الملل والنحل تتعاشر دونما صدام في هذه الرقعة الصغيرة من الأرض؟!

أضغط على ناقوس شقة صديقي هانس بومان، الرسام الهولندي الذي اعتدت أن أقيم عنده كلما جئت إلى باريس. تفتح لي زوجته فريدريك. نتعانق، تعلمين أن هانس ذهب إلى الاتليه باكرا لأنه يعد نفسه لمعرض جديد في بداية العام المقبل. أضع على الطاولة الخبز الألماني الأسود الذي أتيت به بطلب منها. أشرب حبتي اسبرين بسبب الصداع الذي سببته لي البيرة الصباحية. تحدثني فريديريك عن بريس شاتوين الذي نصحتها أكثر من مرة بقراءته، وتقول لي إنها أصبحت مفتونة به، وإنها تعتزم قراءة كل ماكتب. ولأنني أعلم أنها عليمة بأحوال "بال فيل" وبأسرارها الخفية، وبحكاياتها الطريفة، فإني رحت أجرها إلى ذلك بهدوء، بهدوء تام حتى عضت السمكة على الشص...

- هناك حكاية جديدة في حينا.

- تضع أمامي بعض الجبن والطماطم والزيتون.

- هل تعرف ماذا حدث البارحة؟! ... أنا متأكدة من أن الحي كله مشغول الآن بهذه الحكاية العجيبة وعلي أن أنتظر حتى نهاية الأسبوع لكي أعرف تعليقات الناس عليها من فم جارتي اليهودية التي تجمع الحكايات والأخبار مثل عصفورة تجمع القش لبناء عشها. فكرت أن أذهب إليها غدا غير أني جد مشغولة هذه الأيام ولن أجد وقتا لذلك قبل الأحد.

تصمت لكي يزداد فضولي التهابا. فريديريك تتقن جيدا تلك الطريقة الشرقية التي يصبح فيها الشوق إلى سماع الحكاية أكثر أهمية من الحكاية نفسها. وبالرغم من أنها بارسية مائة بالمائة، فإني أعتقد أن في دمها بذرة من ذلك الشرق المتوسطي. عندما أمضينا قبل عامين عطلتنا الصيفية في أصيلة قرب طنجة، استطاعت منذ الأيام الأولى أن تربط علاقة حميمة مع أهل الحي، رجالا ونساء، كبارا وصغارا، وأيضا مع خبازين وباعة خضر وشحاذين. تأخذ جرعة من كأس عصير البرتقال الذي أمامها ثم تطلق من جديد ضحكة عالية وتقول:

- آ... إنها حكاية غريبة جدا ! غريبة إلى درجة أنك لا تستطيع أن تتصور حدوثها !..

بعد لحظات قليلة من الصمت، جدا ! تمدّ رأسها باتجاهي، ثم تواصل:

- أنت تعلم أن هناك عائلة إيطالية تقيم هنا منذ ما يزيد على الثلاثين عاما. لهذه العائلة ابن في حوالي السابعة عشر من عمره يدعى روبرتو. هل تدري ماذا حدث الليلة البارحة؟ لقد عثروا عليه يستمني أمام باب امرأة مطلقة في الأربعين من عمرها، وكان عاريا كما ولدته أمه. ليست هذه هي المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك. قبل عام وفي عز الشتاء ، وجده جارنا التونسي عاريا تماما أيضا، وكان يستمني متطلعا من خلال كوة الباب إلى ابنته المراهقة التي كانت تغط في النوم. التونسي وهو رجل شديد التدين كاد يخرج عن طوره. وكان على أم روبرتو المسكينة المريضة بالربو أن تمضي ساعات طويلة وهي تستعطفه لكي لايبلغ الأمر إلى البوليس. وجارتي اليهودية أخبرتني قبل حوالي شهر أنها كانت تشاهد التلفزيون حين سمعت حركة مريبة أمام الباب. ولما خرجت لتستطلع الأمر وجدته في نفس الوضع. نحن أيضا سمعنا أكثر من مرة حركات مريبة والآن أصبحنا متأكدين من أنه صاحبها. أكيد أنه مريض. أليس كذلك؟! والآن كل نساء الحي أصبحن خائفات!".

تظل فريديريك تثرثر حول الحكاية الغريبة بعض الوقت، ثم فجأة تنظر إلى ساعتها وتصيح: "أوه... علي أن أذهب حالا. لي موعد مع أبي بعد نصف ساعة. يا إلهي! سوف يغضب إن وصلت متأخرة".

أستحم وأستلقي. من خلال النافذة العريضة، أرى زوجة التونسي تنشر الغسيل على حبل معلق في البلكون. من لباسها أعرف أنها من جزيرة جربة. على الجدران حزم من الثوم والفلفل الأحمر. أحيانا حين أكون هنا، أشعر كما لو أنني في بيتنا في القيروان. مثل هذا الشعور لا يمكن أن ينتابني بالمرة في ميونيخ. ثمة أشياء كثيرة في باريس يمكن أن توحي أن الجنوب بشمسه وأصواته وغباره وكسله وفوضاه هاجر هو أيضا إلى هنا. أغمض عيني وأفكر في صباحات تونسية بعيدة معطرة بروائح الخضر والغلال والتوابل، مغسولة بالشمس وبأغاني صليحة وعلي الرياحي وعلية.

عند الزوال، ألتحق به في مقهى "أطلس" الواقع جنب سوق "السان جرمان" وقد أصبح هذا المقهى أحد أمكنتنا المفضلة منذ أن بتنا نضيق ذرعا بمقاهي "سان ميشيل" و"ساحة السربون" حيث يتحلق المنفيون العرب ليتحدثوا بأصوات عالية عن أوضاعهم المستعصية، وعن أحوال بلدانهم التي تزدادترديا يوما بعد يوم، وعن خلافاتهم التي لا تنتهي. أطلب صحن محار وقنينة نبيذ أبيض، ثم نغرق في الشراب والثرثرة.

بضع أسابيع كانت كافية لكي يصبح ذلك الفتى العراقي، المدعو سامي شاهين، واحدا منا. وقد لاحظنا أنه تمكن بسرعة من الانسجام مع نمط حياتنا متقبلا نزواتنا ومعاركنا الحامية الوطيس دونما دهشة، أو امتعاض، بل إنه أصبح يشارك في البعض منها بصفة عادية للغاية. ومع مرور الأيام ، بدأ هو بدوره ينفتح علينا قليلا، خصوصا لما يترع الخمر قلوبنا حنانا وحبا فنصبح متآلفين مثل فراخ في العش. وهكذا عرفنا أن صاحبنا آشوري مسيحي، ولد في الحبانية التي كانت قاعدة للطيران البريطاني. وبعد انقلاب 1968، وصعود البعثيين إلى الحكم، استلم الجيش العراقي القاعدة وشرد السكان المكونين من أقليات مسيحية وأرمنية وكردية وإيرانية. وعندئذ انتقل صاحبنا إلى الرمادي ثم إلى بغداد. وبعد أن أدى الخدمة العسكرية، سافر إلى دمشق. وعندما يئس من الدخول إلى أوروبا حط رحاله في بيروت التي ظل فيها حتى خروج المقاومة الفلسطينية منها.

أما الأمر الذي لفت انتباهنا أكثر من كل شيء فهو هوسه الجنوني بالسينما. كان لايمل من استعراض أخبار المشاهير من المخرجين والممثلين والممثلات. وباستطاعته أن يروي لقطة لقطة، مشهدا مشهدا، أحداث فيلم شاهده قبل سنوات. وحين يفتح حقيبته الحمراء التي لايملك غيرها، نعاين من النظرة الأولى أنها مليئة بصور السينمائيين الذين يكن لهم إعجابا خاصا: جون فورد، انجمار برجمان، فرانسيس فورد كوبولا، مارلين مونرو، روبرت دي نيرو، جون كاز افيت، جاين لولو بريجيدا، يوسف شاهين، شادي عبد السلام. وبالرغم من أننا لم نره يفتح كتابا أمامنا، فإننا فوجئنا بأنه مطلع اطلاعا جيدا على جل الكتب التي نعشقها.

الخريف المتوسطي يتـقدم ذاهلا مثل سكران. يتقدم ببطء كـما لو أنه يخشى أن يغيظ صـيفا مـتغطرسـا يتباطأ دائمـا في الرحيل. المطر ينزل رذاذا دافـئا على "سيدي بوسعيـد" التي عادت إلى عشاقها الحقيقيين بعـد أن هجرتها تلك الجموع الغفيرة التي تفر إليها عند اشتداد القيـظ تحت أقدامنا، تغفو قرطاج بحدائقها الأنيقة، وفيلاتها الفخـمة. لا شيء فيها يدل على أنها كانت ذات يوم مـسرحا لحروب ضارية تركتها ركاما من الحجارة المحروقة.

على مهل رحنا نهبط الدرب الحـجري النازل ملتويا باتجاه البحـر. نتكلّم همسا حتى لانخـدش جلال الصمت المهيب. خـالد بقامته القـصيرة ، وبرأسه التي تـتحرك بعصبية طول الوقت يتقدمنا. إنه أمـير "الفتية الشرسين" بلا منازع. وهو ينحدر من أصـول بربرية في أقصى جنوب البـلاد، غـير أنّه ولد وعـاش في ضاحـية بائسـة من ضواحي العاصمة، فيها يتكدس النازحون الفارون من جوائح الفقر والجفاف.

التقيت خالد مساء يوم خـريفي غائم في المطعم الجامعي خلال الأسابيع الأولى من دخولي إلى الجـامعة. أذكر أن جـيوبي كانت مـحشوة بالكتب والسـجائر، وأني كنت متحـفزا للمغامـرة تحفز الذئب للانقضاض على الـشاة الشاردة. اضطررت إلى الجلوس في نفس الطاولة التي كان فيـها بعد أن فشلت في العثور على مـقعد قرب طالبة بـفستـان أزرق سمـاوي شاهدتها فـي الصف ماسكة برواية فلوبيـر الشهـيرة: "مادام بوفاري". وعلى أية حال لم أحزن كـثيرا، ذلك أن الموقع كان يسمح لي بأن أختلس إليـها النظرات بينما هي تأكل بتـأن، مديرة عينيـها العسليـتين الحالمتين في القاعة الفـسيحة المكتظة بالطلبة ، وكأنها هي أيضا تبحث عن صيد.

ظللت منشـغلا بها أكـثر من انشـغالي بطبقـي إلى أننطق الفتى الجـالس أمامي مباشرة باسم "رامـبو". رامبو؟ أية مفاجأة سـارة! أسابيع طويلة مرت دون أن يداعب سمعي مرة واحدة حـديث حول مسألة أدبية. جميع الطلبة غارقون في مـشاكل افتتاح الـسنة الجامعـية. السكن. المنح. النقل. لا أحد منهم بدا مـستعدا للخـوض في موضوع آخر غيـر ذلك. وهكذا رحت أبحث عن المغامرة بعيدا عن حـياة الطلبة التي بدت لي خلوية وسطحـية. وفعلا طفت أكثـر من مرة في بارات "باب البحر" بـحثا عن أدباء

وشعراء سمعت عنهن وقرأت لهم غير أن بحثي لم يفض إلى أية نتيجة. ولما نطق ذلك الفتى الجالس أمامي مباشرة باسم رامبو، بدا لي أن الفرصة التي انتظرتها باتت في متناول يدي. وفي الحين، نسيت الفتاة الزرقاء ، وركزت انتباهي عليه. الصوت غليظ لا يتناسب مع حجم صاحبه. الرأس ملتصق بالصدر لقصر الرقبة. شفتان شرستان يعلوهما شارب خفيف. عينان صغيرتان ترفان طول الوقت وتلمعان ببريق أخاذ. بريق يدل على توهج داخلي، ربما يكون توهج النبوغ المبكر. صديقه الجالس إلى جانبه فتى طويل القامة، شاحب الوجه، مكتئب الملامح يبدو مذعورا وغير مرتاح لما كان يسمع. واصل الفتى حديثه عن رامبو. وكان واضحا من الوهلة الأولى أنه محيط بسيرته، ملم به إلماما مثيرا للتقدير والإعجاب. بل إنه أنشد عن ظهر قلب مقطعا من "فصل في الجحيم". ثم لست أدري من الذي بادر، أأنا أم هو. وإذا المودة تقوم بيننا على أروع صورة. لكأن كل واحد منا يعرف الآخر منذ أمد بعيد . حال فراغنا من الأكل، استأذن الفتى الشاحب وغادر على عجل. بعد انصرافه بلحظات، قال لي خالد: "هذا الشاب يدرس معي في نفس الصف. وهو يكتب القصة القصيرة. وقد اكتشفت أنه يتردد على مجالس الأدباء الرسميين وينشر إنتاجه في مجلاتهم. لذا أريد أن أنقذه من ذلك المستنقع قبل فوات الأوان. إنه شاب ذكي وقارئ جيد لكنه عديم التجربة. لم يسهر معي مرة في البارات. يبدو أنه يخاف كثيرا ومن كل شيء !".

خرجنا إلى ليل تونس البارد قليلا. تمشينا في جادة "باب البحر". تصفحنا الكتب والمجلات المعروضة في الأكشاك المنتشرة على جانبي الجادة. بعد أن شربنا بعض البيرات على كونتوار مقهى "باريس" انتقلنا إلى بار "فلورنسا" لنكمل الشراب. قبل انتصاف الليل، عرض علي خالد أن أصاحبه إلى بيته: "لابد أن ترى مكتبتي !".

اجتزنا المدينة العتيقة الغارقة في الصمت والعتمة. منذ الخطوات الأولى فيها، تيقنت أن خالد يعرفها شبرا شبرا. لما بلغنا "القصبة"، توقف خالد عند عمود كهربائي. أخرج من محفظته الصغيرة كتابا رث الغلاف يحتوي على مختارات من قصائد طاغور، وراح يقرأ لي بعض المقاطع بصوت حار. أغمضت عيني ونهت بخيالي بعيدا،

بعيدا جدا إلى أن رأيت نفسي أمشي في سهوب الهند تحت القمر، ومن مكان تأتي إليّ لمسات قيثارة حزينة، وهمسات صبايا عاشقات يتمشين حافيات الأقدام في روض الرياحين. أشعر بأن النجوم كلها تتلألأ في كياني، أن الكون يجيش في حياتي كأنه السيل. الزهور تتنور في كياني. شباب الأرض والماء، يسمو في قلبي كأنه بخور المجامر، ولهاث الوجود كله يتردد ضمن أفكاري كما يتردد في ثقوب الناي.

وصلنا إلى البيت الواقع على أطراف الضاحية الفقيرة الوسخة في الساعة الواحدة صباحا. انشغل خالد بإعداد الشاي، أما أنا فأخذت أقلب في محتويات المكتبة بلهفة وشغف. أبدا لم أر حتى تلك اللحظة مكتبة بمثل ذلك الحجم وذلك الثراء حتى أنني تمنيت ألاّ أخرج من هناك أبدا. "اسمع -قال لي خالد- بإمكانك أن تقرأ أيّ كتاب تريد هنا، أما أن تحمله خارج البيت فهذا أمر مستحيل. ذلك هو الشرط الوحيد في علاقتي بالأصدقاء!".

ليتها عرفت أن خالد سافر إلى الجزائر، وتسكع في القاهرة ودمشق وبيروت. وهناك التقى العديد من الشعراء والكتاب الذين كنت مفتونا بأعمالهم، متخيلا التعرف عليهم أمر عسير، بل يكاد يكون مستحيلا. كما عرفت أنه نشر بعضا من أشعاره ونصوصه في ملاحق أدبية مشهورة مثل ملحق "النهار" البيروتية. وأنا أستمع إليه يروي رحلاته ومغامراته العجيبة، اتسع العالم من حولي، واقتربت مني مدن كنت أخالها قصية يستحيل الوصول إليها، وانهارت حواجز وأسوار عالية كانت تحجب عني الأفق، ومن حولي فاح أريج الشعر مثلما يفوح عطر الياسمين والفل من جنائن "سيدي بوسعيد" أوائل آيار. عند اندلاق ضوء الفجر البنفسجي على باحة البيت، انتابني شعور بأن أبواب العالم قد انفتحت أمامي كلها على مصراعيها.

عقب تلك السهرة، توطدت علاقتي بخالد، ولم أعد أفارقه لا في الليل ولا في النهار. الآن حين أفكر في تلك الأيام، وأنا على أبواب الخامسة والأربعين، أقول إني كنت محظوظا حقا. فقد تمكن ذلك الفتى البربري الملتهب أن يعمق لدي المفهوم الحقيقي للفن والكتابة واللغة، وأن يشحنني بقوة هائلة من الرفض والتحدي، مكنتني في مابعد من مواجهة محن الأيام العصيبة، وأنقذتني من حبائل واقع ثقافي رديء قادر أن يحول المبدع إلى بوق للدعاية والكذب والمديح.

واصلنا نزول الدرب الحجري على مهل. خالد اقترح علينا بعد الغداء أن نأتي إلى "سيدي بوسعيد" لزيارة لوران جاسبار، الشاعر المجري الأصل الفرنسي الجنسية الذي اكتشفناه مطلع السبعينات عندما كنا نقرأ سان جان بيرس حالمين بزنجيات ملتهبات كالجمر، وبجزر منسية في أعماق المحيطات. وطبعا كان خالد وراء هذا الاكتشاف.

ينتمي لوران جاسبار إلى منطقة "الكاربات" نفس المنطقة التي إليها ينتمي مبدعون كبار من أمثال باول تسيلان ويوجين يونسكو وسيوران. مثل هؤلاء، اختار لوران جاسبار المنفى المضاعف، الجغرافي واللغوي في آن، ومضى بـ "نعال من ريح" عبر الشرق القديم باحثا في أديانه، وأساطيره، وصحاريه، وأنهاره، وبحاره عن الشعر في بكارته الأولى حين شرع الرب يسمّي العالم والأشياء.

المراحل التي سبقت اكتشاف لوران جاسبار للشرق كانت بمثابة "آلاف الكيلومترات من الليل فوق أرض في حالة فوضى". وقتها كانت نيران الحرب الكونية الثانية تأكل القارة العجوز. وكان لوران جاسبار في سن العشرين. كان عليه أن يخترق في عربة دواب "ليالي لم تعد ترغب في الأرض، وأرضا لم تعد ترغب في الإنسان". برغم الجوع والخوف، ظل الفتى محافظا على تماسكه حتى وصل إلى باريس. هناك استعاد الرغبة في التعلم وفي السهر في الشوارع الخاوية. ثم ذات يوم "في هذه العتامة الجديدة، الفتحة المنتظرة: الشرق!". لم يتردد لوران جاسبار وفي رمشة عين حزم حقائبه ورحل إلى الأرض القديمة التي طالما دغدغت أحلامه وخياله، مثلما "يذهب إلى عطش يحكم التائهين عند تهاوي الفصول". منذ البداية ، لمست أن هناك بذرة بدوية في دم لوران جاسبار. لعل تلك البذرة هي التي حرضته على الرحيل إلى موطن البدو الأول: الشرق.

حال وصوله إلى هناك ، راح يستنطق الحجارة والطبيعة، الناس وآثار الأقدام الحافية التي تقطع المسافات الطويلة غير عابئة بحمارة القيظ.

شيئا فشيئا تعلم، وهو القادم من جبال "الكاربات" الوعرة وغاباتها السوداء الباردة، أنه يوجد في تلك الأرض الموغلة في القدم، ماهو أساسي، أي الشعر. وهكذا انعقدت بينه وبين شعراء الشرق الكبار صلة لم تنفصم مذ عرفها.وإذا بنصوصه تنبجس محمّلة بأصدائهم، مواصلة تساؤلاتهم أمام أسرار الغيب، ودهشتهم أمام

تحولات الإنسان والطبيعة. حتى لغة الشعر نفسها بدت له وهو يهيم مع البدو في صحراء سيناء، وأحراش الأردن، وصحراء سورية عاكسة لصورة تاريخ الشرق ذاته. فهي مثله "تجرف الأزمنة والفضاء الهارب، وتؤسس الأحجار والتاريخ، لتتحول في مابعد إلى مكان لاستقبال غبارهما. وهي تمتلك الحيوية التي بها تقام الإمبراطوريات، وبها تتلاشى. وهي في النهاية شبيهة بفناء خلفي متآكل اكتسحته الأعشاب الوحشية، وغطى الحبق حيطانه، وفيه يتمهل ضوء المساء لبعض الوقت".

فتتت حرب حزيران 1967 حلم لوران جاسبار بميلاد شرق جديد عقب قرون طويلة من الدمار والخراب، فترك القدس التي كان يعمل فيها طبيبا منذ نهاية الخمسينات ، وعاد إلى باريس. غير أنه لم يمكث هناك إلا قليلا إذ من جديد عاوده الحنين إلى الشرق، فحزم حقائبه وجاء إلى تونس.

يتعالى صخب البحر هناك عند أسفل رابية "سيدي بوسعيد" قويا عنيفا. رأس خالد يتحرك بأكثر عصبية من ذي قبل، والفتى الآشوري صامت، مأخوذ بشيء ما، ربما يكون جمال الطبيعة، أو جلال الهدوء، أو ذكرى انبجست للتو، وعطرت المكان. "اسمع -يقول خالد مخاطبا إياه- أنا متأكد أنك سوف تحب لوران وأن لوران سوف يحبك بدوره. لا أعتقد أن حاجز اللغة سوف يعطل الحوار بينكما، نحن سوف نساعدكما على التفاهم. ثم إن لوران يفهم العربية إلى حد ما".

منذ أن انضم إلينا الفتى الآشوري، وخالد يخطط لأخذه معنا إلى لوران جاسبار. نحن نسمي ذلك "التعميد" وبعده يمتلك القادم الجديد مشروعية الانتساب إلى "العصابة". وخالد لا يتيح هذه الفرصة- أي زيارة لوران جاسبار- إلا لشخص يستشف في سلوكه وثقافته مايمكن أن يثري عالمنا الصغير أو يدعم حربنا ضد مافيات الثقافة المؤطرة. من جانب آخر، كان يريد أن يثبت للوران جاسبار أن "الخوارج" (هكذا كان يسمينا لوران جاسبار) هم وحدهم القادرون على صنع المفاجآت الجميلة في الحياة كما في الشعر.

حالما ينفتح الباب الأزرق ، يقول خالد للوران جاسبار:

- نحن نعلم جيدا أنك تحب السلالات المنقرضة. لذا حرصنا هذا اليوم أن نأتيك بآخر من تبقى من الآشوريين!

صخب البحر يتحولّ الآن إلى نشيج خافت. رائحة الشعر حارة نفاذة تملأ البيت. كتب في كل مكان. يضع لوران جاسبار أمامنا زجاجة نبيذ مجرية حمراء ثم يجلس قبالتنا على أريكة وضعت عليها عدة وسائد موشحة برسوم زاهية الألوان. يتحدث خالد طويلا في أمور شتى متنقلا بين الشعر والسياسة والهنود الحمر وقبائل البربر. بين وقت وآخر، يطلق طرفة من الطرائف، يضحك لها لوران جاسبار عاليا. أروي أنا تفاصيل تحقيق صحفي قمت به عن عقلاء المجانين في القيروان. أما لوران جاسبار فيظل صامتا ينصت إلينا، وعلى وجهه بهجة الأستاذ المبهور بتلاميذه اللامعين. ثم لا يلبث الشراب أن يحل عقدة لسان الفتى الآشوري فيخرج عن تحفظه، وينخرط معنا في الحديث بحماس وزهو.

يهبط الليل. نشرع في شرب الزجاجة الثالثة. يعتري حديثنا شيء من الفتور غير أن لوران جاسبار سرعان ما يكسبه حيوية جديدة فاتحا الحوار التالي مع الفتى الآشوري:

لوران: ماحجم الآشوريين في العراق راهنا؟

هو: هم كثيرون. غير أن الأغلبية الساحقة منهم هاجروا إلى أستراليا وكندا وأمريكا. في مدينة ديترويت مثلا، لا يمكنك أن تخطو خطوة واحدة دون أن تصطدم بآشوري.

لوران: متى خرجت من العراق؟

هو: عام 1978 .

لوران: وهل باستطاعتك أن تعود؟

هو: لماذا تريدني أن أعود إلى الجحيم ثانية؟!

يضحك الجميع.

لوران: هل تتصل بأهلك؟

هو: صعب. بعثت برسائل كثيرة. وإذ لم أتلقَ أيَّ ردّ انقطعت عن ذلك.

لوران: خالد قال لي حين حدثني عنك أن البعثيين أخرجوكم بالقوة من الحبانية. فهل هذا صحيح؟

هو: صحيح !

لوران: كيف حدث ذلك؟

هو: مباشرة بعد انقلاب 1968، قرر البعثيون تحويل الحبانية إلى قاعدة عسكر خالية تماما من المدنيين. وذات يوم طوق الجيش المدينة، ثم طاف الجنود في الأحياء ليعلموا الناس بوجوب إخلاء بيوتهم في أقرب وقت ممكن. الميسورون حملوا متاعهم ورحلوا بأقصى السرعة. أما الفقراء أمثالنا، فقد ظلوا يترقبون، آملين في أن يتم التراجع عن تنفيذ القرار.

لوران: وماذا حدث بعد ذلك؟

هو: ظلوا مصرين على ترحيلنا. وأذكر أني عدت عند الزوال فوجدت أناسا كثيرين متجمعين في الحي. وكان الجنود يهدمون سقوف البيوت، وأمي ممدة فوق الأنقاض، وفي أحضانها أختي الصغيرة شيرين التي وضعتها قبل أسبوع واحد فقط. وكان إخوتي يكدسون أمتعتنا فوق عربة خضراء. أما أبي فكان مكتوف الأيدي، ينظر إلى ماكان يقع بعينين فارغتين. إلى حد هذه الساعة، لم أر مشهدا أشد بؤسا من ذلك المشهد إلا في بعض الأفلام.

لوران: وماذا كان مصيركم بعدئذ؟

هو : أنا ذهبت إلى مدينة الرمادي مع عائلة شيعية إيرانية كانت جارة لنا. أما أمي وأبي وإخوتي فقد توجهوا إلى بلدة صغيرة اسمها الخالدية. ولم ألتق بهم إلا عقب مرور عامين كاملين.

لوران: كيف كانت الحبانية قبل ذلك؟

هو: كانت مدينة صغيرة، جميلة وهادئة. وبالرغم من أن سكانها كانوا ينتمون إلى أقليات مختلفة، فإنهم كانوا يعيشون في وئام تام.

أنا الآشوري المسيحي مثلا لم أكن أستنكف من الذهاب إلى المسجد مع أبناء جيراننا الإيرانيين الشيعة. ومثلهم كنت أقرأ سورة "الناس" قبل النوم حتى أطرد الشياطين من البيت. وهم أيضا كانوا يأتون معي إلى الكنيسة، ويحتفلون معي بعيد الميلاد دون أي تحفظ. وفي شهر رمضان، كان أطفال الحي من عرب ويهود وتركمانيين وفرس وأرمن يطوفون أمام البيوت وهم ينشدون أناشيد دينية إسلامية. نعم... كل هذا كان يتم دون أن يثير حفيظة أو احتجاج أقلية من الأقليات.

لوران : وهل عدت إلى الحبانية بعد ذلك؟

هو: نعم... وكان ذلك بعد أن أتممت الخدمة العسكرية. عند الجسر حيث توادعنا جميعا يوم خروجنا من الحبانية، كانت هناك نقطة تفتيش وجنود. سألت أحدهم:

- هل يمكن أن أدخل؟

- لماذا ؟ قال .

- كنت أسكن هنا قبل سنوات .

- آ... ولكن لابد أن أتعلم أن الحبانية قد حولت إلى قاعدة عسكرية ولايجوز دخولها إلا برخصة.

- وكيف الحصول على رخصة؟

انتظر !. قال الجندي، ثم توجه إلى ضابط سمين كان يتحدث إلى جنود في الناحية الأخرى من الجسر وهمس له ببعض الكلمات بعد أن أدى التحية العسكرية. تطلع إلي الضابط بشيء من الفضول، ثم اقترب مني:

- ماذا تريد ؟. قال بلهجة حادة.

- أريد أن أزور الحبانية، سيدي الضابط.

- ولماذا ؟

- كنت أسكن هنا، سيدي الضابط.

- من الصعب أن نسمح لك بالدخول لأن المدينة قاعدة عسكرية الآن.

- أعلم ذلك، سيدي الضابط. لكن اسمح لي أن أعلمك أني خلصت الواجب العسكري قبل أيام قليلة. وهاهو سجلي العسكري الذي يثبت ذلك. وعندما كان يثبت في السجل، أضفت قائلا:

- أرجو سيدي الضابط أن تفهم مشاعري. لقد ولدت في هذه المدينة وفيها كبرت.

أعاد لي الضابط السجل وأشار قائلا:

- ادخل . بإمكانك أن تظل ساعتين أو ثلاثا إن أردت !

قطعت الجسر. سرت على مهل تحت الشمس اللاهبة. وعندما وصلت إلى الحبانية، لم أصدق مارأيت. كل شيء كان مهدما، مخربا، محروقا. لا نبات. لا شجر. لا ظل. لقد مسحت المدينة تماما، ولم يتبق منها غير المسجد والمستشفى وصالة السينما التي أصبحت مقرا لحزب البعث. أما الحدائق الجميلة التي كانت تحيط

بالقاعدة العسكرية البريطانية فقد اختفت تماما، ومكانها انتصبت بنايات عسكرية كثيبة. وأصبح مكان حينا، ملعبا لكرة القدم مخصصا للجنود.

لوران: وكيف كانت فترة الخدمة العسكرية ؟

هو: لقد كنت ضمن الجنود الذين أرسلوا لإخماد تمرد الأكراد في الشمال.

لوران: (مدهوشا) آ (طويلة).

هو: نعم. لقد حاربت ضد الأكراد مكرها بالطبع. وحتى هذه الساعة لا يزال الجرح العميق الذي فتحته في قلبي تلك الفعلة الشنيعة ينزف دما. وطبعا عشت خلال تلك الفترة السوداء أحداثا ووقائع سوف تظل تعذبني إلى أن أمحي من الوجود.

يصمت قليلا ثم يضيف:

لن أنسى أبدا ذلك الشيخ الكردي الطاعن في السن الذي جلدوه أمامي حتى الإغماء. يومها فاجأنا الباشمارجة في منحدر وعر وأمطرونا بوابل من الرصاص. ومنذ الدقائق الأولى، فقدنا ثلاثة جنود وضابطا وتعطبت لنا شاحنتان. ظل القتال يدور على أشده بيننا وبينهم حوالي ساعة. ولما انسحبوا كانت الخسائر فادحة من جانبنا: عشرة قتلى وخمسة عشر جريحا بينهم اثنان في حالة خطرة للغاية. وقع الاتصال بالقيادة في السليمانية لإعلامها بنتائج المعركة. ثم أمرنا بتمشيط المنطقة من حولنا حتى لايكرر الباشمارجه هجومهم علينا. بعد نصف ساعة تقريبا جاء الجنود بشيخ هزيل يكاد يكون شبحا وقالوا إنهم عثروا عليه هائما على وجهه في الغابة. بعد أن فتش بدقة، سأله الآمر:

- ما اسمك أيها الشيخ؟

- سليمان .

- من أين أنت؟

- من هذه الجبال .

- ماذا كنت تفعل؟

- أبحث عن عنز ضاعت لي قبل حوالي ساعة.

قهقه الجنود. أما الآمر فقد صاح وقد استشاط غيظا:

- اسمع أيها الشيخ. الأفضل لك أن تقول الحقيقة وإلا فإنك سوف تدفع الثمن غاليا !

- والله ياسادتي ماقلت هو الحقيقة بعينها !

في هذه اللحظة، اقترب من الآمر ضابط يلقب بـ "أبو جاسم" معروف بقسوته ودناءته وهمس له :

- أعتقد أنه يفتعل البله. ومن المؤكد أنه عين من عيون أولئك الباشمارجه الكلاب. اتركه لي وسوف ينطق بالحقيقة إن آجلا أم عاجلا !

انسحب الآمر. أوثق الجنود يدي الشيخ ورجليه، ثم علقوه في شجرة، وراحوا يجلدونه بينما أخذ الضابط الغليظ الرقبة، المتورم الوجه يدور حوله آمرا إياه بأن يعترف بكل شيء أو إنه سوف يموت تحت السياط.

كانت الدماء تسيل بغزارة من الجسد الهزيل، غير أن الشيخ لم يصرخ ولم يتأوه. فقد كان يردد بصوت مكدود :

- لماذا تضربونني؟ دعوني أذهب لأفتش عن عنزي قبل أن تلتهمها الذئاب !

يشعل سيجارة ثم يواصل:

في تلك الحرب القذرة، خسرت أعز صديق إلى نفسي خلال فترة الخدمة العسكرية. اسمه عبد الكريم. مثلي كان مهووسا بالسينما، مدمنا على قراءة الروايات البوليسية، عازما على السفر إلى أوروبا حال تسريحه من الجندية. كان يقول لي دائما: "أملي أن أدرس المسرح والسينما في أرقى معاهد لندن أو باريس". وبالرغم من أنه كان من عائلة سنية محافظة، وأبوه فقيه وإمام جمعة في واحد من أكبر مساجد بغداد، فإن عبد الكريم كان نفورا من الأديان جميعها. مرة قال لي: اسمع ياصديقي العزيز! ثمة سؤال يعذبني طول الوقت. لماذا اختار الله أرض الشرق دون غيرها ليظهر فيها الأديان الثلاثة؟ ولما اعترفت له بعجزي عن الإجابة، قال لي هو: "الجواب الوحيد المقنع في نظري هو أن الله أراد أن يعذب أهل الشرق أكثر من غيرهم. لذا أوكل لهم هذه المهمة الثقيلة: حماية الأديان وهكذا بات محكوما عليهم أن يعيشوا صراعات ونزاعات وحروبا لا تنتهي إلا لكي تندلع من جديد بأشد وحشية وضرواة !".

صمت قليلا، ثم أضاف: "أمـا أنت وأنا فلا مكان لنا في هذا الشرق المريض حد التعفن. لذا علينا أن نعجل بالفرار بعيدا، بعيدا قبل أن يأتي الخراب الكبير!".

وبالفعل رحل عـبد الكريم بعيدا عـقب أسابيع قليلة من هذا الكلام. رحل دون أن يحقق أي حلم مـن أحلامه الجـميلة... أذكر أننا عـسكرنا عند سفح جـبل شاهق قرب الحدود الإيرانية. وجاءت المعلومات تؤكد أن المنـطقة التي نوجد فيها آمنة تماما. وكان من الطبيعي أن نفـرح جميعا إلى أبعد حد. وقد تكبدنا أثـناءها خسائر فادحة في الأرواح والعتـاد. راح بعض الجنود يتجـولون حول المعسكـر. آخرون تمددوا هكذا على العشب تحت الشمس الدافئة. خمـسة أو ستة جنود، بينهم عبد الكريم، ارتأوا أن يسبحوا في نهـر صغير رغم أن الهواء كان باردا إلى حد مـا. وبينما هم يقتربون من الماء انفجر لغم. فأصيب ثلاثة بجروح متـفاوتة الخطورة. أما صديقي عبد الكريم فقد قتل على عين المـكان! بعد أسبـوع فقط، انتهت الحـرب وأعلنت الحكومة أنهـا سوف تفـتح مـفاوضـات مع الأكـراد بهدف التـوصل إلى حل سلـمي، راح الجنود يهللون ويطلقون النـار في الهواء. أما أنا فـقد انزويت في ركن قصـي، ورحت أبكي بصوت عال. أتمنى لو كان عبد الكريم معنا ليشاركنا فرحتنا الكبرى!.

بدا الفتى الآشوري وكأنه على وشك أن ينفجر باكيا. خيم الحزن. سكت لوران عن السـؤال فلم نعد تسمع سوى نشيج البحر وهمهمة الريح في أشجار الحديقة.

غادرنا بيت لوران في ساعـة متأخرة. مشـينا تحت الرذاذ الخريفي الدافيء شوارع "سيدي بوسعيد" مقفرة تماما. بعيدا تتلامع مراكب ومنارات. ركبنا تاكـسي وتوجهنا إلى بيت خالد لنكمل السهرة.

أتركه في مقهى "أطلس" يواصل الشـراب لوحده، وأتيه في المكتبات. الطواف بين الكتب عـادة مقـدسة بالنسـبة إلي. أحب أن أمـضي ساعـات طويلة متـصفـحا الكتب، متشمما روائحها، مداعبا أغلفتها، قاضما فقرة من هذا أو فقرة من ذلك. وقد عرفت مكتبات كثيـرة في مدن عربية وغربية غير أني ماوقعت في غـرامها مثلما هو حالي مع مكتبات باريس.

أدخل مكتبة "لاهـون" أشتري روايتين للكاتب الأمريكي وليـام سنايرون الذي اكتشفته حديثا، ثم أتوجـه إلى مقهى الـ "بونابارت". في سنوات سابقة، كنت أكثر

من يتردد على هذا المقهى خصوصا في ساعات الظهيرة. أما الآن فقد صرت أنفر منه إلى حدٍ ما. ومع ذلك يحلو لي أحيانا أن أتوقف فيه قليلا خصوصا بعد أن أتزود بالكتب من "لاهون" أو من "لوديفان" لأستعرض بعضا من مغامراتي القديمة. أقف على الكونتوار وأطلب كأس "بوجولي" مجيلا النظر في أرجاء المقهى العامر بالزبائن. هناك في تلك الطاولة حيث تجلس سيدة خمسينية تقلّب صفحات مجلة "باري ماتش" تعرفت قبل عشر سنوات على فتاة هولندية صهباء، منمشة الوجه، خضراء العينين. كان المساء ممطرا باردا وأنا اقرأ "الحياة في مكان آخر" لميلان كونديرا حين دخلت مبلّلة وساهمة. جلست بالقرب مني. طلبت "شوكولاطة" ثم غرقت في قراءة "ناديا" لاندريه برتون. انتظرت قليلا، ثم بادرتها بالكلام. اسمها فلور. من أمستردام تدرس الموسيقى. جاءت إلى باريس لأسبوع واحد، غير أن المدينة فتنتها إلى درجة أنها قررت البقاء فيها رغم أنها على وشك الإفلاس التام: "لاأريد أن أترك باريس إلا متى شعرت أني شبعت منها بما يكفيني لسنة كاملة!" قالت. تعشينا في مطعم صغير في شارع "دي كانيت" قرب ساحة "سان سولبيس"، أكلت وشربت بنهم. بعدها أخذتها إلى فندقي الصغير في "الماريه" حتى هذه اللحظة مازلت أشم رائحة جسدها المنمش، وأسمع صراخها المثير حين تأتيها الحالة.

أغادر مقهى الـ"بونابارت" وكلمات هنري ميللر: "باريس! باريس! كل شيء يحدث هنا!" ترن في أذني مثل نواقيس الكنائس.

خلال السهرة في بيت خالد التي استمرت كالعادة حتى الخامسة صباحا، روى لنا الفتى الآشوري بعضا من ذكريات طفولته في الحبانية، مزيحا شيئا من ذلك الضباب الذي ظل يكتنفه منذ أول لقاء به... اسمعوا أيها الأصدقاء الأعزاء... لقد هيّج الحديث مع لوران مشاعري، وأيقظ في نفسي ذكريات قديمة هي الآن تتقافز حولي مثل عصافير مرحة. والآن باستطاعتي أن أقول إني أرى الحبانية بوضوح تام كما لو أني لم أغادرها أبدا.

ها أنا بين إخوتي وأخواتي أستمع إلى أمي وهي تروي لنا بصوت حزين قصة تازيه الجميلة التي اختطفها الدب الآشوري، ثم فر بها إلى الجبال ليتزوجها، وينجب

منها صبيا، نصفه إنسان، ونصفه حيوان. فجأة يدخل أبي وقد تعتعه السكر. تخرج أمي عن طورها، وتصيح فيه بحدة: "الله يلعن الزمن الذي ربط مصيري بمصير رجل أبكم أصم وسكير فوق ذلك!" يظل أبي هادئا، غير عابئ بصراخها وشتائمها. فقط بين وقت وآخر، يقوم ببعض الإشارات نفهم من خلالها أنه يطلب منا ألاّ نصدق أيضا، أتسلل إلى بيت جيراننا الإيرانيين. ترحب بي نانا خديجة التي تحبني مثل أولادها. زوجها حسين كوباي الذي فقد اثنين من أصابع يده اليمنى في حادث مجهول، يشرب الشاي راويا أكاذيبه التي يتفنن في اختلاقها تفننا بديعا. يقول مثلا إنه قبل أن يصبح بائع ساندويتشات و"آيس كريم"، كان ثريا جدا، يلبس حرير الصين، ويتعطر بعطور باريس، ويرتاد أرقى الكابريهات في بغداد. ويوما وقع في غرام غانية كردية شقراء بدد من أجلها كل ثروته. بعد إفلاسه، تخلت عنه تلك الغانية "الفاجرة" لترتمي في أحضان ضابط إنكليزي مخنث. حين ينتهي من رواية كذبته هذه، يظل حسين كوباي ساهما بضع لحظات، ثم يبصق على الأرض بحنق. وأنا لم أكن أدري إن كان يبصق على نفسه أم على الغانية الخائنة. عندما يسهر خارج البيت، تقص علينا نانا خديجة قصة فارس مغوار، يدعى زهراب، يعطف على الفقراء والمساكين، وبسيفه القاطع يطيح برؤوس الجائرين والظالمين. في أحلامي كنت أرى الفارس زهراب يأتي إلى الحبانية على ظهر حصان أبيض، ويهدي أبي كيسا مليئا بالذهب والجواهر.

في الصباح أخرج إلى الشارع. أقف أمام باب أسود مغلق طول الوقت.

وراء ذلك الباب الموحش، يعيش منذ سنوات طويلة هاشم المجنون، موثوق الرجلين بالسلاسل. وأهل الحي يروون أن النوبة الأولى أصابته في حمى الصيف، فخرج على الناس شاهرا سكينا في حجم السيف، وراح يهدد ويتوعد، مولولا، لاعنا السماء والأرض، الأموات والأحياء. وخوفا من بطشه، لجأ الجميع إلى بيوتهم وغلّقوا الأبواب.

أربعه رجال فقط، بينهم أحد أخواله تجرأوا على مواجهته وتمكنوا بعد عناء من السيطرة عليه. وأم هاشم هذا كانت دائما تقول والدموع تنهمر من عينيها: "ياحسرتي على ولدي. لقد كان أجمل وأذكى فتى في الحبانية كلها!". أما نانا خديجة فكانت تقول إن هاشم كان يحفظ الستين حزبا عن ظهر قلب غير أن امرأة

شريرة من الحي لاترغب في ذكر اسمها سحرته لأنه رفض الزواج من ابنتها. في أيام الصيف، تشتد النوبة على هاشم، فيأخذ في الصراخ والعويل والخبط على الباب. وعندئذ تهرع أمه إلى أمي طالبة نجدتها وذلك بعد أن ثبت للجميع لسبب لا يدريه أحد، أن هاشم لا يهدأ إلا عندما يرى أمي. بمفتاح ثقيل تفتح أمي الباب الأسود، فيبرز أمامنا فتى فارع الطول، برأس غريب الشكل، ووجه متورم مكسو بالشعر، وعينين واسعتين خاليتين من أي تعبير. تبتسم له أمي وتقول له بحنان ولطف: "آش لونك هاشم؟ زين؟ نحن نحبك... ماتصرخ... تحب تشرب شاي !". يهدأ هاشم في الحين مثل كلب هائج يرى سيده ويهز رأسه موافقا. بعدها يكف نهائيا ولأيام عدة عن الصراخ والعويل... أواخر الظهيرة ألتحق بأبي في البار الصغيرالقذر الواقع على أطراف المدينة من الناحية الغربية. أجده جالسا بين ندمائه الأوفياء: عدنان الحلاق الذي لم يتزوج رغم أن الشيب خط شعره. دافيد المصور اليهودي الذي أهداني صورة إليزابيت تايلور "ملكة هوليود" كما كان يسميها، وقارياقوس بشعره المصفف على طريقة جيمس دين، وقميصه الأحمر النظيف دائما رغم أني لم أره لابسا غيره سواء في الشتاء أو الصيف. ولم أر مرة قارياقوس غاضبا أو عابسا. طول النهار وهو يروي حكايات ظريفة تسلي الجميع، وتبعث المرح في قلوب الصبايا الجميلات. وبالرغم من أن أبي كان أخرس وأصم، فإنه كان قادرا على أن يشد إليه ندماءه بشكل عجيب. ولساعات طويلة يظل يروي لهم بالإشارات طبعا حكايات يضحكون لها عاليا. يتقدم الليل. فيزداد البار وحشة وقذارة.

يوغل أبي وندماؤه في السكر حتى تتخبل ألسنتهم، وتثقل حركاتهم. يمدّ قارياقوس ساقيه إلى الأمام ويشرع في النفخ بين أصابعه محدثا أنغاما شبيهة بأنغام الساكسفون. يخوض دافيد المصور في حديث طويل عن أجمل الممثلات في هوليود. عدنان الحلاق ينصت مطلقا تجشآت كريهة. الجرسون يوشيا يهوم هناك وراء الكونتوار. أما أبي فيخرج من جيوبه الكثيرة صورا لنساء شقروات كان قد اقتطعها من المجلات المصورة، وينشرها أمامه على الطاولة بين القناني والكؤوس. لا أحد حزن مثل أبي على رحيل الإنكليز من قاعدة الحبانية. بل إنه كان لا يفتأ يردد أمامنا بلغته الخاصة أن رحيلهم هو أفظع نكبة عرفها في حياته. في خزانته الصغيرة، كان يحتفظ

بعلبة فضية تشبه علب السجائر، عليها شعار اكتشفت في مابعد أنه شعار القوات الملكية البريطانية. وكان يحرص على الاعتناء بهذه العلبة أكثر من أي شيء آخر في الدنيا. وأبدا لم يكن يسمح لأحد منا بلمسها أو الاقتراب منها. أمي تقول أن ضابطا إنكليزيا هو الذي أهداه تلك العلبة قائلا له: "هذه هدية من جلالة الملكة !". ومنذ ذلك الوقت، أصبح أبي يعتقد أن الملكة إليزابيت تعرفه جيدا، وتعلم بحبه لشعبها وإخلاصه لقواتها المسلحة. وكان على يقين تام أن الملكة ترسل له هدايا ورسائل غير أن عمر ساعي البريد يخفيها عنه. وربما لهذا السبب كان يكرهه ويتخاصم معه طول الوقت. حين يبالغ في الاعتناء بعلبته تصيح فيه أمي: "هل تتصور أيها الأحمق أن في ذاكرة الخواجات الإنكليز مكانا لواحد مثلك أخرس وأصم وسكير فوق ذلك!". وطبعا لم يكن أبي يهتم بما تقوله أمي سواء كانت غاضبة أم راضية عنه. حين ينفرد بنفسه، يفتح علبته، ويستغرق في مناجاة لاتنتهي. ومع مرور الوقت، أيقنت أن أبي يؤمن في قرارة نفسه أن الملكة هي أنبل امرأة في الكون، وأن بقية النساء قذرات عاهرات بما في ذلك أمي.

في زفاف جارتنا صبيحة، رقص أبي في البداية مع أجمل الصبايا في الحي. بعد ذلك دفعهن بعيدا عنه، وظل يرقص وحيدا، عيناه مغمضتان ووجهه النحيل يسيل وجدا وانتشاء تماما مثل انطوني كوين في الرقصة الأخيرة في فيلم "زوربا". فجأة داهمتنا أمطار غزيرة، فجرينا إلى البيوت نحتمي بها. أما أبي فلم يعبأ. ظل يرقص ويداه تتحركان في الفضاء مثل جناحي طائر يحوم على وجه الأرض بهدوء وأناة.

ورغم أنه تبلل من الرأس حتى القدمين فإنه لم ينقطع عن الرقص. راحت أمي تصيح: "ادخلوه...إنه مجنون وسكران!". غير أن الناس لم يهتموا بها. ظلوا يصفقون ويضحكون وهو يدور، يدور، بينما الأمطار تضرب جسده اليابس الناتئ العظام. لعله كان يتخيل أن الملكة ذات التاج المرصع بالذهب والياقوت تراقصه، أو أنها بصدد مراقبته من شرفة قصرها البعيد وهو يرقص تحت المطر على نغمات حبه لها.

أمضي في شارع "جاكوب". أتوقف أمام العمارة التي تسكنها مارجريت الأنكليزية. أعاين أنها لا تزال تقطن هناك. أضغط على "الأنتارفون". لاترد. أكيد أنها نائمة ذلك أنها مثل خفاش لاتخرج إلا في الظلام.

تعرفت على مارجريت في بيت مهاجرة روسية جاءت إلى فرنسا بعد انتصار البلاشفة وعمرها ثلاثة أعوام. صديقي المنصف الذي احتضنني عند قدومي إلى باريس أول مرة هو الذي أخذني إلى هناك. استقبلتنا السيد الروسية الفارعة الطول، استقبالا حارا. فتنت بأناقتها وبفرنسيتها، وبأثاث بيتها الذي كان ينم عن ذوق أرستقراطي رفيع. كل المدعوين أجانب ولا فرنسيا واحدا. تناولت كأس فودكا بعصير البرتقال، ثم رحت أفتش عن صيد. لم أهتم بمارجريت التي كانت تنتقل بخفة وسط الصالة الفسيحة دون أن تفارق الابتسامة شفتيها، نهداها الذاويان الملتصقان بصدرها جعلاها تبدو لي خالية من أية إثارة. رحت أراود فتاة إسبانية غير أن صديقها الشيلي برز فجأة. فلذت بالفرار، مبعثر الخطى. حاولت مع أخريات لكن دون جدوى. وعندما قدمتني السيدة الروسية إلى ابنتها التي كانت جالسة بمفردها في ركن قصي، انتعشت آمالي من جديد. جلست قبالتها وغرقنا في الحديث. عرفت أنها تعزف على البيانو، وتدرس الأدب الإنكليزي. قالت لي أن اخماتوفا هي أعظم شاعرة روسية في هذا العصر، وأن ماياكوفسكي عظيم رغم قصائده عن لينين. أما أروع الشعراء الأمريكان فهو بلا أدنى شك والت يتمن. والشعراء الفرنسيون؟ أيلوار! وهي لاتمل أبدا من قراءته. وأراجون؟ هو أيضا رائع رغم إعجابه بستالين غير أن أيلوار أفضلهم جميعا. ثم انتقلنا إلى الموسيقى. باخ، شوبان، موتزارت، براهمس، ستزا فينسكي... لكن الموسيقى الحديثة تزعجها كثيرا بل إنها تصاب بالصداع حين تسمعها.

رحت أبحث عن ثغرة تساعدني على النفاذ إلى قلبها غير أنها ظلت سميكة مثل قلعة باردة. ولما أيقنت أن هدم جبل بمعول يمكن أن يكون في ركن بعيد عنها، وأنا كئيب مثل بدوي احترقت خيمته أمام عينيه. عندئذ اقترب مني المنصف:

- لماذا أضعت كل هذا الوقت معها؟
- إنها فاتنة. ثم أنا من زمان أحلم بأن أفعله مع روسية !
- لن تنال منها شيئا لأنها صعبة للغاية. وربما تكون سحاقية !
- بمن تنصحني؟ أنا لا أريد أن أذهب وحيدا إلى الفراش هذه الليلة.
- بتلك ! (يقصد مارجريت).
- ولكن صدرها....

- مالك وصدرها أيها الأحمق؟! إنها لذيذة جدا في الفراش!

- هل...؟

- لا. لكن صديقا خبيرا أكد لي ذلك.

- فليكن !. قلت ثم توجهت إليها.

انتهت السهرة حوالي الساعة الواحدة صباحا. حملنا المنصف في سيارته حتى "السان جرمان" ثم قال: "أعتذر لابد أن أنام لأن لي موعدا في الساعة السابعة صباحا!" (كان يكذب بطبيعة الحال).

دخلنا أول مقهى صادفنا حال نزولنا من سيارة المنصف.طلبت هي "اكسبريس" وطلبت أنا "بوجوليه". راحت تحدثني عن نفسها.... هي تعيش حياة صعبة في باريس لكنها لاترغب في العودة إلى لندن. الناس هناك خنازير بأتم معنى الكلمة. ولو كانوا حقا عكس ذلك لما انتخبوا امرأة شمطاء وقحة مثل مارجريت تاتشر. أحيانا تسافر إلى البرتغال. عندها أصدقاء رائعون في لشبونة. عندما أيضا أصدقاء في اليونان غير أنها لم تزرهم سوى مرة واحدة. حلمها أن تزور الهند وأيضا مصر. آ... على ذكر مصر... هي تعرف رساما مصريا يسكن قرب "الباستيل"، رجل لطيف إلى أقصى حدّ، وشره بشكل لا يصدّق. بإمكانه أن يلتهم دجاجتين في بضع دقائق. مرة رسمها عارية من الخلف. لكن عندما أراد أن ينام معها رفضت رفضا قاطعا. هي تحبه كصديق فقط. لا أكثر ولا أقل. بدأت أمل. وكنت أبحث عن طريقة للتخلص منها بأقصى السرعة حين سمعتها تقول:

- أتحب أن تشرب عندي كأسا؟

صعدنا إلى الطابق الثاني. الشقة ضيقة لكنها مرتبة للغاية. على الطاولة الصغيرة، وضعت زجاجة فودكا ممتلئة إلى النصف، وعصير برتقال، ثم سألتني:

- أية موسيقى تفضل؟

- جاز.

- لوي ارمستروبخ؟

- نعم.

- آوه. أنا أعشقه أيضا !.

الصوت الأسود الغليظ يلهب شهوتي للجنس. لكن مارجاريت تبدو غير مهتمة بالمرة بما يستعر في داخلي. راحت تقصفني بالأسئلة...

هل ترجم لي شيء إلى الفرنسية؟ ماهي مواضيع القصص التي أكتبها؟ هل أفكر في كتابة رواية؟ من هم الكتاب الذين أثروا في أكثر من غيرهم؟ كيف أجد باريس؟ فلأعلن عن نواياي الحقيقية قبل أن تزهق روحي. مددت يدي ورحت أداعبها. لم تعترض. اقتربت منها ولثمت جيدها. لم تعترض. ضممتها إلي، فرفعت نحوي عينين رأيت فيهما بريق الشهوة لأول مرة، ثم همست:

- ولماذا أنت سريع إلى هذا الحدّ؟

وضعت شفتي على شفتيها، فغرست لسانها في فمي. رميت يدي بين فخذيها فذابت تماما.

كانت لذيذة حقا خصوصا عندما جامعتها من الخلف. النساء العصبيات عادة ما يكن ممتعات في الجنس. ذهبت هي لتستحم، أما أنا فغلبني النوم. لعلني نمت ساعة أو ما يفوق الساعة، ثم أيقظني نشيج غريب. نظرت فإذا مارجاريت دافنة رأسها بين يديها، وتبكي مثل سماء باريس يوم انتخبوا فرانسوا ميتران (حدث ذلك قبل أسابيع قليلة).

- ماذا حدث؟! سألت وقلبي يدق دقات متسارعة. لم تجب. أردت أن أحتضنها، فدفعتني بعنف وهي تصيح:

- لا تلمسني !

- مالك؟ !

كفّت عن البكاء. رفعت رأسها. وجهها الآن بشع إلى أقصى حدّ.

- أو تجرؤ أن تسألني عن السبب أيضا؟ آوه... هذا شيء لايحتمل !

- ماذا فعلت؟ أريد أن أفهم !

- لاتسألني قلت لك !

صمت. ما العمل؟! ربما يكون من الأفضل أن أخرج قبل أن تحدث كارثة. نهضت.

- أنا لا أعرفك جيدا... غير أنك فعلت كل شيء لكي تأخذني إلى الفراش بأقصى السرعة. لقد عاملتني مثلما تعامل عاهرة وضيعة ! قالت وهي ترتجف من الساق حتى الرأس. رحت ألبس ثيابي.

- نعم، الأفضل أن تذهب لأني لن أحتمل وجودك هنا ولو دقيقة واحدة أخرى !

بعد أسبوع، كنت أسير في شارع "ران" حين اصطدمت بها. أدرت وجهي متحاشيا النظر إليها، غير أنها أمسكت بذراعي.

- ماذا تريدين ؟! صحت فيها وبي رغبة في أن أصفعها هكذا أمام الملأ.

- لاتصرخ ! أريد أن أتحدث إليك قليلا...

- أما أنا فلا أريد !

ابتسمت. بدت جميلة ومثيرة. هدأت.

- تعال نشرب شيئا في المقهى المقابل.

استسلمت لها. بعد أن وضعت أمامنا الجرسونة العجوز فنجاني قهوة قالت:

- أنا أعتذر. لقد قمت بعمل مشين حقا. وأنا نادمة !

ظللت صامتا.

- نعم ... أنا نادمة... نادمة جدا. أحيانا أتصرف بغباء لايطاق !.

أمسكت بيدي ثم همست :

- هل تصفح عني؟! ودون أن تنتظر جوابا، ارتمت علي وراحت تقبلني بجنون حتى أن الجرسونة العجوز كسرت كأسا من شدة الغيظ. ركضنا إلى شقتها الصغيرة.

عند نقطة التقاء شارع "جاكوب" بشارع "السين" طلع عليّ العفيف مرتديا معطفه الرمادي الذي لايكاد يفارقه لا في الصيف ولا في الشتاء، معتمرا كاسكاته الشهيرة التي تجعله شبيها بمحرض شيوعي في فترة الثلاثينات. وكان حاملا محفظته الجلدية السوداء كعادته دائما.

-آ... هو أنت ... ماذا تفعل هنا أيها الوغد؟، صاح حالما رآني.

تعانقنا. تمعنت فيه. لم يتغير. الجسد الهزيل الذي يخيل إليك أنه سوف يطير مثل ريشة إذا ما أنت نفخت عليه. العينان الصغيرتان اللتان ترفان بدون انقطاع. الابتسامة الماكرة والطفولية في نفس الوقت. الصوت النحيل المنسجم انسجاما كاملا مع حجم الجسد. الضحكة الخافتة.

- متى حلّ ركبك؟

- هذا الصباح.

- هذا الصباح فقط ؟! إذن أنت معذور وإلا كنت أنّبتك لأنك لم تهتف إلي...
- كنت عازما أن أفعل هذا عند المساء...
- أنا سعيد أن أراك. صار زمان لم نلتق. تعال نتمش قليلا...
- هناك صديق ينتظرني في مقهى "أطلس"...
- دعه ينتظر !
- لا يمكن !
- هل هو عربي؟
- نعم...
-إذن دعه ينتظر لأن العرب متعودون على الانتظار منذ عهد آدم !

لافائدة. ليس من السهل على الإنسان أن يرفض طلبا من طلبات العفيف اللذيذ. مضى بي في شوارع صغيرة، شبه خالية. أعرف أنه يمقت الزحام مقته للفقهاء والحكام العرب، ويستهويه المشي طول الوقت تماما مثل الفلاسفة المشائين في عهد الإغريق.

وهو لايركب الميترو إلا عندما يكون قادما من الضاحية التي يسكن فيها، أو عائدا إليها. أروع متعة على الإطلاق أن يمشي ويتحدث. فإن تعب جلس في حديقة أو على ضفاف "السين" ذلك أنه يرفض رفضا قاطعا الجلوس في المقاهي. فإن صادف ودخل واحدة منها، مرغما بطبيعة الحال، فإنه يصر على الوقوف على الكونتوار مجيبا الجرسون بنوع من الحدة بأنه لايريد شيئا. حتى الماء لايشربه هناك لأن الرأسمالية في نظره سممت كل شيء حتى لم يعد يوجد شراب أو طعام في مأمن من الأوبئة القاتلة. لذا هو لا يأكل إلا خبز الشعير الذي يقطع مسافة طويلة مرتين في الأسبوع من أجل أن يأتي به من إحدى الضواحي. ولايتناول من الفواكه إلا الموز وتين الصبار لأنهما مغلفان بقشرة سميكة تحميها من الجراثيم ومن الإشعاعات النووية. لا تفاح، لا عنب، لا حليب ولا مشتقاته. لا لحوم ، لا خمر... أبدا لم أعرف في حياتي كائنا صارما مع نفسه في الأمور المتعلقة بالصحة مثل العفيف. وقد تصل هذه الصرامة إلى درجة أن أكثر الناس تعلقا به، وأشد الأصدقاء وفاء له، يضيقون به أحيانا، ويبتغون الفرار منه بأقصى السرعة. مرة دعاني إلى شقته في "نوازي لوجران". أسعدتني

الدعوة لتيقني التام أن العفيف لا يخص بمثل هذا التشريف إلا من صادف هوى في نفسه ، وأصبح مقبولا لديه فكريا وأخلاقيا. طول الطريق ظل يعاتبني عتابا جارحا لأن وزني زاد قليلا عن المرة السابقة التي التقينا فيها. خلال العشاء، واصل الحديث في نفس الموضوع. حاولت أن أوجهه إلى مجال آخر غير أنه حرن مثل حمار. خيرت أن أصمت. ظللت أصغي إليه على مضض. راح هو يمدني بأرقام مرعبة عن ضحايا التلوث في باريس، وفي بعض المدن الكبرى الأخرى ويشرح لي أسباب الأمراض المستعصية المنتشرة في العالم. ولم يكتف بذلك بل أكد لي أن العالم استنادا إلى تحاليل بعض العلماء، سوف يفنى بعد خمسين عاما بالضبط، بسبب انتفاء الأوكسيجين من الكرة الأرضية. اجتاحني رعب أسود حتى أني شعرت بالاختناق. خرجت من عنده كالفار من الجحيم، وأنا أقسم القسم تلو القسم أني لن أسعى لرؤيته مرة أخرى.

عقب أسبوعين من عودتي إلى ميونيخ، وصلني منه ظرف ضخم، فتحته فإذا به محشو بعشرات المقالات المتعلقة بالتلوث ومخاطره على الطبيعة وعلى صحة الإنسان. ألقيت به في سلة المهملات وأنا في أقصى حالات التبرم والحنق. لكن خلال زيارتي اللاحقة إلى باريس، لم أصبر وهتفت له منذ اليوم الأول لوصولي.

أول مرة سمعت باسم العفيف كانت أواسط السبعينات. وقتها كنت لشدة تعلقي بالماركسية، وافتناني بالحركات الثورية في العالم بأسره، ألتهم كل ما كان يقع بين يدي من منشورات وأدبيات لها صلة بكل ذلك: الكراسات الفلسفية لماوتسي تونغ، مذكرات تشي جيفارا، ما العمل؟ للينين، مؤلفات جورج لوكاتش وجرامشي... ويوما ما مد لي صديق عائد من باريس للتو كتبا وقال لي: "خذ... هذه أفضل وأدق ترجمة للبيان الشيوعي صدرت إلى حد الآن !". كان المترجم هو العفيف. ولما استفسرت عن جنسيته، أعلمني الصديق أنه ربما يكون جزائريا. حال فراغي من قراءة الكتاب ، اندهشت لوجود مثقف له مثل ذلك الامتلاك الآسر للغة العربية في بلد متفرنس حتى النخاع مثل الجزائر. بعدها حصلت بطريقة ما على كتاب آخر: "نصوص حول الدين". وكان العفيف هو جامع تلك النصوص، ومترجما لها، وكاتب مقدمتها التي دلت دلالة قاطعة على أنه يتمتع بثقافة عالية، وذكاء حاد، ونظرة ثاقبة،

وتألق فكري نادر الوجود في العالم العربي. في هذه المرة، ولسبب لم أستطع أن أعثر على تفسير منطقي له، ارتجت قناعتي بأن يكون العفيف جزائريا، غير أني كتمت شكوكي، ولم أشأ أن أتحدث لأحد في الموضوع. ثم مرت سنوات الهيجان الأولى بسرعة مذهلة، وبدأت أحلامي الثورية تذبل وتتساقط، وحماسي للماركسية يتفتت ويتلاشى في غبار الخيبات والانكسارت المرة. ذات ليلة باردة من ليالي فبراير، كنت في بيت صديق لي نتجاذب أطراف الحديث في شؤون شتى، وإذا باسم العفيف يرد على لساني لسبب ما. عندئذ صاح الصديق:

- آ... هذا صديق قديم عزيز علي كثير !
- صديق؟، قلت أنا مدهوشا.
- نعم... صديق. وقد درسنا مع بعض في جامع الزيتونة في الخمسينات.
- يعني أنه ليس جزائريا ؟
-إنه تونسي من بلدة مكثر تحديدا !.

فرحت. لا لأن العفيف تونسي، وإنما لأنه أصيل بلدة أعرفها جيدا منذ الصبا، وإليها يتسوّق أهلي كل يوم اثنين.

من تلك الليلة، انكشفت لي بعض أطوار سيرة العفيف وعرفت أنه كان طالبا لامعا في الجامعة الزيتونية، قادرا على مجادلة أكثر الشيوخ علما ومعرفة في قضايا اللغة والفقه والأدب والتاريخ والفلسفة. ولتفوقه عليهم في ذلك صار بعضهم يبغضونه بغضا شديدا ويحاولون الإيقاع به في الامتحانات . ولأنه كان فقيرا -بالكاد يحصل على قوت يومه- فإنه كان حريصا على الوقوف كل يوم لساعات طويلة أمامِ المكتبات ، في البرد كما في الحر قصد إنهاء كتاب ما. بهذه الطريقة أتى على أهم المؤلفات والمدونات، واطلع على آثار الأولين والمحدثين على حد السواء. وقبل تخرجه، أصدر مجلة أدبية نشر فيها نصوصا جريئة، أغضبت رجال الدين، وأثارت حفيظة الشيوخ المتزمتين في الجامعة الزيتونية، غير أن العفيف لم يحفل بهم، وواصل إصدار المجلة بعزيمة فولاذية، مهرولا وحده من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت لكي يوزعها في الوقت المناسب.

مطلع الستينات . الدولة الوطنية التي تأسست قبل سنوات قليلة، بسطت نفوذها على البلاد والعباد، ورفعت شعار: "الصدق في القول والإخلاص في العمل". بورقيبة يخطب في الجماهير الهاتفة بحياته واعدا إياها بالرفاه والكرامة والحرية. المثقفون يتدافعون بالمناكب من أجل الحصول على رضا السلطة الجديدة. حتى أولئك الذين تعاملوا مع الاستعمار، وتمترسوا في جحورهم أيام كان الناس يموتون يوميا في معركة الاستقلال الوطني، مدوا أيديهم طمعا في نيل الصدقة. الأحلام كانت بعدد نجوم ليل الصيف في البوادي والأماني بلا حدود. أولئك الذين كانوا يبيتون على الطوى، أضحوا على يقين تام بأنهم سوف يمشون على الذهب بعد قليل. لا أحد كان بإمكانه أن يحدس أن كل تلك الأماني والأحلام سوف تتبدد بعد حين مثل الرماد في الريح. لا أحد غير نفر قليل. بينهم العفيف وشاعر عصامي ابتلعه ليل الجنون.

يترك العفيف تونس بينما كان بورقيبة يعدم معارضين مدنيين وعسكريين حاولوا تدبير انقلاب ضده على شاكلة ما كان يحدث في جل بلدان المشرق العربي في ذلك الوقت، ويتوجه إلى الجزائر التي استقلت حديثا عقب حرب طاحنة أكلت الأخضر واليابس، آملا أن يعثر فيها على مايمكن أن يرضي أحلامه وطموحاته الثورية. حال وصوله إلى هناك، يرمي بنفسه وسط أتون الجدل الساخن الذي اندلع بين ثوار الجزائر حول ملامح مرحلة مابعد الاستعمار. لكن فجأة، يطل الاستبداد الشرقي في صورته الأشد قبحا وجلافة، فتتساقط الرؤوس، وتخمد الأصوات ويهيمن الرعب على القرى والمدن، وتموت زهرة الثورة تحت الأحذية الثقيلة. وإذا البلاد التي ألهبت حماس الثوريين في جميع أنحاء العالم على مدى مايقارب عشرة أعوام، تتحول إلى قلعة حصينة كئيبة، تحرسها الدبابات، وكلاب الشرطة والعسس الذين يكتمون في رمشة عين صوت كل معارض، أو محتج أو خارج عن صف الزعيم الأوحد.

يقطع العفيف البحر، ويتيه في أوروبا. لا زاد له غير أفكاره، وأحلامه، وكتبه القليلة. وهاهو في حانات باريس وبراغ وفيينا وبرلين بشطريها يجادل وسط دخان السجائر وضجيج الكؤوس، ويصحح المفاهيم التي فقدت بريقها بسبب عبث العابثين، ويضيء الطريق للضالين والضائعين، ويشحذ همم من تعبوا وكلّوا، ويرفع

معنويات من هزموا أو خذلوا، ويزيح الغبار عن تلك الأفكار الفاتنة التي ركنها البيروقراطيون في سراديب مقرات الحزب الواحد، أو في خزائن المخابرات الرمادية. حين يشعر أن الرأسمالية لاتزال قادرة على إغراء الملايين، وأن ساعة الثورة لم تحن بعد، يغادر القارة العجوز، ويتجه نحو الشرق، أرض النبوءات والأساطير، عازما هذه المرة على إشعال حرائق الثورة في أركانه الأربعة. وهاهو في أحراش الأردن مع الفلسطينيين يحدثهم عن أساليب حرب العصابات، ويوضح لهم أفكار تروتسكي ولينين وماوتسي تونج، ويقرأ لهم أشعار نيرودا وناظم حكمت وآيلوار وماياكوفسكي.

وكان لايزال في أوج حماسه ذاك حين اعتراه، بغتة، إحساس بأن مايقوم به لا يختلف في شيء عن عمل من يسقي أشواكا، أو من يحاول أن يغرس ورودا فوق الرمال المتحركة. اجتاحه الغيظ والإحباط، فانزوى بعيدا يراجع أفكاره، ويفحص أفعاله فحصا دقيقا.

هل يمكن أن يكون الشرق قد أصبح عقيما إلى هذا الحد؟ عذبه السؤال حتى هجره النوم، وتعتمت نفسه مثل بئر مهجورة. وكان لايزال سادرا في البحث عن جواب مقنع لما طلع عليه قائد فلسطيني كبير وطرح عليه السؤال التالي: "ماهي أسباب تخلف الثورة في نظرك؟". حدجه العفيف بنظرة قاسية، ثم انفجر كالبركان: السبب الوحيد هو أن على رأسها واحدا مثلك !. ثم ولاه ظهره ومضى من غير رجعة.

إلى أين الآن؟ كل العواصم العربية أصبحت قلاعا حصينة في قبضة مستبدين. إلى أين؟ إلى عدن ؟! وفي بلد يعاني من الجوع والأمية فوق ذلك؟ هل... لكن ما فائدة الأسئلة؟ الأفضل أن يستبين الأمر عن كثب. لعل في بلاد "زرقاء اليمامة" ماينعش الأمل في نهوض جديد لهذا الشرق النائم منذ دهور مديدة.

تحط به الطائرة في عدن فيصاب بالخيبة منذ الساعات الأولى. جوع. فقر يفوق كل وصف. ذباب. غبار. وحشة قاتلة. رامبو كان على حق إذ لا مكان أفضل من ذاك لنسيان بهجة الشعر! مشى في المدينة محاطا بالرفاق السعداء بقدومه. لاشيء مما شاهد وسمع أقنعه بأن هناك اشتراكية تبنى.

لاشيء غير الشعارات والوعود والثرثرة القاتلة. في الليل راح الرفاق يحدثونه بحماس مفرط عن مشروع الثورة الزراعية الذي أقره الحزب في مؤتمره الأخير. ظل العفيف ينصت إليهم، وهو يرتشف الويسكي بأناة دون أن يتفوه بكلمة واحدة. ولما تعب منهم بما فيه الكفاية، التفت إليهم وقال وعلى شفتيه طيف ابتسامة ساخرة: "ولكن أيها الرفاق الأعزاء.. ما لكم متحمسون للثورة الزراعية كما لو أنكم تملكون أراضي أوكرانيا؟!".

في الصباح، حمل حقيبته الصغيرة ورأسا إلى المطار باتجاه بيروت. في البداية سحرته المدينة بمقاهيها ولياليها الحمراء ومطابعها التي لاتكاد تتوقف ومكتباتها الثرية ومطاعمها المنتشرة على طول الشاطئ ومثقفيها القادمين إليها من كل حدب وصوب وصحفها التي لا تخشى مقص الرقابة، فاطمأن إليها، ورمى بنفسه في بحرها المتلاطم كالهارب من الرمضاء.

راح العفيف يتنقل بين المقاهي مجادلا، محلّلا، طارحا أفكارا جديدة، ممزّقا أفكارا قديمة، منصتا بانتباه حتى لو كان الأمر لا يقتضي ذلك، فاتحا صدره لكل التيارات والآراء، متأملا في الصغيرة والكبيرة بعين الناقد الثاقب البصيرة، مشرحا مايكتب وماينشر، منغمسا في حركة المدينة الصاخبة في الليل كما في النهار. أحيانا وهو عائد عند الفجر إلى فندقه الصغير، يقف أمام البحر لساعة أو يزيد، مستمتعا بذلك الإحساس الذي يعتريه بين وقت وآخر، ويجعله شبه متيقن أن تلك الثورة الثقافية التي طالما حلم بها سوف تندلع هناك، ثم تكتسح الشرق من المحيط إلى الخليج، جارفة مثل السيول الغاضبة كل الموانع والمحرمات والأفكار الصفراء.

مر عام ونصف العام وهو على هذا الحال من النشاط والحزم والتوقّد. ثم وهو يستيقظ من نوم ثقيل عقب سهرة طويلة، جرحه شعور غريب ظل يكبر ويكبر إلى أن غمر كيانه كله مثلما يغمر الطمي الجدول الصغير. انسدت المنافذ، وأحس بالاختناق. فتح النافذة. تبدت أمامه المدينة بشعة مثل عاهرة عجوز ملطخة الوجه بالمساحيق. كل شيء فيها مزيف، كاذب، مخادع، مفتعل. ماذا حدث ياترى؟ هل أصبح الشرق فعلا صحراء عقيما، لا تنبت غير الخيبات والهزائم وأشواك اليأس؟! مدمى القلب خرج يبتغي تفسيرا لذلك التغير المفاجئ. لم يتكلم. ظل ينصت مدخنا

السيجارة تلو السيجارة، راميا في جوفه الكأس تلو الكأس. بدا له أن ما يسمع من أقوال وأفكار وآراء منفصل انفصالا كليا عن الحياة. مجرد أكياس من القمامة تتعفن تحت شمس الشرق الحارقة. تمعن في الوجود. لا أثر فيها للصدق وأولئك الذين ظن ذات يوم أنهم سوف يشعلون حريق الثورة الهائل ليسوا في الحقيقة غير أحفاد الفقهاء العور الذين كانوا وراء خراب الشرق ذات يوم.

أما المدينة فسوف يفتك بها طاعون الطائفية والإيديولوجيات والأوهام الكاذبة عماً قريب. لذا عليه أن يعجل بالفرار قبل فوات الآوان.

مرة أخرى يعود العفيف إلى باريس التي كانت لاتزال تعيش تحت وقع أفكار ربيع 68، يشاهد سارتر وسيمون دي بوفوار وجان جينيه وميشال فوكو وكلود مورياك في تظاهرة تضامنية مع العمال المهاجرين المغاربة ، يلتهم نصي جان جينيه عن "الفهود السود" وعن منظمة "بادر ماينهوف" الألمانية، يهزه صمود الفيتناميين الأسطوري أمام آلة الحرب الأمريكية الجبارة، فيعاوده الحنين إلى ممارسة لعبته المفضلة: تغيير العالم. ولأن عاشق الأفكار مثل المقامر لايعرف التوبة، فإنه يشرع ثانية في تهيئة نفسه لاستئناف نشاطه الثوري غير عابئ بجراح الانكسارات السابقة التي لاتزال تدمي القلب والروح والجسد.

يجوب باريس طولا وعرضا بحثا عن الفضاء الأمثل لزرع أفكاره. لم يستهوه مثقفو باريس التقدميون لأنه كان مقتنعا منذ أول اختلاط بهم بأن هؤلاء هم أردأ ورثة للفكر الثوري الأوروبي: هم مثل تلك النخالة التي لا تنفع إلا لتغذية الوحوش الضالة. مجرد ثرثارين يعشقون الصالونات، ويحترفون أكاذيب الدجالين. في أوقات مزاحه، وهي كثيرة، كان يقول إن ثورة مثقفي باريس، هي مؤنث ثور. وكل يمدح بقرته! ثم ينفجر ضاحكا مثل طفل سعيد بالعثور على وصف دقيق لحالة لاتروق له. العمال المهاجرون؟ لكن بإمكان هؤلاء أن يخدعوا مثقفي باريس المغفلين، أما هو فيعلم علم اليقين أن هؤلاء يمثلون الصنف الأكثر إخلاصا لظلام الشرق، ولأفكاره وتقاليده البالية. كل التجارب التي قام بها منذ أن كان يستمع إلى دروس الفقه على حصر الجامع، أظهرت أنهم لا يترددون في رفض كل جديد، ونبذ كل من يسعى لإنقاذهم

من مستنقع الجهالة والبؤس الذي فيه يتخبطون منذ مئات السنين. فإن تمادى الواحد في إرشادهم وتوعيتهم، انقضوا عليه، وعلقوا رأسه في الساحة العامة. أين إذن؟

في مقاهي "ساحة السربون" يلتقي العفيف جمعا من الشبان العرب يشربون البيرة، يدخنون بنهم، ويتحدثون بمرارة وحزن عن أوضاع بلدانهم. الأنظمة العربية لم تبطئ في وأد الأحلام، والنكث بجميع الوعود التي قطعتها على نفسها أيام نخوة الاستقلال، وهاهي أفواج المنفيين تتدفق على عواصم الغرب مشحونة بالغضب والنقمة والرغبة في الانتقام من أنظمتها وساستها. لبضعة أسابيع يظل العفيف يتردد عليهم منصتا إلى أفكارهم وشكاويهم وأمانيهم وطموحاتهم، ثم لا يلبث أن يغمره الابتهاج والتفاؤل. نعم... بإمكانه أن يشرع الآن في العمل، فكل شيء يوحي بأنه لم يخطئ في الاختيار هذه المرة.

في ظرف مدة وجيزة، يصبح العفيف قبلة أولئك المنفيين الحالمين مثله بثورة عارمة تهز أركان الشرق القديم. وهاهم ملتفون حوله شاربين كل كلمة ينطق بها، آتين على كل كتاب ينصحهم بقراءته، مطبقين تعاليمه ونصائحه بإخلاص واعتزاز، بل إن البعض منهم أصبحوا يقلدون طريقته في الكلام، والسير، وحتى في الضحك. ولكي يهيئ خميرة الثورة القادمة على الوجه الأكمل، أصدر العفيف مجلة "سلطة المجالس" وفيها جمع بين الجد والهزل، بين الصرامة والتهكم عملا بالقولة الشهيرة: "علّموا الصبيان وهم يلعبون".

ومن خلال تلك المجلة، راح يسخر من الماركسيين العرب الذين حولوا ماركس إلى فقيه إخواني متزمت، ويتهجم على قيادات المعارضة العربية التي لاتعدو أن تكون في نظره ركاما من الشعارات الجوفاء. أما عن المنظرين الثوريين فقد قال إنهم يكتبون الوصفة تلو الوصفة مثل الأطباء الرعوانيين في البوادي المتخلفة.

لكن العفيف سرعان ما انتبه إلى أن أتباعه لا يختلفون في شيء عن أولئك المثقفين الذين أحرقوا بيروت بعد أن تركها ببضعة أعوام. فهم مثلهم يعيشون في عالم الأوهام، ويستهلكون الأفكار دون بذل أي عناء من أجل إبداع الشيء القليل منها، ويميلون إلى القوالب الجامدة، وإلى التحاليل المسطحة ناسين أن شجرة الحياة

دائما خضراء، أما النظريات فلا تقوى على المقاومة أمام رياح التغييرات العاتية. كما انتبه العفيف أيضاإلى أن أتباعه أصبحوا يتبركون به كما لو أنه "ولي صالح" ويتعاملون مع أفكاره كما لو أنها مقدسات لاتقبل النقد أو الدحض. وعندما انبرى أحدهم ليقول له مادحا: "أنت بالفعل أسطورة ياعفيف!" نظر إليه باحتقار، ثم صاح فيه وهو يرجف من الغيظ: "أنا أمامك وتقول عني أسطورة... فلتقم ابحث عن أسطورتك !" بعدها ولى ظهره لكل شيء، وتوحد بنفسه مثل زاهد كره الدنيا وأهلها.

طوال جولتنا التي استمرت حوالي نصف ساعة، تحدثنا عن أوضاع الجزائر الأليمة. وفي الأخير سألني:

- هل قرأت رواية فارجاس ليوسا "حرب نهاية العالم"؟

- لا.

- عليك أن تعجل بقراءتها ستجد تشابها مدهشا ومثيرا بين أحداثها، وبين مايقع في الجزائر راهنا. إن شخصية "المرشد" الذي، استعان بجيش من اللصوص وقطاع الطرق والمعدمين والمتسولين والبغايا والمشوهين خلقيا ليتمرد على أول جمهورية تقام على أنقاض الأمبراطورية البرازيلية أواخر القرن الماضي، لاتكاد تختلف في شيء عن هؤلاء الآثمين الشاحبي الوجوه الذين يذبحون المثقفين في الجزائر اليوم كما تذبح الأكباش في عيد الأضحى. أقرأ الرواية إذن، بعدئذ بودي لو أتناقش معك في شأنها. والآن بإمكانك أن تذهب إلى صديقك. وإذا ما احتج على تأخرك، فقل له أن الله خلق العرب صبورين كالإبل التي خلقها خصيصا لهم !.

مضى خفيفا مثل طائر لايروم البقاء في مكان. ركضت باتجاه مقهى "الأطلس".

أحيانا أتعب فأفر إلى القيروان تاركا "الفتية الشرسين" يواصلون عربدتهم ومعاركهم وسهراتهم التي غالبا ماتنتهي عند مطالع الفجر في بيت خالد أو على أرصفة جادة "باب البحر". كنت لا أزال مثخونا بجراح مرحلة عصيبة من حياتي عرفت خلالها التشرد والسجن ومرارة الإحباط ولوعة اليأس التام. هناك في القيروان، في تلك المدينة المخربة مثل روحي، كنت أحاول أن أستمد من الوحدة والكتب ما يمكن أن يساعدني على الخروج من صحراء تركت في قلبي وروحي ندوبا وجراحا عميقة.

في خريف 1973، وبتحريض من خالد بالخصوص، اعتزمت القيام بسفرة إلى بعض بلدان المشرق العربي. أغلب أصدقائي فضلوا الانجاه غربا، أي إلى باريس وعواصم أوروبية أخرى، أما أنا فقد فضلت أن "أشرّق" كما يقال في تونس ، حالما باستعادة لذة تلك الرحلة المعرفية القديمة التي كان طلبة العلم المغاربة يقومون بها إلى دمشق وبغداد والقاهرة في العصورِ الخوالي.

من خلال أحاديث خالد الشيقة عن رحلته إلى هناك، تبدى الشرق أمامي أرضا ملتهبة بالثورات والأفكار والشعر الجديد. شرق ينهض كالعنقاء من رماد أزمنة الانحطاط مستعيدا أمجاده الغابرة، ومكانه تحت الشمس. وكأغلب أبناء جيلي في ذلك الوقت، كنت أرى الوحدة العربية قادمة لاريب فيها.

كما كنت متحمسا لكل الأفكار الثورية بجميع ألوانها من ماوية وتروتسكية وجيفارية وماركسية-لينينية، وأساند خطف الطائرات حتى أني علقت صورتين ضخمتين لليلى خالد وجورج حبش في غرفتي بالحي الجامعي. أما حلمي الكبير فهو أن أكتب رواية يكون بطلها شبيها ببطل رواية "الأم" لمكسيم جوركي. بطل يكافح من أجل الفقراء في أحياءالطين الدبقة، ثم يسقط برصاصة في القلب وهو يهتف ملوحا بالراية الحمراء. وإجمالا، يمكن القول إن أفكاري كانت مشوشة وغائمة إلى حد كبير، غير أنها كانت كافية لكي تدفع بي إلى أتون المغامرة المجهولة.

الخيبة الأولى ضربتني في طرابلس الغرب. أذكر أنني أمضيت ليلة وصولي إلى هناك مع عمال تونسيين أخذني إليهم واحد من معارفي جاء معي لزيارة أخ له يعمل بناء. كان هؤلاء العمال يسكنون أكواخا خشبية قرب حظائر بناء على أطراف المدينة. تعشينا "سباكتي" حارة جدا على الطريقة التونسية. شربنا شايا ثقيلا، دخنا سجائر قوية. بعد أن سألني أولئك العمال عن أحوال البلاد، وعن غرضي من القدوم إلى ليبيا، خاضوا في حديث مسهب عن علاقتهم بالليبيين ولساعات طويلة ظلوا يتذمرون من المعاملات السيئة التي يلاقونها هناك حتى أني أصبت بالإحباط وراودتني الرغبة في العودة للتو إلى البلاد !.

بعدئذ ناموا على الأرض مثل الدواب، وطول الليل ظلوا يشخرون مثل قطارات قديمة. في الصباح، دخلت طرابلس ونفسي مرة كالحنظل. عثرت بسرعة

على ابن خالتي المثقف قليلا، والذي يعمل حلاقا هناك منذ خمسة أعوام. بعد أن تعانقنا عناقا حارا، همس لي: "اسمع ياعزيزي... أرجوك، لاتتكلم هنا في السياسة. إن عيونهم في كل مكان. حتى هذه الجدران يمكن أن تبلغ عنك. لذا من الأفضل أن تحفظ لسانك !".

في الليل، بعد العشاء قال لي: "اسمع ياابن خالتي العزيز أنصحك بالعودة حالا ذلك أن الوضع هنا ليس أفضل من هناك... بل قد يكون أسوأ بكثيرا!". لم أشأ أن أجادله في الأمر. نام هو نوما عميقا بعد ذلك، أما أنا فقد بقيت ساهدا أفكر. هل أخطأت؟ هل أواصل رحلتي أم أعود حالا كما قال لي ابن خالتي؟ هل كل ماحكاه خالد كذب في كذب؟

راحت الأسئلة تنغل في رأسي مثل القمل. حتى الصباح ظللت أتقلّب على شوك السهاد.

طفت في طرابلس وحيدا فازداد اكتئابي وتضاعف ضجري. ليس هناك ما يغري أو يلفت الانتباه. مكتبات تتكدس فيها كتب تافهة بكميات هائلة. سلع مستوردة من جميع أنحاء المعمورة. شعارات في كل مكان. ولا رائحة للأنثى حتى لو كانت صبية في العاشرة من عمرها. اشتعل حنيني إلى بارات تونس، إلى أغاني السكارى أواخر الليل، إلى الكلمات البذيئة التي تطلقها مومسات "باب البحر".

في مقهى صغير قرب المحل الذي يعمل فيه ابن خالتي، التقيت ذات مساء شابا ليبيا لطيفا ومهذبا، بلحية خفيفة، وعينين حزينتين. أثناء حواري معه، أدهشني اطلاعه الدقيق على مايحدث في تونس على المستوى الثقافي والأدبي. بل وكان قد قرأ للعديد من الشعراء والكتاب الذين أعرفهم. ارتحت له كثيرا. وربما ارتاح لي هو أيضا إذ أنه طلب مني أن نتمشى قليلا على جبهة البحر.

واصلنا نقاشنا حول شؤون الأدب والشعر. لما خفت حركة الناس من حولنا، قال لي: "أعتقد أنه من الأفضل أن تعود إلى بلدك، أو أن تواصل رحلتك إلى دمشق أو بيروت. هناك يمكنك أن تستفيد. أما هذه المدينة ياصديقي فسائرة إلى موتها. ويوما ما سوف تتحول إلى خرائب يعشش فيها البوم والعنكبوت. لذا أنصحك بأن تتركها اليوم قبل غدا!".

بعد أسبوع من وصولي إلى طرابلس، أصبت بحمى حادة حبستني في الفراش ثلاثة أيام. رحت أتقيأ سائلا أصفر مرة، أخضر مرة أخرى. وراحت الكوابيس تنهشني مثلما تنهش العقبان جثة متعفنة. وما أن تعافيت حتى حملت حقيبتي: "إلى دمشق -قلت- وليكن مايكون!".

فتنتني دمشق. أعجبت بمكتباتها، بمقاهيها المنتشرة على ضفتي بردى، بجمال نسائها، بحلاوة لهجة سكانها. في تلك الأسواق المحيطة بالجامع الأموي، عثرت على بعض من ملامح القيروان، فانتعشت روحي، وأحسست أن رحلتي المعرفية قد بدأت فعلا، وأني الآن جد قريب من تلك الينابيع التي طالما حلمت بالوصول إليها. في غرفتي الصغيرة في الفندق البائس المواجه لسوق "الحميدية"، رحت ألتهم روايات وقصص نجيب محفوظ ويوسف إدريس وغسان كنفاني، ودواوين أدونيس ودرويش والسياب والماغوط: "أنا سيد الأحلام/ وزعيم الأرائك الفارغه /أحلم بأصدقاء من الوحل/ بأمطار من نار/ بحبل هائل من النار فوق ظهري/ تجلس على سفوحه كل نساء الشرق الجميلات/ ذوات الآباط الحليقة/ والغدائر الممزوجة بالعطر والتوابل".

ثم توثقت صلتي بطالب مغربي من مراكش يدعى مصطفى. شاب في حوالي السادسة والعشرين من عمره. نحيل . طويل. غامق السمرة. هادئ الطبع. ميال إلى الصمت والتأمل. حين يتكلم، تنسكب كلماته بأناة كما تنسكب قطرات الماء من عين شحيحة. ولأنه أقام في موسكو فترة نسيت مدتها، فإنه كان مولعا بالأدب الروسي ولعا شديدا.

وقد أعارني مختارات من مؤلفات تشيكوف وجوركي وتورجينييف وغوغول، أتيت على جميعها.

راح مصطفى يطوف بي في دمشق ويُقدِّمني إلى بعض أصدقائه الطلبة القادمين من بلدان عربية مختلفة، ويحدثني عن مراكش التي يحن إليها كثيرا، وعن موسكو ونسائها "ذرات الأرداف الأكثر إثارة في العالم بأسره" حسب تعبيره. في كل ليلة تقريبا كان يدعوني إلى شرب العرق في شقته بحي "الصالحية" أو في بار شعبي.

أحببت حياتي الجديدة، وأنست إليها، فكتبت إلى خالد رسالة طويلة حدثته فيها عن كل ماحدث لي منذ خروجي من تونس وحتى وصولي إلى دمشق، وأبلغته

أني أنوي البقاء في الشام لعام أو يزيد. لكن ذات مرة، وأنا سكران، والقمر الدمشقي يترنح فوق جبل "قاسيون" انطلق لساني بحديث في السياسة وأهلها، وإذا بمصطفى يسحبني من البار مغتاظا، ويأخذني رأسا إلى شقته. حال وصولنا إلى هناك واجهني مكفهر الملامح: اسمع ياصديقي الطيب القلب! يبدو أنك لاتعرف أين أنت بالضبط، لذا علي أن أوضح لك الأمور قبل أن تنكسر رقبتك وتروح في داهية. هذا الأمان الذي ربما أنت تشعر به منذ وصولك إلى دمشق هو مجرد خدعة. وأنا حين جئت إلى هنا، اعتقدت أن الأحوال أفضل مما هي عليه في المغرب. غير أن اعتقادي هذا سرعان ماتبخر. كل مافي الأمر هو أنني خرجت من سجن لأدخل سجنا آخر أشد فظاعة وهولا. المخابرات تملأ الدنيا وتراقب كل صغيرة وكبيرة. حتى ضراطك في الفراش لا يمكن أن يغيب عنها. ولو تمعنت جيدا في عيون أهل هذه البلاد لعاينت بنفسك كيف يختنقون من الرعب واليأس غير أنهم عاجزون عن البوح بذلك. لذا أرجوك ياصديقي التونسي أن تنسى السياسة وأهلها، وأن تكتفي مادمت هنا بشرب العرق وقراءة الكتب وجماع الدمشقيات إن استطعت لذلك سبيلا!. قبل أن أغادره، قال لي مصطفى : الذين مثلك يعتقدون أن الشرق هو الآن أرض للثورات والأفكار والشعر مخدوعون وواهمون مثل أولئك الفلسطينيين المساكين الذين يموتون في خزان الماء في رواية غسان كنفاني، "رجال في الشمس" . إن هذا الشرق ياعزيزي مقبرة هائلة للأحياء .

تكدرت روحي وبدأت أخاف، وإذا بدمشق تفقد فجأة كل فتنتها ، وتنتصب أمامي قلعة موحشة، مسكونة بملايين العيون التي تراقب حركاتي وسكناتي. أثناء النوم، أخذت تداهمني كوابيس مرعبة فأرى نفسي ألقى من أعلى جبل فوق صخور غليظة ناتئة، أو أرمى في بئر تعج بالأفاعي السوداء، أو أركض في فلاة تطاردني كلاب ضخمة غاضبة. أستيقظ ناشف الريق. أرمي في جوفي بزجاجة ماء بكاملها. حتى طلوع النهار أظل أمشي وأجيء في الغرفة الضيقة مثل محكوم بالإعدام ينتظر ساعة المشنقة.

رحت أخطط للمغادرة وأنا أهيم من مقهى إلى مقهى. مرة أخرى وجدت نفسي أمام نفس الأسئلة التي عذبتني في طرابلس الغرب. هل أعود أم أواصل

رحلتي الفاشلة؟ وإذا ما واصلت فإلى أين؟ وإذا ماعدت فمن أين آتي بثمن تذكرة السفر؟ وكنت لا أزال أتخبط في حيرتي حين اعترضني في الشارع وأنا عائد من عند مصطفى، طالب تونسي كان جاري في الحي الجامعي، غير أننا لم نكن نتكلم إلا فيما ندر. دخلنا مقهى. طلبنا بيرتين وغرقنا في الحديث. عرفت أنه جاء إلى الشرق مثلي بحثا عن المغامرة، وأنه لا ينوي العودة إلى تونس إلا "ميتا" حسب تعبيره. ارتفعت معنوياتي قليلا وأنا أستمع إليه. بل وشعرت بالخزي من نفسي لأني لمست أنه أكثر مني إقداما وعزما. أخيرا قال لي: "تعال معي إلى بغداد... فلعل الأمور تكون أفضل هناك !". وافقت دون أي تردد.

دخلنا بغداد في السادسة صباحا عقب رحلة مضنية عبر الصحراء. توجهنا بالتاكسي إلى بيت تونسي في "الوزيرية" قال لي الطالب إنه كان على علاقة جيدة به في تونس. استقبلنا التونسي استقبالا فاترا وهو يفرك عينيه من النوم. كان شابا في حوالي الثلاثين من عمره، أصلع، قبيح الشكل، منفرج الأسنان، واسع الفم. بعد أن أفطرنا وشربنا شايا بالحليب على عادة أهل العراق، غرقنا في النوم حتى الظهر. لما بدأنا نتهيأ للخروج، أعلمنا مضيفنا أن بغداد تعيش حالة منع الجولان ابتداء من الساعة الثامنة ليلا حتى الرابعة صباحا منذ مايزيد على الأسبوع.

- لماذا ؟ ! سألناه نحن.

حكى لنا أن شبحا هائل الجثة، سريع الحركة، يطوف في المدينة ليلا ليزرع الموت والرعب. وقد قتل حتى ذلك اليوم عشرة أشخاص جلهم من الشخصيات الكبيرة والنافذة في الدولة والحزب الحاكم. وقبل ليلة كاد يقطع رأس السفير المغربي بساطور. وتعتقد سلطات الأمن أن الشبح ربما يكون يدا لعصابة خطيرة تهدف إلى زعزعة استقرار النظام.

خرجنا إلى المدينة وقد ثقل الهواء من حولنا برائحة الدم والجريمة. مشينا تحت شمس قاسية بدت كأنها نصال مسلطة على رؤوسنا. شوارع وسخة مغبرة. شحاذون وشحاذات في عباءات سود يئنون تحت حيطان كتبت عليها بأحرف غليظة وباللونين الأسود والأحمر شعارات تمجد حزب البعث وتندد بالإمبريالية والصهيونية. رجال غلاظ أشداء بشوارب شرسة يتفرسون في الوجوه. تمثال الرصافي

ينتصب حزينا كما لو أنه غير راض عن ذلك التكريم المتأخر. هو الذي عاش الفقر والتشرد والإهمال حتى اللحظات الأخيرة من حياته. ولكن جدارية جواد سليم المنتصبة في "ساحة التحرير" رفعت قليلا من معنوياتنا المنهارة، إذ أثبتت لنا قدرة التحدي الرائعة التي يمتلكها الفن في وجه الطغيان والاستبداد والظلم.

دخلنا بارا حقيرا في شارع ضيق متفرع عن شارع "السعدون" اكتفينا بشرب بيرتين فقط، ثم سارعنا بالخروج بسبب الروائح العطنة التي كانت تثقل المكان. هل هذه بغداد حقا؟ تساءلنا ونحن محبطان حد البكاء.

في الليل، بعد العشاء، أمطرنا مضيفنا بوابل من الأسئلة عن أوضاع العراق الداخلية، أجاب عليها جميعا بتحفظ واقتضاب بالغين. في ختام حديثنا قال لنا: "عموما... الشعب العراقي طيب ومضياف لكنه عنيف إلى أقصى حد. كلمة واحدة تفلت من بني آدم، يمكن أن تفتح أمامه باب جهنم الحمراء على مصراعيه. قبل أشهر قليلة مثلا، حدث أن تكلم طالب تونسي في شأن من الشؤون. في ليلة اليوم ذاته أخذته المخابرات ورمته في الصحراء المتاخمة للحدود السورية دون متاع ولا مال ولاهم يحزنون. حتى هذه الساعة، لا أحد يعرف مصيره لذا أنا أنصحكما إن أنتما ابتغيتما لنفسيكما السلامة أن تتجنبا الخوض في أي حديث حول شؤون العراقيين، خصوصا سياستهم !".

في الأيام التالية، واصلنا طوافنا في المدينة. اكتشفنا بعض البارات الجميلة على كورنيش أبي نواس. زرنا بعض المعالم الأثرية وضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني. توغلنا في "سوق الصفارين". لم نعثر على أي شيء يمكن أن يشير إلى أمجاد بغداد القديمة أيام كانت عاصمة للعالم بأسره، ويوقظ تلك الصور الأخاذة التي غذت خيالنا وأحلامنا ونحن نقرأ أبا نواس والتوحيدي والأغاني وألف ليلة وليلة. لم يكن هناك غير مدينة ملقاة في السهوب، مقهورة، مهملة يرتسم الخوف في عينيها، وينزف الدم من جسدها الذي شوهه الطغاة والقتلة على مر العصور.

أخذت أتردد على مقر اتحاد الطلبة التونسيين في "الوزيرية" فاكتشفت أن أغلبهم موالون لحزب البعث، وبشعاراته يفطرون ويتعشون. بل إن البعض منهم غيروا جلودهم تماما، وأصبحوا يمارسون عادات العراقيين الخاصة بهم، ويتكلمون

لهجتهم. بين وقت وآخر، تقوم بينهم معارك ضارية لا أحد يدري لها سببا، فيتشاجرون ويسيل الدم وترفع التقارير إلى القيادة القومية. بدأت أتجنبهم. وذات ليلة وكنت جالسا أشرب شايا في مقر الاتحاد مع صديقي الذي قدم معي من دمشق، اقترب منا طالبان كنت قد تحدثت معهما أكثر من مرة حول الأوضاع الداخلية في تونس. واحد نحيل، بنظارات، متوتر طول الوقت، يسرع في الكلام إلى درجة أنك لا تستطيع أحيانا أن تتبين مايقول. أما الآخر فعريض، قوي كالثور، عبوس. بيذارة غيذارة شنوءة* كما يقول صاحب "العقد الفريد". طلبا مني بشيء من اللطف أن أرافقهما لغرض معين، فاعتذرت من صديقي ورافقتهما. الحرارة خانقة. الشارع معتم قليلا. سرنا مسافة ثلاثمائة متر تقريبا. كنت أدخن مطمئنا، متلهفا لمعرفة الغرض الذي من أجله دعيت تقريبا. تلك الدعوة "اللطيفة". فجأة جاءتني لكمة قوية على الفك الأيمن. ثم ثانية وثالثة وعاشرة. سقطت على الأرض ويدي على فمي الممتلئ بالدم.

راح يرفسانني وهما يصرخان: "خذ أيها الجاسوس الحقير... خذ... خذ !". لم يكفا عني إلا عندما هب صديقي لنجدتي.

أحاط بي طلبة فلسطينيون ومغاربة وعدد قليل من التونسيين. ساعدوني على النهوض، ثم قادوني إلى بيت طالب فلسطيني يسكن قريبا من هنا. وضعوا ضمادات على الجراح والرضوض. قدم لي الطالب الفلسطيني الذي كان يعلق في الغرفة التي كنت فيها صورتين ضخمتين لجورج حبش وغسان كنفاني كأس ويسكي.بكيت بحرقة لا مثيل لها... وفي قلبي مات ذلك الشوق الملتهب بالثورات والأفكار والشعر موتا نهائيا.

أثناء النوم، رأيت نفسي أسير في جنازة ضخمة يحرسها جنود مدججون بالسلاح. بعيدا، على سفح هضبة تنبت عليها شجيرات زيتون عجاف، كان أبي في برنسه الأشخم يشير محذرا إياي من خطر ما. وراءه وقفت أمي في ملاءتها الزيتونية اللون، مكفكفة دموعها، محركة يدها وكانت تطلب مني أن أقترب منها.

طلع النهار بشعا أصفر مشحونا بالأوجاع والهواجس. همت على وجهي في المدينة. شربت قرابة الست بيرات في ساعة واحدة ثم تقيأت. رغم ذلك لم أكف عن الشراب. في الليل قلت لصديقي الذي جاء معي من دمشق.

---

* البيذارة: الكثير الكلام، الغيذارة: السيئ الخلق، الشنوءة: المبغض.

- عليّ أن أترك هذه المدينة حالا !
- ولكن إلى أين؟
- إلى تونس .
- إلى تونس ؟ !
- نعم ... إلى تونس. السجن هناك أفضل من الإهانة هنا !.
- أنت على حق!. قال. بعدها لم يجادلني في الأمر بالمرة.

واجهتني مشكلة اقتناء تذكرة العودة. أخذني الطالب الفلسطيني إلى مقر جريدة "طريق الشعب" التابعة للحزب الشيوعي العراقي. قدمت لرئيس التحرير قصائد ترجمتها عن الفرنسية لبابلو نيرودا الذي كان قد توفي قبل فترة قصيرة، فقبلها دون أي تردد ومنحني مبلغا لا بأس به.جمع لي بعض الطلبة العرب مبلغا آخر. اشتريت بطاقة عودة إلى تونس عبر بيروت. وهكذا عدت إلى بلادي عقب خمسة أشهر من الغياب، وبي إحساس أن عذابا آخر سوف يبدأ هناك.

في مطار تونس -قرطاج حققوا معي لمدة ساعة تقريبا. ماذا فعلت في طرابلس؟ من التقيت في دمشق؟ ما اسم رئيس اتحاد الطلبة التونسيين في بغداد؟ هل اطلعت على نشريات معادية للنظام في المدن التي زرتها؟ بعدها احتجزوا جواز سفري ثم أخلوا سبيلي.

الخطوات الأولى في شوارع تونس كانت كافية لكي أحاط علما بكل ماحدث أثناء غيابي: عدد كبير من أصدقائي أوقفوا وهم الآن رهن التحقيق في انتظار محاكمتهم. وقد شملت حملة الإيقافات مئات الطلبة والطالبات مهندسين وموظفين وأساتذة ومثقفين ينتمون إلى تيارات يسارية مختلفة.

ظهيرة اليوم الثاني من وصولي، اعترضني خالد في جادة "باب البحر" متأبطا كتبا كعادته، ورأسه الملتصق بصدره يتحرك مثل مثقال الساعة.

- أنت هنا؟!. صاح بي مدهوشا حالما رآني.

دخلنا بار "فلورنسا" رويت له قصة مغامرتي الفاشلة من ألفها إلى يائها. استمع إلي مسندا ذقنه إلى كفه اليسرى، ومن دون أن يقاطعني وهو الذي لايحتمل البقاء ساكتا ولو لبضع دقائق .

حالما انتهت، قال لي:

- اسمع ياصديقي... عندما زرت الشرق، لم يكن هؤلاء الضباط الجهلة قد أحكموا قبضتهم على السلطة بما فيه الكفاية. ويبدو أن الأمور قد تغيرت كثيرا خلال السنوات الماضية حتى أنه يمكن القول إن الشرق سائر الآن، وبخطى حثيثة نحو انحطاط جديد على كل المستويات. ومع ذلك... أنا أقول لك: لا تأسف على مافعلت. وإذا أردت أن تكون كاتبا حقيقيا فإنه يتحتم عليك أن تمتحن نفسك جيدا، وأن تدربها على خشونة الحياة وقسوتها ورعبها. إن النص الجميل ياصديقي لايولد من اللعب مع أولاد الحومة، أو من مغامرة مع بنت الجيران. وأنا على يقين أنك سوف تكتشف ذات يوم أن تجربتك المرة هذه لم تذهب هباء، بل أجزم أنها سوف تلهمك على المستوى الإبداعي بشكل عميق ومثير !.

أرهقتني متاعب سفرتي الطويلة، فلم أمكث في العاصمة إلا قليلا. بعدها غادرت إلى بنزرت حيث يقيم أخي الأكبر.

رحت ألتهم الكتب، وأكتب نصوصا قصيرة مستوحاة من رحلتي الخائبة -(ضاعت جميع هذه النصوص، والمرجح أن زوجة أخي قامت بحرقها مع أوراق أخرى بعد اعتقالي) - وأرتاد البارات المعتمة المحاذية للميناء، وألعب الورق مع البحارة والعتالين والعاطلين أمثالي وأراود النساء في سوق الخضر، ونادرا ما أعود من صيدي خائبا.

الليل ممطر بارد، وأنا أسترق الخطى عبر الأزقة الملتوية متنكرا في (قشابية) الصوف السوداء حتى يخال لمن يراني أني بحار أو عتال عائد إلى بيته في ساعة متأخرة. لاصوت، لاحركة. لا أحد بل ولا قط من تلك القطط المتعودة على الخروج في الظلام بحثا عن قوتها في المزابل.

موعدي مع زبيدة في الساعة الحادية عشر في بيتها الكائن بقلب حي "الأندلس" حيث تقطن العديد من العائلات العائدة أصولها إلى أولئك العرب الذين فروا إلى السواحل التونسية عقب سقوط غرناطة. زبيدة قالت لي إنها سوف تبقي الباب مفتوحا، وما علي إلا أن أدفعه "بلطف شديد كما تدفع شيئك في شيء". أردفت ضاحكة. أمها المريضة بالسكري سوف تكون نائمة، وهي سوف تترك

غرفتها مضاءة حتى أهتدي إليها بسهولة. قلبي يضرب بشدة غير أن المغامرة التي أخوضها، والتي لها طعم مغامرات العشاق في "ألف ليلة وليلة" تلهب جسدي، وتدفع بي إلى الأمام مثل ريح عاتية.

اصطدت زبيدة المرأة الثلاثينية المطلقة، في سوق الخضر. كنت أطوف هناك كما اعتدت أن أفعل كل صباح بين العاشرة ومنتصف النهار حين رأيتها في السفساري الأبيض تشتري طماطم وبصلا وخرشفا وبقدونسا وفلفلا أخضر. هيجني جمالها الوحشي فتسمرت في مكاني. بعد أن دفعت تبعتها. أتاح لي الزحام الشديد أن ألتصق بها أكثر من مرة، بل وأن أضع شيئي المنتصب بين فلقتي مؤخرتها المترجرجتين. لما بالغت في ذلك، استدارت وحدجتني بنظرة غاضبة. لم أكترث، وواصلت عبثي المثير.

عندئذ فرت مني وذابت في الزحام . ركضت باحثا عنها غير أني لم أعثر لها على أثر. وكنت على حافة اليأس لما رأيتها واقفة في ركن قصي، بعيدا عن السوق، فاقتربت منها:

- ألا تخجل؟! صاحت بي.

- أنت حلوة بل أحلى امرأة في بنزرت كلها ! ، قلت لها.

- أتعتقد أني واحدة من تلك النساء السهلات الفاسدات اللائي بإمكانك أن تلتقطهن من الشارع مثل عقب السيجارة ؟!.

- معاذ الله ! أنا أعلم جيدا أنك امرأة شريفة وبنت عائلة . لذا أنا راغب في التعرف عليك...

- أما أنا فلا أريد !، قالت بحدة، ثم غاصت في زحام السوق من جديد ضاربة الأرض بكعبيها العالين.

بعد يومين، التقيتها، لكن بعيدا عن السوق هذه المرة.

- ألا زلت مصرا؟!، قالت باسمة حالما رأتني .

- تعالي نتمشى قليلا ونتعارف، قلت لها. بدا عليها التردد:

- أنا أخاف من العيون ولابد أن تعلم أن أقاربي كثيرون !

- في أي مكان تريد أن نلتقي؟

ثبتت عيناها في عيني. ظلت صامتة لحين ثم سألتني:

- هل عندك شقة؟

- نعم

- أعطني العنوان... وسآتيك غدا، الساعة الرابعة !.

أعطيتها عنوان شقة قريب لي، أعزب، يعمل في مصفاة النفط. وهكذا أصبحنا نلتقي مرتين أوثلاثا في الأسبوع. ثم أخذت زبيدة تضيق بالمكان، وبقصر لقاءاتنا. ويوما قالت لي: "اسمع... أنا أمقت العجلة في كل شيء، خصوصا في أمور كهذه، لذا علينا أن نبحث عن طريقة أخرى للقاء".

- وماهي هذه الطريقة حسب نظرك؟

- أن تأتي إلى بيتي ليلا !

- إلى بيتك؟!... صحت مدهوشا.

- نعم إلى بيتي... أنا أسكن مع أمي التي تنام مبكرا مثل الدجاج، وفي الشتاء يهجع حينا بعد التاسعة ليلا هجوعا تاما...

- ألا تخافين؟!.

- طبعا أخاف. لكن ما لذة العشق إن لم تكن هناك مخاطرة؟!

حيّ "الأندلس" هامد يرجف مقرورا. صخب البحر يختلط بزفير الريح. أدفع الباب برفق. أتوجه إلى غرفة زبيدة المضاءة بضوء أحمر مثل غرف البغايا فأجدها ممددة على السرير في مبذل شفاف. على الطاولة زجاجة نبيذ أحمر، وعلبة (مالبورو). اندسّ إلى جانبها عاريا. تملأ كأسي وكأسها. تشرب من فمي وأشرب من فمها.

تداعب جسدي بيدها الحارة. أقبل أنا كل جزء في جسدها الفائر بالشهوة، ثم أجامعها وأنسى تماما أنها زبيدة المطلقة الفقيرة التي تعيش مع أمها العجوز المريضة بالسكري. وهاهي الآن أميرة أندلسية في "جنة العريف" تغني الحب تحت القمر الناعس على أكتاف الأمراء:

يـالقـــــــومـي يـا لأغنّ الأنـس عـنـدمـا صـــاد فــؤادي نفــرا

ذا جـــفـــون فـــاترات نـعـس منعت عـــيني من طيب الـكرى

وارتشــافي عـــســلا من لـعس لـــبـــه خـــمـــر من رآها سـكرا

أغادرها في غـبش الفجـر ونداء الصلاة يترنح أخنّ في الأزقـة التي بدأت تدب فيها أشـباح المبكرين. وأنا اندس تحت الأغطية الثقيلة، يقرصـني شعور حادّ بالذنب. أنقلب لمدة نصف ساعـة، ثم يغلبني النوم. أستيـقظ عند الظهر، فإذا الشـعور بالذنب مسـتقر في أعـماق الروح حجـرا باردا. أعرض عن الأكل. اكـتفي بقهـوة سوداء دون سكّر، وأدخن أربع سجائر الواحدة تلو الأخرى.

- مالك... هل أنت مريض؟، تسألني زوجة أخي.

- لا... أبدا !

- مالك شاحب إلى هذا الحد ؟

- لم أنم جيدا البارحة .

- لكنك نمت النهار بطوله !

أفرّ من الشـقة حـتى أتفادى مزيدا مـن الأسئلة. المطر كفّ عن الهطول، غـير أن السحب مازالت كثيفة، والهواء باردا. أتمشى على شاطئ "سيدي سالم". أرفع عيني إلى سجن "برج الـرومي" الرهيب، هناك حيث يقـبع جل أصدقائي فـتأخـذ نصال الشعور بالذنـب في تمزيق لحمي دونما هوادة. هم في عـتمة الزنزانات الباردة، يضربون ويهانون ويجوعون وأنت مستسلم لحياة الـكسل والخمول... لاتفعل شيئا غير الركض وراء النســاء ولعب الورق وشرب الخـمر. مـاذا تراهم يقولون عنـك؟ كذاب وجـبان وخائن ! تتـظاهر بالبطولة لكن حين يعلو غبـار المعركـة، يهرع إلى جـحره مـثل فأر مذعورا! هذا مايـقولونه عنك. وهل تريدهم أن يقولوا شيئا آخـر غير هذا نعم... أنت بالفعل كذلـك. وعليك أن تفعل شيئا حـتى تمحو هذه الصورة البشـعة من أذهانهم، وتثبت لهم أنك لن تتخلى عنهم أبدا... لابد أن تفعل شيئا. لابد !

انقطعت عن الذهاب إلى بيت زبيدة، عن لعب الورق وارتـياد البارات، ولم يعد يشغلني شيء آخـر غير القيـام بعمل ما، يخفف عني وطأة الإحـساس بالذنب الذي راح يأكل جسدي مثل نار حامية.

أواخر مارس والربيع لم ين بعد. أمطار. عواصف هوجاء. برد شديد في الليل وفي الصباحات، وفي أوقات الظهيرة. يحدث أحيانا أن تصحو السماء قليلا، فتشرق الشمس، ويخف البرد، وعندئذ يكون باستطاعتي أن أتمشى على الشاطئ مفكرا في ما يجب علي أن أفعل. أتوقف عن السير وأرفع بصري إلى سجن "برج الرومي" الرهيب، المطل على المدينة من فوق هضبة تبدو موحشة دائما وأبدا، فتطالعني وجوه الأصدقاء القابعين هناك في ظلمات الزنزانات وإذا بهم يمرون أمامي الواحد بعد الآخر، مؤبنين، ساخطين، معاتبين. أفر منهم وأعود إلى المدينة. أدخل هذا المقهى أو ذاك. أشرب قهوة على عجل ثم أقذف بنفسي في الشارع من جديد. بضع خطوات وإذا بوجوه الأصدقاء تطوقني مرة أخرى مظلمة غاضبة. أهرع إلى البيت معتم النفس. أتكوم في الفراش غير أني لا أنام.

ويوما وأنا خارج من سينما "باريس" حيث شاهدت فيلم "وقائع سنوات الجمر" للمخرج الجزائري الأخضر حامينة، رأيت فرج، وهو طالب تعرفت عليه خلال الإضراب الطويل الذي خاضه الطلبة في فبراير 1972. يقطع الساحة على عجل.

- فرج !، صحت فيه بأعلى صوتي. ثم رحت أتقدم منه علي مهل، بينما كان هو يلتفت يمينا وشمالا باحثا عن مصدر الصوت.

- ماذا تفعل هنا أيها الشيطان؟! صحت فيه ثانية وحالما رآني ارتمى على وراح يعانقني بحرارة.

-وأنت ماذا تفعل هنا أيها البدوي المجنون ؟

- أنا عند أخي منذ بضعة أشهر...

- أما أنا فمن هذه المدينة... ألا تعلم هذا ؟

- لا ... كنت أظن أنك في الجنوب...

- صدفة سعيدة على أية حال !

دخلنا مقهى قريبا. حدثته بالتفصيل عن رحلتي الخائبة إلى ليبيا وسوريا والعراق. حدثني هو بدوره عن بعض متاعبه العائلية بسبب مرض والدته، وطرد والده من العمل عقب إضراب شنه العمال في معمل الإسمنت الذي يعمل فيه منذ

خمسة عشر عاما. أردت أن أستفسره عن وضع أصدقائنا الموقوفين، فضغط برجله على رجلي اليمنى، ثم غمز لي فخرجنا بسرعة. سرنا صامتين إلى أن بلغنا شارعا خاليا من المارة. عندئذ التفت إلي فرج وقال:

- اسمع ياصديقي العزيز... يبدو أنك لا تعلم أن المدينة تعج بالمخبرين... وأن أغلب الناس صاروا قوادين للشرطة... لذا أوصيك بألاّ تأمن أحدا، وراقب لسانك وإلا رحت في داهية !

ثم طفق يحدثني عن أصدقائنا الموقوفين. وكيف أخضعوا للتعذيب الوحشي. وأن لازالت الشرطة تلاحق عددا لا بأس من الطلبة والمثقفين الذين استطاعوا الإفلات من قبضتها خلال الأيام الأولى من موجة الاعتقالات التي عرفتها البلاد مطلع الخريف، أي بعد سفري ببضعة أسابيع. ثم أضاف فرج قائلا:

- كل شيء يسير من سيئ إلى أسوأ. وليس هناك مايدلّ على انفراج حتى ولو كان ضئيلا.

لذا أنا أنصحك مرة أخرى ياصديقي أن تحترس، وإلاّ فإنك سوف تعرض نفسك إلى مخاطر جسيمة.

- ولكن هل علينا أن نظلّ صامتين خائفين بينما أصدقاؤنا يذوقون أفظع أنواع الذل والمهانة !

- وماذا تريد أن تفعل؟

- لابدّ أن نتحرّك !

- ما أظن أن هناك سبيلا للقيام بعمل ما. لقد قلت لك إن النظام الآن في أقصى حالات التأهب والاستنفار، وإن أية حركة سوف تضرب بسرعة وشدة !

- ومع ذلك نحن مطالبون بالقيام بعمل ما حتى نثبت لأصدقائنا أننا لم نتخل عنهم، وحتى نحسس الناس بجرائم النظام تجاه من يطالبون بالحرية والعدالة !

- هذا كلام صادق وجميل. لكن هل عندك مقترح عملي واضح؟

- أمر المقترح العملي الواضح ليس شأني وحدي، بل شأنك وشأن كل الذين نجوا من حملات الاعتقال !

- وفي ما يخصّني أقول لك وبكل صراحة أني حتى هذه اللحظة لم أهتد إلى أية فكرة للقيام بعمل ما. أما بالنسبة لأصدقائنا الآخرين، فقد اتصلت بعدد كبير منهم خلال الأشهر الأخيرة وجميعهم كانوا على اتفاق تام أن أيّ تحرّك راهنا هو مغامرة طائشة، أضرارها جسيمة، وفوائدها معدومة.

- أنا أرى أن هذا الكلام يخدم النظام في آخر المطاف لأنه يبرر الصمت والاستسلام والجبن !

اغتاظ فرج قليلا. ولعله فكر في أن يردّ علي بشيء من الحدة إذ للحظات رأيت شفتيه تختلجان، ووجهه يتغير من لون إلى آخر، غير أنه ابتسم ابتسامة حزينة، ثم ربت على كتفي وقال:

- اسمع ياصديقي. أنا أفهمك وأقدر مشاعرك. لكن لابد أن أقول لك أني أجدك متحمسا أكثر من اللزوم. لذا أنصحك بأن تمسك أعصابك حتى لا تفلت منك الأمور فترتكب حماقة من الحماقات !

قبل أن نفترق ، قال لي وهو يشد على يدي بقوة:

- كن على يقين تام يا صديقي أنني سوف أكون إلى جانبك إذا ما أنت عثرت اليوم أو غدا على اقتراح عملي واضح ومقنع !

تلبستني فكرة العثور على "مقترح واضح" فلم أعد أفكر في شيء آخر غيرها. سوف أدرك في مابعد أن حماسي الذي بلغ أقصى حدود التهور، لم يكن ناتجا فقط عن الشعور بالذنب تجاه أصدقائي الموقوفين، وإنما كان بحثا عن طريق للخلاص من وضع نفسي راح يزداد ثقلا وتأزما يوما بعدِ آخر، باسطا أمامي مستقبلا أجرد عقيما. وطبعا كان ذلك عائدا إلى أنني بت أحس أنني أصبحت عالة حقيقية على أخي، أقاسمه وزوجته شقة ضيقة حارما إياهما من ملذات زواج حديث العهد، وأجبره على أن يقتطع مصاريفي اليومية من راتبه البسيط الذي لم يكن يسمح له بأن يكمل الشهر دون ديون. وهكذا عميت تماما، وبات كل شيء ممكنا بالنسبة إلي للخروج من الحالة الصعبة التي كنت أعيشها أواخر ذلك الشتاء البارد الطويل.

يوميا تقريبا، ألتقي بفرج، معا نتيه على الشاطئ طارحين السؤال ذاته: ما العمل؟ ثم بدأت ألاحظ أن فرج أخذ يلين ، ولم يعد يبدي اعتراضات

حازمة ضد حماسي المفرط بهدف القيام بتحرك ما. بل إنه كان أحيانا يبدو أشد مني تحمسا لذلك. ويوم صدرت الصحف بعنوان ضخم على صفحاتها الأولى يقول إن بورقيبة سوف يزور بنزرت مطلع شهر مايو، فكرت أن الفرصة الذهبية للتعبير عن تضامننا مع الأصدقاء قد حانت.

يوم ربيعي جميل. شمس دافئة. البحر هادئ. الأرض خضراء. سرنا بمحاذاة الشاطئ. لم يكن هنالك أحد آخر غيرنا. قلت لفرج:

- هل سمعت الخبر؟

- تقصد زيارة بورقيبة إلى المدينة؟

- نعم...

- سمعته هذا الصباح في نشرة الثامنة.

- مارأيك؟

- لا أفهم سؤالك !

- ألا ترى أن هذه الزيارة هي فرصة للقيام بعمل ما؟

- وماذا تريدنا أن نفعل ؟! نغتال بورقيبة ؟!

انفجرت ضاحكا:

- أنت تعلم أن هذا الأمر مستحيل !

- ماذا تريدنا أن نفعل إذن ؟

- نوزع مناشير نحتج فيها على هذه الزيارة، وندين حملات الاعتقال، وعمليات التعذيب التي يتعرض لها أصدقاؤنا !

توقف فرج عن السير. ظل يتمعن في لبضع لحظات، ثم قال:

- فكرة لا بأس بها !

- سأكتب أنا المنشور. تبقى مسألة الآلة الكاتبة.

- هذا علي أنا !

- هل تتصور أنه بإمكاننا أن نقوم بعملية التوزيع لوحدنا؟

- صعب... لابدّ أن يكون معنا آخرون !

- هل تعرف أحدا يمكن أن نعول عليه؟

- أعرف معلما وطالبين. هم في العشرين وأنا أثق فيهم كثيرا. سوف أتصل بهم هذا المساء، وغدا صباحا أعطيك جوابا !

تم كل شيء بسرعة مدهشة. حررت منشورا مكثفا بعشرين سطرا طالبت فيه سكان المدينة بمقاطعة زيارة بورقيبة. أعدّ فرج 1500 نسخة من المنشور في ظرف قصير. اجتمعنا بالمعلم وبالطالبين أكثر من مرة. أبدوا جميعهم عزما خارقا. اتفقنا على توزيع المنشور أسبوعا قبل الزيارة. ليلة الموعد المحدد لذلك، استولى علي ندم شديد حتى أني أعرضت عن توزيع كمية المناشير المعهودة إلي. بعد الساعة الحادية عشر، نام أخي وزوجته. بقيت في الظلام أرهف السمع، وبي إحساس أن رجال الشرطة سوف يطرقون الباب قبل طلوع النهار. وكان الأمر كما توقعت تماما. في الساعة الثالثة جاؤوا وأخذوني مع الآخرين إلى دائرة الأمن العام بتونس العاصمة حيث أمضينا شهرا كاملا. منذ الساعة الأولى لوصولنا، ودون أن يلقوا علينا سؤالا واحدا، هجم علينا الجلادون مثلما تهجم الذئاب على قطيع من الخرفان. وبعد أن جردونا من ثيابنا، أشبعونا ركلا وضربا حتى تورمت وجوهنا وازرق لحمنا، وسال الدم غزيرا من أفواهنا وأنوفنا. استراحوا ساعة، ثم أقاموا حفل التعذيب من جديد وهم يتصايحون، قاذفين بأقذع الشتائم الأمهات اللاتي أنجبننا، الآباء الذين ربونا، المعلمين الذين علمونا الحرف الأول من حروف الهجاء.

عند المساء كنا عاجزين عن الوقوف على أقدامنا. رمونا كالجوالق في زنزانة ضيّقة سوداء. مكثنا ساعة لانسمع غير ضربات أحذيتهم الثقيلة وهم يتنقلون بين المكاتب ، أو هم يصعدون أو ينزلون المدارج. ثم فجأة دخلوا علينا وأعادوا الكرة حتى لم يعد الواحد منا قادرا أن يحرك ساقه أو يده أو رأسه دون أن يئن من شدة الوجع !

صبيحة اليوم التالي بدأ التحقيق. وبالرغم من أننا اعترفنا بكل شيء منذ الساعات الأولى، إلا أن زادنا كان أربع وجبات تعذيب كل يوم. الأولى في الصباح حين يفتحون المكاتب. الثانية قبل منتصف النهار. الثالثة عند الظهر. الرابعة بين السادسة والسابعة.

عقب ثلاثة أسابيع، خففوا الضغط عن المعلم والطالبين. أما أنا وفرج فقد أخضعونا لتحقيق جديد.

وطبعا كان هدفهم من خلال ذلك هو معرفة ما إذا كانت فكرة توزيع المناشير في بنزرت قبل زيارة بورقيبة هي في الحقيقة تنفيذ لأمر صادر عن قيادة أحد التنظيمات الماركسية التي كانوا يريدون استئصالها. أنكرنا نحن ذلك. وكانت تلك هي الحقيقة. وبرغم تأكدنا التام بأنهم اقتنعوا بما قلنا، فإنهم فتحوا أمامنا أبواب جهنم الحمراء لمدة ثلاثة أيام، بعدها تركوا فرج، وانفردوا بي لوحدي. سألوني عن أسباب رحلتي إلى طرابلس ودمشق وبغداد وعن الذين التقيتهم هناك من التونسيين ومن غير التونسيين، وعن كل ماقمت به في العواصم الثلاث. أجبت عن جميع أسئلتهم بدقة وبصراحة متناهية. اعتقدت أني أقنعتهم. لكن فجأة وجدت نفسي مرميا تحت أقدامهم.

أمضيت النهار بطوله وأنا على هذا الحال. ثم عزلت في واحدة من زنازين القبو. وذاك، كما علمت في مابعد، هو أقسى وأمرّ عقاب يسلطون على السجين.

ظلام. لاشيء غير الظلام. ظلام سميك. عدواني. حاقد. بغيض. شرس مثل أولئك الذين كنت تحت أقدامهم في الطابق الرابع. روائح البول والعفن تنفذ إلي ثقيلة، وتأخذ في الغوص في جسدي مثل سائل لزج حتى أن كل مسام جسدي قد انسدت. الغطاء الأسود نتن إلى درجة أني رغم البرد، أتحاشى أن أضعه على جسدي. فئران ضخمة بلون الإسمنت تتقافز فوقي طول الوقت. في كوابيسي أراها تأكل من لحمي بشراهة. لا أصوات غير أصوات الأبواب الحديدية وهي تقفل أو تفتح وضربات أحذية الحراس على أرضية القبو. أحيانا تنفتح الكوة الصغيرة. يطل منها وجه تتراقص فيه عينان ملتهبتان بالشر. أحيانا أخرى، ينفتح الباب ويندفع جلاد برأس ضخم، وصدرعريض، وشارب كأشواك الفيافي، ويأخذ في ضربي ورفسي إلى أن أتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعني... خذ أيها... أتريد أن تصبح زعيما أنت أيضا؟! ها...ها... خذ حتى لا تتجرأ على رفع رأسك أمام أسيادك مرة أخرى. خذ... خذ... يخرج ويتركني كومة من الألم والأنين. أحاول أن أنام فلا أستطيع. ربما أغفو قليلا غير أني سرعان ما أستيقظ وفمي جاف وقلبي يدق بعنف.

تجتاحني هواجس مرعبة فأرى نفسي مصابا بواحد من تلك الأمراض المستعصية التي تشوه جسد الإنسان تشويها مريعا قبل أن تفتك به. تعتريني رغبة في أن أصرخ عاليا، في أن أخبط على الباب الحديدي، غير أن رغبتي سرعان ما تنطفئ تحت رياح الخوف من غضب الجلادين. أرتد إلى نفسي مقهورا، من جديد تبرز الهواجس في ظلمة الزنزانة قاتمة نافشة ريشها مثل طيور الشؤم . تمد مناقيرها نحوي وتأخذ في نقر لحمي بقسوة لا مثيل لها. أحاول أن أدفعها عني فأشحذ الذاكرة بحثا عن صور جميلة من الماضي... بحر بنزرت عند الغروب. تأوهات زبيدة بينما أنا أنتفض بين فخذيها مبللا بعرق الشهوة. فجر القيروان سابحا في صوت الشيخ البراق وهو يرتل السور القصار. أغاني خالتي محبوبة في ليالي الصيف قرب بيادر القمح. كفل امرأة جميلة رأيتها في أسواق دمشق قرب الجامع الأموي. بغتة تتوقف الصورة وإذا الذاكرة فارغة مثل هاوية لا قرار لها. أهرب إلى الشعر. بصوت خافت أقرأ مقاطع من قصائد لشعراء أحبهم. لوركا. أيلوار. أبو نواس. المعري. بودلير. السياب. ثم تلك الجملة التي قالها راهب أثيني والتي عثرت عليها في كتاب قديم اشتريته بخمسين مليما من مكتبات "نهج زرقون" بتونس العاصمة: "كل إنسان وكل شيء متوج بعنقود من لهب، فإذا انطفأ هذا اللهب يفنى الإنسان ويفنى الشيء !". بعدها ينطفئ قنديل الشعر فيعظم الظلام من حولي. وإذا أنا مثل خشبة أتلفتها النيران.

عند انتهاء التحقيق ، نقلنا إلى السجن بالعاصمة. وضعنا في الزنزانة رقم 11 في الجناح المخصص للمحكومين بالإعدام وبالموقوفين الخطرين. على الجدران اكتشفنا كتابات دلت على أن بعضا من أصدقائنا مروا من هناك هم أيضا. الزنزانة ضيقة حد الاختناق. كوة صغيرة. سطل يستعمل كمرحاض نغيره مرتين في اليوم. عند الضحى، وفي أواخر الظهيرة نخرج إلى باحة السجن. نمكث هناك عشرين دقيقة ثم نعود مجددا إلى الزنزانة . مرة في الأسبوع نأخذ دشا ساخنا. لنقضي دون جدوى على القمل الذي غزانا. مرة في الأسبوع أيضا يزورنا أهلنا. يأتوننا بالسجائر والمأكولات وببعض الكتب والمجلات.

بعد مضي بضعة أيام، اكتشفنا أن هناك مجموعة من القوميين الناصريين موقوفين معنا في نفس الجناح، وهم ينتظرون محاكمتهم منذ مايزيد على العام. وعرفنا أنهم

قدموا من ليبيا، ومعهم أسلحة ومتفجرات بهدف القيام بعمليات تخريبية في أنحاء مختلفة من البلاد غير أن الشرطة تمكنت من القبض عليهم قبل أن ينفذوا أية عملية من العمليات التي كانوا يعتزمون تنفيذها في الليل.

بعد أن يقفل الحراس الباب الرئيسي للجناح، نتمدد، ونتحدث إليهم من تحت الباب. واحد منهم كان يطلق على نفسه اسم "تشين" بطل رائعة اندري مالرو "الوضع الإنساني". قال لنا إنه لم يقرأ الرواية. ولا يقرأ روايات على الإطلاق، غير أن صديقا له أطلق عليه هذا الاسم عندما كان مع الفلسطينيين في بيروت. صوته الغليظ دل على أنه بدوي من أقصى الجنوب، فارع القامة. هائل الجثة، نهم، عنيف، صبور على المحن، شديد التعلق بقيم الشرف والرجولة كما هو الحال عند أهل البادية. من خلال نقاشاتنا معه، تبين لنا أن ثقافته سطحية إلى أبعد حدّ. وربما لهذا السبب كان يتجنب الخوض في المنافشات الفكرية والإيديولوجية، مفضلا رواية حكايات وطرائف يضحك لها لوحده أحيانا. مرة سألناه عن رأيه في الماركسية، فردّ بسرعة بأنه يمقت الأفكار والنظريات مقتا شديدا، وأن السبيل الوحيد بالنسبة إليه للإطاحة بالأنظمة الفاسدة هو البندقية. لا غير. ثم أقفل الخط، ولم يعد للموضوع البتة.

في الأسبوع الثالث، جاؤوا بشخص آخر. وبما أنهم وضعوه في الزنزانة المقابلة لزنزانتنا، فإن الحديث كان معه يسيرا. هو دكتور في الاقتصاد السياسي. درس في باريس ولندن. تجوّل كثيرا في العالم. ذهب حتى إلى الصين وكوبا. تزوج من إيرلندية، ثم طلّقها بعد أن أنجب منها بنتا تدعى سونيا. أقام في بيروت عامين. رغم إلحاحنا، لم يكشف لنا أبدا أسباب إيقافه. كان يتحدث بهدوء وبثقة كاملة في النفس، في السياسة كما في الأدب، في الفلسفة كما في الشعر.

وبإمكانه أن ينتقل بسامعه من كانط إلى نيتشه، ومن برجسون إلى ماركس، ومن بلزاك إلى فلوبير بيسر وبلباقة ساخرة. أحيانا يقرأ لنا بتأثر بالغ، وبصوت شجي بعض قصائد السياب خصوصا "أنشودة المطر" وكان يقول لنا إن السياب هو الشاعر الأوحد في العالم العربي، أما البقية فأقزام. أبهرنا فتعلقنا به، ونسينا القوميين الناصريين، بل إن صوت "تشين" الغليظ أصبح يغيضنا ويوتر أعصابنا.

في أواسط يوليو 1974، مثلنا أمام المحكمة. حوكمت أنا بعامين سجنا، وفرج بعام واحد، والبقية بستة أشهر لكل واحد منهما. عند الإعلان عن الحكم، بكت أم المعلم التي كانت أرملة مريضة بالسكري، بصوت عال. أما نحن فقد صعدنا إلى عربة المساجين مصعوقين ذاهلين ذلك أن الأحكام بدت لنا غير متطابقة بالمرة مع حجم العملية الصبيانية التي قمنا بها. في اليوم التالي للمحاكمة، ونحن نتأهب للخروج إلى ساحة السجن، سقط مفتاح من يد الحارس العم بشر أمام زنزانتنا فقال مبتسما :

- هذا فأل خير. لقد حدث لي هذا مرارا عديدة. وكلما سقط المفتاح أما زنزانة، أطلق سراح المسجونين فيها بعد مرور وقت قصير! وحتى يثبت لنا صحة فأله، روى لنا العم بشر عدة وقائع عاشها في مراحل مختلفة من حياته المهنية. ثم ختم حديثه قائلا: "إن شاء الله خير يا أولاد"!.

والحقيقة أن العم بشر، أظهر لنا منذ البداية ودا خاصا. أحيانا يفتح باب الزنزانة، ويتحدث إلينا طويلا عن عائلته، عن ابنته التي سوف تجتاز امتحان الباكلوريا العام القادم، عن ابنه الأكبر الذي يعمل في بلجيكا، عن زمن العز أيام كان ملاكما مشهورا، وعشيقا لـ "رومية" شقراء تدعى أوديت: "آه ... أوديت .... أوديت... لا أعتقد أني عشقت امرأة عشقا حقيقيا بعدها. طبعا أنا أحب أم أولادي، غير أن أوديت وحدها في ذلك الشيء!..." يقول العم بشر، ثم يطلق ضحكة عالية، ونضحك نحن أيضا حتى نثبت له أننا فهمنا جيدا ما يقصد بـ "ذلك الشيء". حين يعاين أن معنوياتنا هابطة إلى حد ما، يقول لنا: "اسمعوا يا أولاد... قلبي يقول لي إن الله سوف يفرجها عليكم عما قريب. فإن تمّ لكم ذلك، أنصحكم نصيحة الوالد لأولاده أن تتجنبوا السياسة. تمتعوا بشبابكم كما ينبغي وإلاّ فإنكم ستندمون حين لا ينفع الندم!".

صبيحة اليوم التاسع بعد المحاكمة، انفتح الباب ودخل رجل أنيق، بنظارات ومحفظة جلدية. وكان مرفوقا بالعم بشر الذي بدا منشرحا. قال لنا الرجل الأنيق: "أنا من وزارة الداخلية . جئت لأبلغكم أن فخامة الرئيس قرر أن يعفو عنكم بمناسبة عيد الجمهورية !". حال خروجه رحنا نرقص من الفرح. مساء اليوم ذاته كنا في بنزرت. سهرت مع أخي وزوجته حتى الساعة الواحدة صباحا. بعدها ذهبت إلى

الشاطئ. مكثت هناك حتى طلوع الفجر. أبدا لم ألمس المعنى الحقيقي للحرية مثلما لمسته تلك الليلة وأنا وحيد أمام البحر.

يعلمني أنه هتف لرنا وأنها وافقت على أن نلتقي في "لاباليت" في شارع "السين". نترك مقهى "أطلس". هو الآن ثمل بما فيه الكفاية. يمشي متثاقل الخطى، منحنيا قليلا. أعرف أنه يحب أن يمثل دائما دورا ما. لعله الآن يريد أن يقلد ميكي روك الذي يلعب دور شارك بوكوفسيكي في فيلم "بارفلاي". كما أعرف أنه عشق هذا الفليم حتى أنه شاهده خمس مرات، ودائما برغبة أشد احتداما من السابقة. لذا يستهويه أن يكون شبيها ببطله. مرة قال لي ونحن نتجول سكارى تحت الثلج في ميونيخ: "أمنيتي الكبرى هو أن أكون كل الأشخاص الذين أحب: جلجامش. أبي الأبكم الأصم. روبرت دي نيرو في فيلم سائق التاكسي. إيمانويل بيار عارية تحت الدش. أنت بقبعتك السوداء. خالد حين يقرأ قصيدته "بيضاء". هنري ميللر مطاردا نساء باريس. مريم العذراء. يوسف شاهين في فيلم "باب الحديد". فرلين مترعا بالخمور وقذرا مثل خنزير. محمد شكري بين مومسات طنجة. يهوذا الخائن. أنا عندما عشقت أول مرة في الحبانية"...

وفي إحدى رسائله كتب لي يقول: "أعتقد أني بعد أن أبلغ الخمسين سوف أكون شبيها إلى حد كبير بشارل بوكوفسكي. سيكون لي نفس الوجه الذي دمره الشراب والصعلكة. نفس الحركات الواهنة. نفس المشية المتثاقلة. نفس اللامبالاة تجاه مايحدث في العالم من كوارث. نفس الميل للكسل والنوم طول النهار. نفس الهمهمة تجنبا للكلام السخيف. نفس النهم إلى الملذات خصوصا للأجساد الشابة واللحم الطري. الشيء الوحيد الذي سأكون مختلفا عنه هو أني سأحافظ على نظافة جسدي وثيابي كما هي عادتي دائما وأبدا، وسوف أكون دؤوبا على حلق لحيتي يوميا إلى أن أرمى في القبر!".

نجلس في "لاباليت" في انتظار رنا.

مطلع خريف 1974 ، عينت مدرسا للغة الفرنسية في معهد ديني ، مرمي في الخلاء، على بعد عشر كيلومترات جنوب القيروان.

المدير شيخ متزمت يبدو كأنه طالع للتو من بين صفحات كتب الفقه الصفراء التي لايعرف غيرها. طويل. نحيف. قاسي الملامح. يابس مثل نسر عجوز. شفتاه تتحركان طول الوقت متمتمتان بالأدعية والصلوات. عبوس كأنه مأتم بلا نهاية. كل شيء حرام بالنسبة إليه: الموسيقى، الرقص، المسرح، السينما، التصوير، اللباس الافرنجي، ولأنه لم يتعود البتة أن يرى في معهده شابا في مثل سني، يدخن، ويلبس الدجينز الضيق، ويطيل شعره قليلا، فقد كرهني منذ البداية كرها شديدا، وشن علي حربا شرسة استمرت حتى نهاية العام الدراسي. بعد ذلك بعشر سنوات، أخبرني صديق يعمل في وزارة التربية أنه سلمهم جبلا من التقارير ضدي، يتهمني فيها بأني فاسق، وملحد، وشيوعي، وبأني أفسد عقول التلاميذ، وأعلمهم أشياء تتنافى تماما مع "ديننا الحنيف" و "مبادئنا الإسلامية السمحة".

أغلب الأساتذة كانوا طاعنين في السن، يدبون على الأرض بوهن، ويبصقون طول الوقت. ومن كان منهم في طور الكهولة بدا وكأنه على قاب قوسين أو أدنى من القبر. وكان واضحا أنهم يعانون من أمراض وعلل مختلفة: القلب، البواسير، المعدة، السكري، الربو. هم أيضا كرهوني، بل إن البعض منهم لم يكونوا يردون على تحياتي خشية غضب المدير الذي أعطى أوامره الصارمة بأن أفرد إفراد البعير المعبد. واحد فقط، باكستاني يدرس الأنجليزية، كان رائعا معي خصوصا بعد أن اكتشف أني أعرف جيدا طاغور ومحمد إقبال ود.هـ لورانس الذي كان مفتونا به إلى أقصى حد. فيما بعد، أعلمني أن المدير دعاه أكثر من مرة إلى مكتبه وحذره من مغبة الاختلاط بي. ولما استفسره عن السبب، غضب غضبا شديدا وصاح فيه وبصاقه يتطاير: "اسمع يا أخانا الباكستاني. أنت جئت إلى هنا لتعلم أولادنا اللغة الأنجليزية، لا لطرح أسئلة في مواضيع لاتهمك لا من قريب ولا من بعيد !".

أحبني التلاميذ. ليس لأني كنت الشاب الوحيد في ذلك المعهد الكئيب كآبة مأوى للعجائز، وإنما لأني أتحت لهم حرية الحوار والنقاش، وتعاملت معهم كما لو أنهم أصدقاء، واستمعت إليهم وهم يبسطون مشاكلهم وهمومهم ومخاوفهم، واخترت لهم نصوصا تعكس واقعهم وأحلامهم. ورغم أنهم كانوا

يعانون من ضعف فادح في اللغة الفرنسية. وهذا أحد أسباب توجيههم إلى ذلك المعهد المختص في إعداد أيمة وكتبة محاكم، فإني تمكنت من أدرسهم قصائد لبودلير وفرلين وإيلوار، ونصوصا لسارتر وكامو وكاتب ياسين ومولود فرعون ومالك حداد. وهكذا خف نفورهم من اللغة الفرنسية، بل إن البعض منهم تحسن مستواهم فيها بشكل مدهش.

لا رائحة للأنثى في ذلك المعهد !

مرة في أواسط نيسان خرجنا لاستراحة الثالثة ظهرا. فجأة على بعد بضع مئات من الأمتار من المعهد، وثب حمار فوق ظهر حمارة. علا ضحك التلاميذ. فر الأساتذة إلى القاعة المخصصة لهم في أوقات الاستراحة وقد بدا عليهم الارتباك والخجل. أما المدير فقد ركض مثل مجنون وراح يصيح في التلاميذ آمرا إياهم بالدخول إلى القاعات فورا. في رمشة عين، خلت الساحة تماما ولم يبق إلا أنا. ظل الحمار يرقص فوق ظهر الحمارة تحت شمس الربيع وسط خضرة الحقول الفاتنة غير عابئ بشيء، وظللت أنا أدخن سيجارتي حتى آخر نفس. بينما كان المدير العجوز يتقلى على لهب الغيظ بسبب فعلتي التي ربما تكون قد بدت له أكثر شناعة من فعلة الحمار العاشق.

زارني المتفقّد في أواخر السنة الدراسية. دخل القاعة مكفهر الملامح مثل حفار قبور، وفي عينيه شر الباحث عن العراك بسبب أو بدون سبب. حياني ببرود زادني تأكيدا بأن المدير حرضه علي بما فيه الكفاية، ثم استقر في آخر القاعة. اخترت تدريس نص مقتطع من "نجل الفقير" لمولود فرعون. شارك التلاميذ في الدرس بحماس. أجابوا على أسئلتي بفطنة ولباقة. فرحت كثيرا. بعد انتهاء الدرس، توجهت إلى مكتب المدير فوجدت المتفقد ساخطا أشد السخط، غاضبا أشد الغضب كما لو أنني لوثت شرفه. طلبت منه بهدوء أن يوضح لي نقاط الضعف في الدرس، فازداد هيجانا وصاح بي:

- أعلم أني أنا الذي أسأل ولست أنت !

صمت. لا فائدة. ظل ينفخ مثل عفريت، ثم دمدم مرة أخرى :

- يتوجب عليك حين تجلس إلى رئيسك في العمل ألاّ تضع يديك في جيوبك وأن تقفل فمك إلى أن يؤذن لك بالكلام !

أظلمت الدنيا في عيني. نهضت. ضربت بقبضتي على الطاولة، ثم صحت فيه:

- اسمع أيها السيد. أنا لست في سجن أو في ثكنة عسكرية لكي تأمرني بمثل هذه الأوامر. والآن بإمكانك أن تشبع صراخا لوحدك في هذا العراء !

صفقت الباب ورائي بعنف، ثم انطلقت إلى البار الوحيد في القيروان. ظللت أعب البيرة إلى أن صفق النادل معلنا عن اقتراب ساعة الغلق. في العام التالي نقلت إلى قفصة. راق لي الأمر كثيرا ذلك أن البقاء عاما آخر في ذلك المعهد الكئيب، تحت سلطة عجوز حقود، بدا لي فوق طاقة احتمالي.

نزلت إلى الجنوب في حافلة خضراء، ملطخة بغبار المسافات الطويلة، وبطين أمطار بدايات الخريف. في الطريق، حين ازدادت الأرض عراء ووحشة، تذكرت قصة حب قديمة. حدث ذلك قبل سنة من تخرجي في الجامعة. صديق لي يدعى الأمين يدرس الفرنسية في قفصة، دعاني لقضاء بضعة أيام عنده هناك. ملأت حقيبتي بالكتب، وركبت الحافلة التي تغادر العاصمة في الساعة الرابعة فجرا. فرح الأمين بقدومي كثيرا. أمضينا الليلة الأولى في الشراب والنقاش. في اليوم التالي، تهت في قفصة وحيدا. أحببت الواحات الصغيرة المحيطة بالمدينة، وسواقي الماء بين النخيل، والحانات القذرة، والشحاذين العور المكدسين في كل مكان، والليالي المفعمة بروائح الصحراء. ذات مساء جاءت إلى الشقة صديقة الأمين، ومعها فتاة خجولة أبهرني جمالها البدوي من أول نظرة. ولأني قبل مجيئهما، كنت قد شربت أربع علب بيرة، فإني كنت مرحا ونشطا. وكعادتي في مثل هذه الأحوال رحت أروي نكاتا وقصصا أسخر فيها من كل شيء. قهقه الأمين وصديقته أكثر من مرة وهما ينصتان إلي. أما البنت الخجولة فقد ظلت تراقبني بشيء من الحذر، مكتفية بالابتسام بين الحين والآخر. ولما اختلى الأمين بصديقته في الغرفة الأخرى، قلت لها: "لماذا أنت صامتة طوال الوقت؟". أسبلت عينيها: ثم قالت بلهجتها الجنوبية المثيرة وقد اشتعل خداها مثل رمانتين في عز الخريف: "ماعندي مانقول...".

أشعلت سيجارة. قربت كرسيي من كرسيها، ثم رحت أقرأ لها بصوت هامس بعض القصائد التي أحفظها عن ظهر قلب. خف حياؤها قليلا. علا ضحكها ولمعت أسنانها مثل النجوم في ليل الصحراء. في لحظة ما سمعتها تقول: "أنت مجنون !".

اقتربت منها. تراجعت هي إلى الوراء قليلا. ظللت ألاحقها إلى أن لامس فخذي فخذها. أحسست بها ترتجف مثل عصفورة مقرورة. أمسكت بيدها فإذا بها حارة مثل الجمرة. ارتفع صوت بائع الفول في الشارع. طنت ذبابة في فضاء الغرفة. في الغرفة الثانية بدأ السرير يروح ويجيء. ظللنا صامتين. ثم غطسنا في بحيرة دافئة مضمخة بعطر الواحات الناعسة في الليل الساكن.

بعد أن غادرتنا، روى الأمين أن نادية تعيش مع جدتها العجوز وأن والدها كان من أكثر رجال المدينة ثراء غير أن ولعه بالشراب والقمار والنساء أفقده الثروة والعقل. وهو الآن يهيم في الشوارع أشعث اللحية، أغبر الوجه، حافي القدمين. قبل أن نخلد إلى النوم، نبهني الأمين أن أتجنب ذكر مارواه لي أمام نادية.

مكثت أسبوعين في قفصة. كانت نادية تزورني كل يوم. يوم رحيلي، بكت وبكيت أنا أيضا وامتزجت دموعنا كما العشاق في الأفلام العاطفية.

من بعيد ، رحت أكتب إلى نادية رسائل محمومة. وكانت هي ترد علي دائما لتقول لي بخطها الرديئ وغير الواضح أحيانا، أنها ستظل وفية لي، وأني سأظل دائما وأبدا حبها الأول والأخير. مرة رويت لي أنها شاهدت فيلما جميلا في نادي السينما، وأنها بكت لأن بطل الفيلم يشبهني كثيرا.

لأشهر عديدة، ظللت أتردد على قفصة للالتقاء بنادية. ذات ظهيرة كنا ممددين في الفراش عاريين تماما وإذا بنادية تقول لي:

- إذا أنت تحبني حقا، وترغب في أن نكون مع بعض طول الوقت، فلم لا تتقدم لطلب يدي؟

تقدمت لخطبتها في يوم أحد أغبش، مليئ بالغبار والوحشة. استحممت وتطيبت. ارتديت بدلة جميلة أعارني إياها الأمين. اشتريت حلويات وأزهارا. عند الظهر طرقت باب بيت نادية ومعي الأمين وصديقته وزوجة صديق له كان متغيبا يومها. استقبلتنا الجدة العجوز بفتور قاتل وهي متربعة فوق أريكة. إثر الشاي الذي قدمته لنا نادية، وضعت شيئا من السعوط، في منخريها الواسعين، ثم سألت بحدة:

- من الذي يرغب في نادية؟

أشاروا إلي. تأملتني هي طويلا بعينيها الذابلتين، ثم قالت وهي تنحني إلى الأمام قليلا:

- من أي منطقة؟

- من القيروان، أجبت.

- من القيروان المدينة؟

- لا. من ريف القيروان، قلت وأنا أبتلع ريقي كما لو أني أبتلع حجرا. صمتت الجدة بينما ظل صدرها يخشخش، ورأسها الضخم يتحرك بعصبية. تنحنح الأمين. وضعت زوجة صديقه الغائب ساقها اليمنى على ساقها اليسرى، ثم شدت بقوة على حقيبتها اليدوية السوداء وكأنها تخشى أن ينتشلها منها أحد. وفي تلك اللحظات المشحونة بالحرج والتوتر والانتظار بدت لي جدة نادية شبيهة ببومة هرمة تنتظر الموت في أحد الكهوف. بغتة اجتاحتني رغبة في أن أبصق عليها وأخرج في الحين. لكن، لما تذكرت نادية، هدأت، وبدأت أمسح العرق الذي كان يبلل جبيني باردا غزيرا كأنه عرق الاحتضار. عقب صمت مريع، أشاحت الجدة عنا بوجهها، ثم قالت إنها لن تزوج حفيدتها الجميلة إلا لرجل يستحقها. خيم الصمت ثقيلا من جديد. ثم نطقت زوجة صديق الأمين، وقالت كلاما طريفا خفف من وطأة الجلسة قليلا. حالما انتهت، حدجتني الجدة العجوز بنظرة حاقدة أخرى، ثم أمطرتني بأسئلة عن أصلي وعن عائلتي. ولما علمت أنني مازلت طالبا، قالت:

- سأنظر في الأمر. الجواب ليس الآن !

بعد أسبوعين، عدت إلى الواحات. كان لي موعد مع نادية في السادسة مساء في شقة الأمين، رحت أشرب وأدخن وأنا على قلق كأن الريح تحتي. مرت ساعة. ساعتان. امتلأ فمي بمرارة السجائر وأخذت أمعائي تئن. وعندما لم أعد بمقدوري أن أنتظر، ركضت إلى بيت الجدة العجوز. طرقت الباب بعنف. بعد حين أطلت الجدة الهرمة برأسها الضخم، وصاحت في:

- ماذا تريد؟

- أين نادية؟، صحت بأعلى صوتي.

- أيّ نادية؟، دمدمت العجوز وهي ترجف.
- نادية... نادية... ألا تعرفين نادية؟!، صحت ثانية وليس أمامي غير الضباب.
- ليس هنا أحد بهذا الاسم !، ردّت الجدة. ثم أغلقت الباب بعنف. هكذا انتهت قصة حبي العاصفة لنادية الجميلة !

مرت الأشهر الأولى في قفصة بسلام. اكتريت مع صديق قديم يدرّس الفلسفة شقة هادئة تطل على حديقة واسعة. جارانا ممثلان في فرقة "مسرح الجنوب". منذ الأسابيع الأولى توطدت علاقتنا بهما حتى أننا أصبحنا نقضي كل أوقات فراغنا بصحبتهما. نشرب كثيرا. نستمع إلى السمفونيات الكلاسيكية وإلى فيروز بالخصوص التي كنا نفضلها على جميع المغنين والمغنيات في العالم العربي. تأتينا الخادمة العمة مبروكة بمومسات من الأحياء الشعبية المحيطة بالمدينة. واظبت على حضور تمارين إعداد مسرحية "حمّة الجريدي" التي ذاع صيتها في ذلك الوقت حتى أن مسارح الهواء الطلق في المهرجانات الصيفية أصبحت عاجزة عن استقبال المتفرجين. ولأن تلك التمارين وفرت لي متعة كبيرة، فإني فكرت أن المسرح يمكن أن يكون مستقبلي.

وهكذا رحت ألتهم مسرحيات جان جينيه وألبير كامو وجان بول سارتر واوجست ستراند بارج ويوجين يونسكو وغيرهم. بعدها راودتني فكرة كتابة مسرحية عبثية. أمضيت عدة أسابيع وأنا أحاول ذلك. ولما لم أتوصل إلى أي شيء مقنع، ألقيت بكل الأوراق في صندوق الزبالة ، ونسيت الموضوع نهائيا. زارني خالد في قلب الشتاء. يوم وصوله، أعتقد أنه يوم سبت، حرص أن يشرب كأسا في كل بارات قفصة: "أول شيء أشتهي أن أفعله حين أدخل مدينة هو أن أطوف في باراتها، وأتذوق عسل نسائها !، قال. مكث عندنا مايقارب الشّهر. تعلق بمطلقة تدعى جميلة، سمينة، ضخمة الصدر والمؤخرة حتى كان يخرج عن طوره حين لايمر يوم دون أن يجامعها. سميناها نحن "الانسكلوبيديا". مرة سألناه متقصدين إغاظته: "كيف يمكنك ياخالد أن تعثر على شيئها وسط كل تلك الانسكلوبيديا الضخمة من الشحم واللحم؟!". غير أنه أجاب بهدوء تام:

- في الصفحة رقم 1800 بالضبط وإذا لم تصدقوني فجربوا الأمر بأنفسكم!. في الليل بعد أن تلعب الخمرة برؤوسنا، يلتف خالد ببرنس الصوف يغمض عينيه، ثم يشرع في قراءة بعض من قصائده:

"بعد منتصف الليل يمر الرعاة إلى الجنوب/ تمرّ ذبابة بنافذتي/ دميتي للخلنج/ وصيفي بلا حشرات/ وأنا للغبار/ لا نبع في باحة داري ولا أمواج في البحر/ وأنا بارد كالدبّ / لا بروق في الفجر تضيء داري/ ولاقمح في شتائي/ وأنا منسي كالخلنج/ شمال بلا جداول أو ساعات".

نهاية الأسبوع ذاك، هبّت عاصفة رملية شديدة غطت المدينة بغبار أحمر كثيف. وعطلت الحركة، ودلقت في نفوس الناس وحشة قاتمة. كان الصديق الذي يقاسمني الشقة قد سافر إلى العاصمة لزيارة والدته المريضة. أمّا الممثلان فقد كانا منهمكين في التمارين الأخيرة استعدادا للعرض الأول للمسرحية أمام لجنة الرقابة. اندسست في الفراش بعد أن غلّقت النوافذ، ثم غرقت في قراءة رواية "الحياة أمام الذات" لروائي مجهول يدعى إميل آجار كان قد أحرز قبل شهرين على جائزة "جونكور" (يكتشف الناس فيما بعد أن أميل آجار ليس سوى رومان جاري الذي انتحر في نهايات عام 1980). فتنتني الرواية حد أنني لم أكن قادرا على تركها ولو لدقيقة واحدة. ولعلي التهمت نصفها حين سمعت طرقات عنيفة على الباب. فتحت فإذا "الأستاذ" منتصب أمامي بقامته النحيلة، ومعطفه الأسود الطويل، ولحيته الخفيفة، ومحفظته الجلدية الحمراء، وابتسامته الساخرة التي لاتكاد تفارقه. وكان مكسواً بالرمل الأحمر من الرأس حتى الساقين. ولأني كنت أعلم أنه محجّر قانونيا على "الأستاذ" وضع ساقيه في قفصة، وفي العديد من مدن وقرى الجنوب بما في ذلك مسقط رأسه "حامة الجريد"، فإن الدهشة عقدت لساني حتى أنني لم أعد أدري ما أقول ولا ما أفعل.

ظللت أنظر إليه فاغر الفم وكأنه عائد للتوّ من العالم الآخر. انتظر هو قليلا، ثم اندفع إلى الداخل مغلقا الباب بضربة سريعة من مرفقه الأيمن وهو يقول:

- ماذا ... أنسيتني أيها البدوي الأحمق... أم أنت أصبحت مثل ذلك الأعرابي البخيل الذي يتحدث عنه الجاحظ والذي خوفا من استضافة صديق يتصامم ويتعامى

حتى إذا ما أتى ذلك الصديق على جميع الدلائل التي تشير إلى العلاقة الوطيدة التي تربط بينهما صاح هو فيه: "لو خرجت من جلدك لما عرفتك!".

- ولكن يا "أستاذ" حسب علمي أنت ممنوع من الدخول إلى قفصة... أليس كذلك؟!

- هذا صحيح... ولكن أنت تعلم جيدا أنني خلقت لعصيان القوانين وليس للرضوخ إليها مثلما يفعل العامة والمثقفون السذج أمثالك!

ضحكنا عاليا. ثم تعانقنا.

- إلي بالأكل والشراب! قال الأستاذ وهو ينزع معطفه.

ركضت أنا إلى السوق وسط العجاج الأحمر. عدت بعد نصف ساعة فوجدت "الأستاذ" متربعا في الصالون نظيفا منطلق الأسارير كما لو أنه امبراطور توّج للتو. حالما وضعت قنينة "كوديا" أمامه، قال لي:

- اسمع. لقد أتعبتني تلك العاصمة الحقيرة، ولم تعد لي طاقة على احتمال ثرثرة مثقفيها، فعجلت بالهروب. ويبدو أن صديقي الشيطان رق لحالي كعادته دائما، ففجر هذه العاصفة الرملية الهوجاء التي أتاحت لي الوصول إليك دون أن أثير انتباه أحد!

هكذا هو "الأستاذ" منذ عرفته. لم يبد مرة ترددا أمام المخاطر. لا يستقر في مكان، ولا يدري أين يبيت ليلته القادمة، ولاكيف يتدبر مصروف اليوم التالي. لا عائلة. لا مأوى. لا عمل. متوحدا بنفسه حتى الأقاصي. محفظته الجلدية الحمراء تحت إبطه وهو يطوي الأرض طيا كما لو أنه غير راغب في البقاء عليها طويلا. خالد هو الذي قدمني إليه عقب أيام قليلة من تعارفنا.

من اللحظة الأولى أبهرني. حركاته، لباسه، سخريته اللاذعة، تهكمه البديع، دعابته السوداء التي لا يضاهيه فيها أحد، قدرته الفائقة على إسكات معارضيه المناوئين له، مقته الشديد لكلمات مثل "وطن"، "عائلة"، "دولة"، استخفافه بالثقافة الرسمية وبكل ماله صلة بها، رفضه التام لكل ما يمكن أن يهدد حريته الفردية. كل شيء فيه أبداه لي مختلفا عن جميع من عرفت من المثقفين حتى ذلك الحين. لكأنه شخصية من شخصيات دستويفسكي. قديس وشيطان في ذات الوقت. وقح.

متهتك كما لو أنه مزيج من ديوجين وأبي نواس وحفيد رامو. ولعلّ أهم ما لفت انتباهي فيه، لغته. لغة ساحرة. متدفقة. صافية. خالية كليا من تلك التعابير والكلمات الفرنسية التي يتباهى جلّ المثقفين التونسيين باستعمالها في كل مقام ومقال موحين للناس أن الفرنسية هي اللغة الوحيدة القادرة على تبليغ أفكارهم على أكمل وجه وأروع صورة. بعد أن تعشينا معه في مطعم "الكوسموس" دعانا "الأستاذ"، خالد وأنا لإكمال الشراب عنده، تبعناه دون سؤال. كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة صباحا. في الشوارع لم يكن هناك غير رجال الشرطة وبعض المشردين. سرنا إلى أن وصلنا إلى حي "باب الجديد". دخلنا عمارة مظلمة. أشعل "الأستاذ" عود كبريت. على ضوئه دخلنا غرفة ضيقة بلا نوافذ، فيها سرير حديدي، وطاولة صغيرة. في أحد أركانها كدّس عدد هائل من الكتب والمجلات.

- هذه غرفة أعارني إياها محام بخيل لبضعة أشهر بعدها لا أعرف مصيري!

جلسنا كيفما اتفق. ظللنا نشرب حتى طلوع النهار. ومنذ تلك الليلة أصبح "الأستاذ" أستاذا لي بأتم معنى الكلمة، تحت تأثيره أتقنت فنّ المواجهة والتحدي والسخرية، وتخلصت من ذلك "التأدب" الكاذب الذي طبع سلوكي حتى تلك الساعة. وهكذا أصبحت من ذلك "التأدب" الكاذب الذي طبع سلوكي حتى تلك الساعة. وهكذا أصبحت أعي حريتي الفردية بشكل أكثر نضجا ووعيا، وأجهر بآرائي وأفكاري دون خشية، وأثير زوابع هوجاء في حلقات الأدباء.

مرة ذهبت إلى "نادي القصة". وجدت هناك جمعا من الأدباء المعروفين متحلقين حول الطاولة، وقد اكفهرت ملامحهم، وبدا عليهم الإحباط والقنوط كما لو أنهم يتقبلون التعازي. قرأ واحد منهم قصة سخيفة للغاية، فطفق الآخرون يمجدونه حتى لكأنه تشيكوف أو ادجار ألن بو. بعد ما شبعوا ثرثرة طلبت الكلمة.

حالما أذن لي بها، قذفتهم بالشتائم ونعت القصة التي قرأت بأنها "تمرين إنشائي سخيف لا يكتبه حتى تلميذ في الابتدائية". ثارت ثائرتهم فأخذوا يضربون على الطاولة بقبضاتهم مهددين بطردي من القاعة حينا. لم أعبأ بهم، بل ازددت جرأة واحتقارا لهم. ولما قلت إنه "نادي القصة" تحول إلى "اسطبل للكتاب الرديئين"

بسبب النفاق والمجاملات ، ازرقّت سحناتهم كما لو أن رقابهم طوقت بحبال لا مرئية، أما صاحب القصة الرديئة، وهو كهل له ملامح موظف صغير في مؤسسة على وشك الإفلاس، فقد اندفع نحوي مزمجرا:

- اسمع . نحن نعلم جيدا أنك تلميذ نجيب لذلك الدجال الذي يسمونه "الأستاذ"، وإذا لم تخرج حالا من القاعة، فإننا سوف نكون مضطرين لإبلاغ البوليس لتأديبك !.

رغم ملازمتنا له، ظل "الأستاذ" مسربلا بالألغاز والغموض طول الوقت. وكانت المعلومات بشأن حياته الماضية متناقضة، ونادرة إلى أقصى حد. وكان أعداؤه يتفننون في اختلاق الأكاذيب العجيبة حوله مشيعين أن شهائده مزورة. وأنه عمل جاسوسا في سوريا والعراق أيام كان طالبا هناك، وأن يتظاهر بمعاداة النظام، غير أنه يمدّ أسبوعيا وزارة الداخلية بتقارير عن المثقفين المعارضين. والمدهش في الأمر أن "الأستاذ" لم يكن يولي مثل هذه الإشاعات أي اهتمام، بل ولم يكن يرد عليها حتى ولو بنصف كلمة. وكلما سأله الواحد منا عن أطوار حياته الماضية، أسرع بتغيير الموضوع، أو يمضي على عجل مدعيا أن له موعدا هاما... بعد دقائق قليلة. فإذا ما ألح السائل، رد الأستاذ بحزم "أنا لست شخصية عامة. وحياتي لا تهم أحدا غيري !".

ومع مرور الوقت، توصلنا بعد بحث طويل وتقص شاق لمعلومات قليلة إلى إزاحة بعض من ذلك الضباب الكثيف الذي كان يلف شخصية "الأستاذ"، وحياته الماضية. ويبدو أن "الأستاذ" الذي ينتمي إلى عائلة متدينة من منطقة "الجريد" كان طالبا في "جامع الزيتونة" أواسط الخمسينات. ومن عرفه في تلك الفترة يقول عنه إنه كان ذكيا ولامعا، غير أنه كان سليط اللسان، متهتكا، يأتي إلى الدروس ثملا غالبا الأحيان، ويخاصم الشيوخ.

وقد تمادى في هذا السلوك إلى أن أقرّ مجلس التأديب طرده نهائيا. ولما اندلعت الخصومة بين الزعيمين الحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف بشأن مسألة الاستقلال، انضم "الأستاذ" إلى حركة هذا الأخير، وساندها بقوة. بعد انتصار بورقيبة على خصمه الذي لجأ إلى القاهرة، فرّ "الأستاذ" راجلا إلى طرابلس الغرب. مكث هناك بضعة أشهر ، ثم انتقل إلى القاهرة. بعدها عاش سنوات طويلة متنقلا بين دمشق

وبغداد وبيروت التي يؤكد البعض أنه التقى فيها العديد من الثوريين العرب. ويبدو أنه كلف بمهمة سرية في بغداد ، غير أنه اعتقل عقب أسبوع واحد من وصوله ، وأودع "سجن النهاية" حيث أخضع لتعذيب وحشي ظلت آثاره مطبوعة على جسده. بعد إطلاق سراحه، انتقل إلى إسطنبول وهناك مكث سنوات عدة غير أنه لا أحد يدري ماذا فعل هناك بالضبط.

الشيء الوحيد الذي يعلمه الناس هو أن "الأستاذ" عاد فجأة إلى تونس ليعمل صحفيا في إحدى وكالات الأنباء غير أنه سرعان مافصل عن العمل بسبب تهمة تهاونه وعدم احترامه لرؤسائه. ويؤكد البعض أن قرار الفصل جاء إثر رفضه إضافة "المجاهد الأكبر" أمام اسم الحبيب بورقيبة في التقارير الأخبارية المرسلة إلى وسائل الإعلام ووكالات الأنباء الأجنبية.

ثم اندلعت حرب حزيران 1967. فنظم الطلبة التونسيون مظاهرة ضخمة للمطالبة بإرسال الجيش إلى جبهات القتال غير أن تلك المظاهرة لم تلبث أن انقلبت إلى حوادث شغب وعنف أحرقت خلالها سفارات عربية، ومحلات عديدة تابعة لليهود التونسيين. إثر ذلك وقع اعتقال العديد من المثقفين وكان "الأستاذ" واحدا من بين هؤلاء.

في نهاية الستينات، عقب فشل تجربة التعاضد الاشتراكية قام "الأستاذ" الذي كان قد أطلق سراحه من السجن قبل ذلك بعام واحد فقط، بتوزيع منشور يدعو فيه النظام إلى "القيام بإصلاحات ديمقراطية جذرية" حسب تعبيره، ويحث فيه الشعب على عدم الاستمرار في تسليم رقبته لحكام لايفعلون شيئا للرقي به. وطبعا كان ذلك كافيا لكي يقذف به في السجن من جديد. ويبدو أن فترة السجن هذه، والتي استمرت عامين كاملين، كانت واحدة من أعسر وأمر الفترات في حياته. فقد وضع في زنزانة انفرادية. وبهدف تدمير معنوياته، كان يجبر يوميا على غسل المراحيض، وتنظيف الجناح الذي كان مسجونا فيه. ولأسابيع عديدة، كان يظل بلا دش. وحين يشتد البرد، يمنح غطاء واحدا لا غير. وقد تسبب كل هذا في إصابة "الأستاذ" بأمراض خطيرة، ظلت تعذبه حتى أجهزت عليه في شتاء 1995.

هدأت العاصفة الرملية. نزل رذاذ خفيف لطف الجو، وأزاح شيئا من الوحشة المتراكمة في النفوس. أمضى "الأستاذ" الخمسة أيام الأولى في الشقة لايبرحها أبدا.

في الليل كان يطلب مني أن أقرأ له مقاطع من "مسامرات الأمواتِ" للوقيانوس السيساطي. كتاب لايمل منه أبدا. ودائما كان يقول لي: "إذا ما قدر لي أن أكتب كتابا ذات يوم ، فلابدّ أن يكون شبيها بهذا الكتاب أو لا يكون !".

صباح أحد، فاجأني "الأستاذ":

- اسمع ... أعتقد أنني بحاجة إلى أن أشم قليلا من الهواء. سوف أتجوّل هنا في الحي، ثم أعود بعد نصف ساعة بالضبط .

قبل أن يغلق الباب، أردف قائلا:

- اطمئن... سوف أكون حذرا ! .

مرت ساعة. ساعتان. ثلاث. بتّ على يقينٍ تام أن "الأستاذ" وقع في قبضة الشرطة. وكنت لا أزال أفكر في ما يتحتم علي القيام به، حين طرق الباب بقوة، فتحت فإذا بي أمام أربعة من رجال الأمن. واحد بالزي الحكومي. وثلاثة بالزي المدني.

- عندنا أمر بتفتيش الشقة ! قالوا.

- تفضلوا ! قلت من دون أن أقرأ كلمة واحدة من الورقة التي استظهروا بها.

فتّشوا الشقة شبرا شبرا. لم يعثروا على أي شيء مثير للريبة.

- أين محفظة "الأستاذ" سألوا:

- هاهي ! قلت.

- هل عنده أغراض أخرى؟

- لا .

- تعال معنا !

تبعتهم. بعد انتظار دام حوالي نصف ساعة، استقبلني ضابط أسود البشرة، حيّاني بأدب.

قلب في ملف أمامه، ثم قال لي:

- أعتقد أنك ارتكبت خطأ فادحا ضد القانون !

- ماهو ؟

- استقبلت "الأستاذ" في شقتك !

- وهل هذا مخالف للقانون ؟

- هو بالفعل كذلك خصوصا وأنك تعلم جيدا أنه محجر على "الأستاذ" الدخول إلى هذه المدينة !

- لا أعلم ذلك !

ابتسم بخبث. ظل ينظر إليّ بضع لحظات ، ثم أضاف قائلا:

- نحن على يقين أنك على علم بهذا الإجراء. لكن نحن لا نريد مشاكل. أما إذا ما تكرر الأمر، فإننا سنكون ملزمين بتطبيق القانون... والآن بإمكانك أن تنصرف !.

إثر هذه الحادثة، شدد رجال الأمن رقابتهم عليّ حتى أنني بت لا أخطو خطوة واحدة إلا وهم ورائي، أو على شمالي، أو على يميني. وفي أكثر من مرة اقتحموا علي الشقة دون تقديم أي تفسير لذلك. أما في المعهد فقد ساءت علاقتي بالإدارة وتعكرت حتى أن الذهاب إلى العمل أصبح بالنسبة لي عذابا حقيقيا. ثم صادف أن قمت بإلقاء محاضرة في "النادي الأدبي" عن غسان كنفاني أمام جمهور غفير من التلاميذ. صبيحة اليوم التالي، دعاني المدير إلى مكتبه. وجدته يدخن متوترا، وأمامه فنجان قهوة. تمتم بتحية سريعة، ثم سألني بجفاء واضح:

- من هو الكاتب الذي تحدثت عنه في محاضرتك بالأمس؟

- كاتب فلسطيني .

- ما اسمه ؟

- غسان كنفاني .

- ماذا يكتب ؟

- روايات وقصصا .

- عم تتحدث هذه الروايات والقصص؟

- عن أوضاع الفلسطينيين .

- ولكن بلغني أنه كاتب ماركسي. فهل هذا صحيح؟

- ربما...

- ماذا تعني بـ "ربما" هذه؟

- أريد أن أقول أنه ليس مهما أن يكون ماركسيا. المهم هو ما يكتبه.

- لكن أنا لست معنيا بما يكتب. ما يعنيني هو: هل هو ماركسي أم غير ماركسي؟ (قال ذلك بغيظ واضح).

تعمدت أن أغيظه أكثر، فقلت له:

- لا أدري !

- وكيف لا تدري وقد تحدثت عن هذا الكاتب مايزيد عن الساعة؟!

هنا بلغ السيل الزبى، فقررت المواجهة:

- اسمع ياسيد المدير... أريد أن أعرف بالضبط لم دعوتني؟

رد بحدة وهو يرجف:

- دعوتك لأعلمك أنه ممنوع منعا باتا إلقاء محاضرات عن كتاب خارج البرنامج المقرر من قبل وزارة التربية !.

- لكن مهمة "النادي الأدبي" حسب علمي هي اطلاع التلاميذ على كتاب يجهلونهم !.

هنا بدا جليا أن المدير لم يعد يحتمل مواصلة النقاش، فصاح بي:

- اسمع ... بصفتي رئيسا لهذا المعهد، أعلمك أنه محجر عليك مستقبلا إلقاء محاضرات دون استشارتي، فاهم !.

أواخر شهر نيسان، زارني متفقد بلجيكي. تصرّف معي أكثر خشونة وصلافة من الأول. في الأخير تخانقنا، وارتفعت أصواتنا حتى وصلت إلى التلاميذ في القاعات. حين تركت مكتب المدير، كانت الدنيا سوداء أمامي كما لو أن شمس الجنوب قد انطفأت وإلى الأبد ! جاء الصيف فحزمت أدباشي ورحلت إلى بنزرت. كنت واثقا من أن علاقتي بالتعليم قد انتهت، لذا لم أترك شيئا يلزمني بالعودة إلى هناك. على شاطئ "الكورنيش" نسيت التعليم وأهله، ورحت أطارد السائحات الفرنسيات والنمساويات. أوائل شهر سبتمبر، تلقيت رسالة من وزارة التربية جاء فيها باختصار شديد أنه وقع فصلي من سلك التعليم لأسباب بيداغوجية، مزقتها وركضت إلى البار.

تركت هناك نصف مرتبي الذي استلمته قبل يوم واحد فقط، ثم تهت في المدينة. الليل دافئ لذيذ. وأنا أقترب من المرسى القديم هاجت رغباتي حتى لا أقوى على كبحها. ما العمل؟ (سؤال لينين الثوري هذا يمكن أن يطرحه بنفس الجدية واحد

مثلي... يبحث عن جسد شهي يطفئ فيه أوجاعه). توغلت في المدينة العتيقة والسؤال يحفر في دماغي. أمها نامت منذ مايزيد عن الساعتين. وهي لابد أنها ممددة في الفراش في مبذلها الأحمر، تدخن وتشرب وتستمع إلى تأوهات أم كلثوم. لابد أنها مشتاقة إلي.

ولابد أن لشهوتها نفس صخب بحر بنزرت في عواصف الشتاء. سأجامعها حتى الصباح. حين أخرج من عندها سأكون قد برئت نهائيا من أوجاعي وعللي، ومحوت من ذاكرتي كل تلك الوجوه البشعة الحاقدة التي أفسدت حياتي وعكرت مزاجي خلال العامين الماضيين... آه... زبيدة. ليس هناك امرأة غيرك بمقدورها أن تداوي جراحي هذه الليلة، وتخلّص روحي من هذا الاضطراب المريع الذي يعصف بها...

وجدت نفسي أمام بيت زبيدة، التفت يمينا وشمالا. لا أحد . سكون تام. وبينما كنت أتأهب لطرق الباب، سمعت حركة مريبة ورائي. استدرت فإذا بي أمام شاب مفتول العضلات، عريض الكتفين:

- ماذا تفعل هنا؟!... سألني بصوت غليظ.

- آ... أريد... أريد...

- ماذا تريد؟!

- أنا أبحث عن بيت صديق لي يسكن هنا... ويبدو أنني أخطأت... المعذرة... المعذرة...

قلت ذلك، ثم تحركت راغبا في الانصراف غير أن الشاب ارتمى علي، وأمسك بتلابيبي:

- تعال يا... ! عن أي صديق تبحث؟

- صديق... صديق... يسكن هنا... أوربما في الشارع الآخر...

- ما اسمه؟

- اسمه... اسمه ...آ... المعذرة... المعذرة... لقد أخطأت !.

في ذات اللحظة برز من الشارع شبان كثيرون، وفي رمشة عين طوّقوني. قرّب أحدهم وجهه من وجهي، ثم صاح:

- آ... إنه سكران !

- لعله يعتقد أن حيّنا محلّ للبغاء !
- لابد من تأديبه حالاً !
- لابد أن نفعلها بأخته !
- المعذرة... المعذرة... صحت وأنا على وشك أن أنفجر باكيا غير أن اللّكمات جاءتني من كل ناحية. تساقطت النجوم نثارا على الأرض وبدت السماء وكأنها سقف على وشك الانهيار.

امتلأ فمي بدم بارد. ضجّ الحيّ كله باللّغط والصياح. بدا لي أني أسمع زبيدة تقول: "افعلوا به ما تشاؤون... فأنا لم أر هذا الوجه في حياتي أبدا !". ثم ارتفع صوت كهل: "اتركوه... أنا أعرف أخاه... وصحيح أن له صديقا يسكن قريبا من هنا. ولابد أنه ظل طريقه بالفعل ذلك أن الشوارع متشابهة كثيرا في هذا الحي !". انفضوا من حولي وهم يلعنون ويبصقون. تحاملت على نفسي وسرت مترنحا إلى أن وصلت إلى "شاطىء سيدي سالم". تمددت على الرمل ثم غرقت في النوم. حين استيقظت كانت الشمس في قلب السماء.

تمرّ نصف ساعة ولا تأتي رنا. يتململ هو قلقا، ثم يقول: "أنت تعرف أن رنا منضبطة في مواعيدها انضباط أولئك الألمان الذين تعيش عندهم . لكن يبدو أن المواصلات اللعينة في هذه المدينة هي التي عطلت قدومها". يطلب اكسبريس. يلقي نظرة سريعة على الساعة الثمينة التي قال لي أن صديقته الأمريكية أهدتها له قبل سفرها، ثم يضيف قائلا: "مازالت تفصلنا من الليل ساعتان فقط، وإذا أردت أن استقبله الاستقبال اللائق بمقامه فإنه يتحتم علي أن أكف عن الشراب إلى حين حلوله". بعدها يسترخي في جلسته، ويغرق في الصمت وعيناه نصف مغمضتين:

أما أنا فأتناول دفتري الأزرق الذي لا يفارقني وأشرع في تصفحه:

**• شيئان يملآن فكري بإعجاب يتجدد ويتعاظم دائما، قبة السماء المزينة بالنجوم فوق رأسي، والقانون الأخلاقي الكامن فيّ. (كانط).**

**• لاتقيد علي لفظي فإني مثل غيري تكلّمي بالمجاز. (للمعري).**

**•كل دين يعد بتحقيق الرغبات البشرية هو بكل بساطة ملجأ للجبناء ولا يليق بالإنسان الحقيقي. (كازنتزاكي).**

• لم يعد هناك وجود إلاّ للفراغ والغيوم واللغة. (اريستوفانيس).

• الدنيا مزرعة الآخرة. (الغزالي).

• فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدّم قائله ويضعه في متخيّره، ويرذّل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه، أو أنه رأى قائله. (ابن قتيبة).

• الإله آهة ودمعة وديعة. (متصوف بيزنطي).

• ما الروح الضائعة؟ إنها تلك التي تحيد عن طريقها الصحيح وتظلّ تتلمّس وجهتها في عتمة دروب الذكريات. (مالكولم لاوري).

• تعال أيها الموت متى شئت. إنّ صوت فصاحتك المدوّي لا يخيفني. ففي مواجهة حكمك يعلو خفقان ضميري الرائق. (غونغورا).

• هكذا هو العالم. إذا ما نحن لم نبك من شدة الغيظ، فإننا نتقيأ من فرط التقزز والاشمئزاز. (غوستاف فلوبير).

• نعم أعرف من أين أتيت / مضطرما كاللّهب / أحترق وأتلف / كل ما ألمسه يتحوّل إلى ضوء / وكلّ ما أغادره يتحوّل إلى فحم / لا شك أنني ملتهب. (نيتشه).

• لا يوجد الحب الكامل بين الاثنين إلا حين يخاطب كل منهما الآخر بقوله: يا أنا!. (السري السقطي).

• تستطيع دموع البشر أن تدير طواحين العالم كلّها، لكنّها لا تدير طاحونة الله. (رجل في المائة من عمره).

• هؤلاء الذين أقاموا بركن العافية، كمّموا أسنان الكلب وأفواه الناس، ومزّقوا القرطاس وحطموا القلم، وتخلصوا من ألسنة وأيدي المعترضين والعائبين. (السعدي الشيرازي).

• أنا وحيد مثل آخر عين لرجل يمشي باتجاه العميان. (ماياكوفسكي).

• ذات يوم سئل الشيخ جليلان، ابن هاراما: "ما الذي يجب أن يفعله العرب لكي يتجنبوا الانهيار؟" فأجاب: "كل شيء سيكون على ما يرام طالما أنهم يغيرون على خيولهم والسيف في أيديهم والعمامة على رؤوسهم". (كازنتزاكي).

**• إذا ما كان شيء فإنما للأرض والصخور. (رامبو).**

**• في آخر المطاف، ما يهم هو فقط الجانب المتبقي من الكذب. لقد حجّر عليّ العقل منذ أمد بعيد أن أقول وأن أكتب الحقيقة لإدراكي بأننا حين نفعل ذلك، فإننا لن نفعل شيئا آخر غير أن نقول وأن نكتب الكذب. لكن الكتابة بالنسبة إليّ ضرورة حيوية. لهذا الهدف أنا أكتب حتى وإن كان ما أكتبه ليس غير كذب أقدمه أنا على شكل حقيقة. بالتأكيد، نحن باستطاعتنا أن نطالب بالحقيقة لكن الصدق يكشف لنا أن الحقيقة لا توجد. ما نحن نصفه هنا هو الحقيقة، ومع ذلك هي ليست الحقيقة تماما لسبب بسيط وهو أن الحقيقة ليست بالنسبة إلينا غير أمنية ورعة. (توماس بارنهارد-القبو).**

مطر غزير ينفذ إلى العظام كالنّصال الحادة. المدينة غارقة في الوحل. أنا أمشي بلا معطف ولا مظلة. أمشي تحت المطر النازل مدرارا من سماء تبدو كما لو أنها محيط في حالة اضطراب وهيجان. وأنا أمشي. والطريق عقب كل خطوة أخطوها تزداد تمططا أمامي. وأنا أمشي. أمشي.

قبل يوم قرأت في جريدة "لابريس" إعلانا يقول أن شركة لبيع قطع الغيار الخاصة بالسيارات الفرنسية الصنع تبحث عن كتبة. ورغم أني لا أعلم شيئا عن عالم السيارات، ولا أكاد أميز بين أصنافها، فإني بكرت بالذهاب إلى هناك. ولأن المبلغ الذي بحوزتي (حوالي 400 مليم) يكفي لتناول وجبة خفيفة عند الغداء "صحفة لبلابي" أو "صحن تونسي بالعظمة"، فإني قررت الاستغناء عن ركوب الحافلة العمومية. وهكذا سرت راجلا، تحت المطر، من حي "ابن خلدون" حيث أسكن، إلى حي "الخضراء" حيث المقرّ العام للشركة(ستة كيلومترات تقريبا). المطر يضربني بعنف وأنا أمشي. الأمل ضئيل ضآلة ضوء قنديل احترقت آخر قطرة زيت فيه، وأنا أتقدم بثبات وعزم. لكأني لم أعد أبتغي شيئا آخر غير أن أداوي العذاب بالعذاب، وأن أواجه القهر المسلط علي يوميا، بمزيد من القهر!

أصل إلى مقرّ الشركة وأنا أقطر من الرأس حتى الساقين، وشفتاي مزرقّتان من البرد، وحذائي ملطخ بالطين. يتفحصني الحارس بنوع من الازدراء، ثم يصيح في من وراء النافذة البلورية :

- ماذا تريد ؟
- قرأت بالأمس في الجريدة إعلانا يقول أن شركتكم...
قاطعني:
- الشركة انتدبت كتبه وانتهى الأمر...
- لكن الإعلان صدر أمس فقط !
صاح في بحدة :
- قلت لك أن الشركة انتدبت ك... ت... ب... ه وانتهى الأمر. هل فهمت؟!
أعود إلى الطريق. ساعة أخرى في المطر والبرد والوحل. أدخل مقهى "الزنوج" الذي أرتاده يوميا وأنا على أسوأ حال.

لكأني غطست بكامل ثيابي في بركة موحلة. هكذا أنا منذ عامين. أدور وأدور إلى أن تتورم ساقاي، ويثقل رأسي، ويمتلئ فمي بمرارة اليأس والإحباط، ثم أعود إلى مقهى "الزنوج". أتكوم في أحد الأركان. أظل جالسا إلى أن ينتن جلدي، ويتعب الكرسي مني، وتلمع في نظرات الجرسون الرغبة في محوي من الوجود.

بعد أسبوع فقط من وصول قرار فصلي من التعليم، تركت بنزرت رغم معارضة أخي الأكبر، ودخلت العاصمة من بابها الشمالي لأواجه منذ اليوم الأول لوصولي قضية مأوى للنوم. وهكذا بات محكوما علي أن أجوب المدينة طولا وعرضا كل ليلة بحثا عن صديق أنام عنده.

أحيانا أطرق الأبواب فلا تفتح. وعندئذ أضطر إلى العودة إلى الشوارع. أظل أسلخها وتسلخني إلى أن يفتح مقهى "الزنوج" أبوابه في الساعة السادسة والنصف صباحا. أمشي. طول الوقت أمشي. مرة بحثا عن مكان للنوم. ومرة بحثا عن صديق يمنحني نصف دينار أو دينارا أواصل بهما مشوار الشقاء. فإن نفحني بأكثر من ذلك، شعرت كما أن أبواب الجنة قد انفتحت أمامي على مصراعيها. أمشي. في الليل. في أيام الأتراح والأفراح. في الصقيع. في المطر. في القيظ. أمشي جارا أوهامي وكوابيسي وهواجسي مثلما يجر السجين سلاسله. أمشي. أمر أمام المقاهي والمطاعم الفاخرة فيحتلب ريقي، وتصرخ أمعائي، وتلتهب رغبتي لشراب بيرة. بيرة واحدة فقط. لا غير.

بعدها يمكنهم أن يفعلوا بي ما يشاؤون. وتلك السمراء الحلوة ذات العينين الدعجاوين والقد المليح الجالسة في مقهى "الانترناسيونال" لم لا تبتسم لي كي أتحقق من أن جسدي لا يزال يشتهي، ومن أن قلبي لا يزال قادرا على أن يحب. منذ زمن أخاله أحيانا بطول عمر البشرية، منذ عهد آدم، لم ألمس امرأة. في ظلام الليل، تلتهب ذاكرتي بأجساد نساء أحببتهن في حياتي الماضية التي تبدو بعيدة، جد بعيدة حتى لكأنها ليست حياتي، فألجأ إلى يدي. بعدها أغرق في نوم ثقيل تقطعه كوابيس مرعبة. رؤوس ملطخة بالحديد. كلاب تتأهب لالتهام مؤخرتي. جنود يجرجروني على المسامير وأنا عار كما أنجبتني أمي. حريق هائل هناك في بيتنا في أحراش القيروان.

أمي تبكي. تبكي. تبكي إلى أن تتحول دموعها إلى أنهار غاضبة ترمي بي في المهاوي السحيقة.

ثم رق لحالي أصدقاء طلبة من القيروان فسكنت معهم في بيت صغير كانوا قد اكتروه من حي "ابن خلدون"، حي يعج بالعاطلين والمتسولين والعاهرات والقوادين واللصوص والمجرمين ومروجي المخدرات، ولا يكاد يعرف الهدوء لا في الليل ولا في النهار. تمشي فتصفعك الروائح العطنة، والكلمات البذيئة، والشتائم المقذعة، وصرخات النساء تحت عصا الأزواج السكارى، وولولات العجائز المتخاصمات مع جاراتهن أو مع كناتهن. وفوق هذه اللوحة البشعة من البؤس والنذالة والسوقية والعهر والخشونة والعنف يتعالى ضجيج المسلسلات المصرية العاطفية الرديئة والأغاني السمجة وزعيق سيارات الشرطة وسيارات الإسعاف. ولا أعتقد أن هناك مفارقة بخصوص إطلاق اسم "ابن خلدون" على ذلك الحي لأنه برأيي تأكيد ساطع لذلك الوصف الدقيق الذي خص به صاحب "المقدمة" أحوال الأمم والشعوب في الفترات التي تعقب خراب الحضارات، وانهيار الأمجاد، وتفتت القيم. في البداية كنا أربعة. ثم صرنا ثمانية. ثم عشرة. ثم ظل عددنا يرتفع أسبوعا بعد أسبوع إلى أن كاد الهواء ينعدم من ذلك البيت الضيق المكون من حجرتين، ومن مطبخ قد لا يتسع لشخصين، ومرحاض عاطل طول الوقت تقريبا. بيننا مثقفون حبسوا لعام أو عامين أو أكثر بسبب انتمائهم إلى تنظيمات يسارية، طلبة فصلوا من الجامعة بسبب نشاطاتهم السياسية، آخرون يواصلون دراستهم غير أن السياسة تحتل المرتبة الأولى في اهتماماتهم.

الماركسية؟ حصننا المقدس. ديكتاتورية البروليتاريا؟ الحلّ الوحيد لجميع آلام البشرية. مثالنا الأعلى؟ الشيوعيون الألبان والصينيون. خصوصا ماوتسي تونغ الذي كنا نعتبره المعلم الأكبر، والخليفة الشرعي لكل من ماركس وأنجلس ولينين وستالين. نعم ستالين الذي كنا نسميه تحببا "الرفيق يوسف" ونعشق شاربه الكث وعينيه الضيقتين الخبيثتين ويده حين ترتفع لتحية الجماهير المحتشدة تحت الثلج في "الساحة الحمراء" يوم الاحتفال بذكرى ثورة أكتوبر المجيدة. أيّ نقد يوجّه له أو لأعماله أو لأقواله هو بالنسبة إلينا جريمة لا تغتفر، وخيانة فظيعة لأنصع المبادئ الماركسية-اللينينية. نعم كان ستالين على حق في كل ما قال وما فعل.

كان على حق حين كلف جواسيسه باغتيال تروتسكي. حين أعدم رفاقه في الحزب. حين أرسل إلى المشنقة وإلى سيبيريا بآلاف المثقفين والكتاب والشعراء. نعم كان على حق! إذ ما معنى أن يتغزل شاعر بحبيبته في زمن الاشتراكية ؟! وما معنى أن يخصص كاتب مجلدات ضخمة للحديث عن نفسه وعن هواجسه الذاتية وأمراضه النفسية بينما يسام العمال أبشع أنواع الاستغلال والقهر، وينفق الفلاحون جوعا، ويجمع الرأسماليون الجشعون مزيدا من الثروات وهم يراقصون الحسان في قصورهم الفخمة على أنغام السمفونيات الكلاسيكية.

ما معنى؟! نعم ستالين على صواب وعلى حكمة نادرة في كل ما قال وما فعل؛ ولولاه لما وجد الاتحاد السوفياتي أصلا. ولما انتصرت الثورة الاشتراكية في الصين وكوريا الشمالية وكوبا وأوروبا الشرقية. ولكان الأمبرياليون قد نهبوا كل خيرات الأرض، ولحكم هتلر العالم بأسره. كان ستالين على صواب حتى اللحظة الأخيرة من حياته. لم ينحرف عن المبادئ الماركسية - اللينينية قيد أنملة. غير أن الجماهير على دراية تامة بكل المؤامرات الدنيئة التي يحبكونها في كواليس "الكرملين" ويوما ما سيتساقطون مثل أوراق الخريف في العاصفة الهوجاء.

أما الوضع العام في البلاد فكانت وجهات نظرنا متطابقة بشأنه تمام التطابق. يكفي أن يسأل الواحد منا حول هذا الموضوع لكي يتنحنح ويقول إنه إذا ما نحن حللنا واقع البلاد في الفترة الراهنة انطلاقا من المعايير والمقاييس الماركسية-اللينينية الصحيحة، فإننا نستطيع أن نستنتج أن الثورة قادمة لا ريب فيها، وأن النظام يزداد

ضعفا وعزلة يوما بعد يوم. صحيح إنه يفعل كل ما في وسعه لكي يظهر أمام أسياده الامبرياليين والرأسماليين أنه لا يزال يمسك بزمام الأمور بيد من حديد، غير أن نظرة واحدة للأوضاع العامة في البلاد تدل بما لا يدع مجالا للشك أن الانفجار قريب، وأن نهاية هذا النظام وشيكة. يكفي أن نستعرض بعض الأحداث لكي نثبت صحة ما نقول. فقبل شهر مثلا شن عمال الفسفات إضرابا دام يومين كاملين مطالبين بزيادة في المنح الصحية. وخلال الأسبوع الماضي حوكم فلاحون لأنهم اعتدوا بالضرب على رئيس الشعبة هناك. وأمس فقط هدد عمال الشركة القومية للنقل بالقيام بإضراب إذا لم تلب مطالبهم.

وثمة ما يشير إلى أن رجال التعليم ربما يشنون هم أيضا إضرابا إذا ما فشلت المفاوضات بين نقابتهم والمسؤولين في وزارة التربية. أما الصراعات بين المقربين من بورقيبة حول مسألة خلافته فقد استفلحت حد أنها أصبحت حديث الشارع. وهكذا أنتم ترون أن كل الحقائق تشير إلى أن العد التنازلي لانهيار هذا النظام قد بدأ. لذا علينا أن نكون يقظين. كما علينا أن نوثق الصلة بالعمال والفلاحين وبكل الفئات المسحوقة حتى إذا ما دقت ساعة الثورة كنا في الصف الأول. تماما كما هو حال البلاشفة عام 1917...

على هذه الوتيرة تستمر النقاشات بيننا حتى ساعة متأخرة من الليل أحيانا يفاجئنا ضوء النهار ونحن نحلل نصا لماركس أو انجلس أو لينين. لم نكن نعبأ بالجوع أو بالصداع ولا بالحمى ولا بالهواء المثقل بروائح السجائر وجلودنا التي لم يلمسها الماء منذ عدة أسابيع والمرحاض العاطل طول الوقت. ولا بأي شيء آخر. كل شيء يهون من أجل الثورة الوشيكة الوقوع. وغدا سيجرف غضب الجماهير كل أولئك الذين كانوا سببا في جميع الآلام والعذابات التي نكابدها. وعندئذ سوف تعود لنا كرامتنا وحريتنا المفقودة. وسوف نحول البلاد إلى حديقة بألف زهرة وزهرة. نعم كل شيء يهون ذلك أن الثورة كما يقول الرفيق ماوتسي تونغ ليست "مأدبة احتفالية ولا توشية كتلك التي تزين بها الأبسطة، ولا بذلة بورجوازية باذخة. إنما هي فعل عنيف من خلاله تقوم طبقة بإسقاط طبقة أخرى". ثم أن ماركس لم يكن يحصل على قوت يومه وهو يكتب "رأس المال". وغالبا ما كان

لينين يبيت على الطوى في ليل المنافي الطويل. وكان جنود القيصر يجلدون ستالين وهو عار في برد سيبيريا فلا تخرج منه أنة واحدة. أما ماوتسي تونغ فقد قاد المسيرة الكبرى وهو محمول على نقالة...

عامان وأنا على هذا الحال. لم يبتسم لي الحظ مرّة واحدة ولو عشر ابتسامة. كل يوم أقطع مسافات طويلة دونما جدوى. حين تنتفخ رجلاي، أنهار على كرسي في حديقة عمومية، أو أذهب إلى مقهى "الزنوج". أطلب كالعادة كأس شاي وأظل هناك ساعات طويلة أنظر إلى الزبائن من حولي وهم يعبون البيرة، ويدخنون السجائر الفاخرة، ويتحدثون عن مباريات كرة القدم. عن غوغوش، المغنية الإيرانية المثيرة التي غنت على ركح مسرح قرطاج قبل أسبوع، عن الليالي الملاح على شواطئ حلق الوادي والمرسى والحمامات، عن مدير شركة فاجأته زوجته في فراش الزوجية مع غلام في الثامنة عشر من عمره. عن سائق تاكسي قتل زوجته التي تصغره بخمسة عشر عاما لأنها ابتسمت لابن الجار الوسيم. وأنا جالس. الجوع ينهشني. رأسي كأنه كتلة من حديد تضغط على كتفي. وأنا جالس. رجلاي تنملان. كأس الشاي فرغ منذ ما يزيد عن الساعة. الجرسون يروح ويجيء مصوبا نحوي نظرات حاقدة. وأنا جالس. شارع "باريس" يعج بالبنات الجميلات الطالعات للتو من "ليسي كارنو". وأنا جالس. مرة ابتسمت لواحدة منهن كانت مارّة أمام دار الثقافة "ابن رشيق" فهاجت وماجت، وصاحت بي أمام الملأ: "اذهب يعطيك بقله ما شفتيشي وجهك. تقول عليه جلد ناتن ملوح في الشمس مالعيد الكبير متاع العام اللي فات!". قهقه شبان كانوا واقفين بالقرب منا. حزنت أنا حتى تمنيت لو أنني سخت في الأرض في ذات اللحظة. دخلت تواليت دار الثقافة "ابن رشيق". تأملت وجهي في المرآة الوسخة. كان بالفعل شبيها بجلد نتن مرمي في الشمس منذ شهور طويلة!

أمشي. المدينة من حولي تتغير، والناس يتبدّلون. مقاه وفنادق جديدة. حدائق تمسح بالكامل لكي تقام محلها أحياء سكنية لاستقبال الأثرياء الجدد أو الوافدين من الأرياف النائية هربا من جوائح الفقر والجفاف. فيلات فاخرة تنبت كالفطر قرب حديقة "البلفيدير"، وعلى الشواطئ الشمالية...

أمشي. والدنيا لم تعد تضحك إلا "للقافزين" والقافزون هم الذين ضربوا بعرض الحائط المثل الذي يقول "ألف خطوة ولا تنقيزة"، فهم أهل هذا العصر، عصر السرعة الفائقة، والتنافس القاتل، والتدافع بالمناكب حتى الإغماء. عصر الجري واللهاث والذبحات القلبية. عصر يموت المتباطئون فيه رفسا تحت الأقدام. هم الذين يعلقون التمائم، ويد فاطمة، والحرابي الميتة، ويستشيرون السحرة والمشعوذين، ويزورون أضرحة الأولياء الصالحين بانتظام، خوفا من العين الشريرة، ومن حسد الحساد، ومن طمع الطامعين وكيد الأعداء.

هم الذين يحجون ست مرات في السنة الواحدة لأن ثمن الذهب والآلات الإلكترونية رخيص جدا في أسواق مكة المكرمة. هم الذين أضافوا صلوات أخرى للصلوات الخمس حتى ترتفع أرصدتهم البنكية. هم الذين يبولون في سراويلهم من الذعر حين تتحدث أمامهم عن المجاعات التي تجتاح إفريقيا وآسيا. هم الذين يتفرجون على أفلام "البورنو" في ليالي شهر رمضان المعظم حتى لا يرتكبوا خلال الصوم معصية النظر إلى النساء المحصنات. هم الذين ينهبون خيرات البلاد في وضح النهار. هم الذين يصرخون عاليا: "اعفس عليه حتى يتفلّق"، "اقطع عليه النفس". ضد كل من يرغب في منافستهم أو تحديهم، أو يحاول معرفة سر ثرائهم السريع. هم الذين يجبرون صغارهم على أكل قطعة من كبد الذئب حتى يكونوا ذئابا في المستقبل. هم الذين ينتزعون أسنان الكلب وهو ينبح أو يخطفون منك باليد اليمنى ما يعطونه باليد اليسرى. والعكس بالعكس. هم الذين عند الشدة يقولون: "أخطا راسي واضرب!". وأنا أمشي.

أرى خالدا طالعا من مكتبة "العيون الصافية" مصحوبا بذلك الفتى الشاحب الطويل الذي رأيته معه أول مرة، فأفر منه مثلما يفرّ الفأر من القط. أعرف أني إن أنا جلست إليه، فسوف يحدثني عن الشعر والشعراء. وهذا أمر لم تعد لي طاقة لاحتماله، ذلك أني بتّ على قناعة تامة بأن العنف الثوري هو وحده الذي يصنع التاريخ، وليس القصائد العصماء. إن كل ما أبدعه الشعراء والكتاب منذ هوميروس حتى جيمس جويس، منذ امرؤ القيس حتى ألبير كامو، هو الآن في نظري لا يساوي

شيئا أمام عامل ملطّخ بغبار المناجم، أو فلاح غاطس في الطين حتى الركبتين. وذلك الرفيق كان على حق حين قال بالأمس ونحن نناقش المسألة الثقافية في البلاد بأن أفضل مكان للأدب البورجوازي هو النار أو الزبالة. ثم إني سمعت أن خالدا على أهبة الزواج! فليذهب إلى الجحيم هو وجميع الشعراء الذين يعشقهم!.

أمشي. أقطع المدينة العتيقة تحت رذاذ بارد. الوحشة القاتمة التي تلف المدينة في ذلك الصباح الديسمبري تبدو كما لو أن مصدرها الوحيد هو نفسي. نفسي المطحونة المعذبة المتعبة المطعونة بألف طعنة. حين أصل إلى "باب فرنسا" يعترضني رفيق:

- هل سمعت ؟
- ماذا ؟
- اتحاد النقابات يهدّد الحكومة بإضراب عام !
- حقا ؟!
- خذ ها جريدة "الشعب". اقرأ.

انزويت في مقهى "الزنوج" وقرأت الجريدة من أولها إلى آخرها. اندهشت للهجة الحادة التي كتبت بها المقالات حتى أنه بدا لي كما لو أنني أقرأ واحدة من تلك المطبوعات السرية التي تروجها المنظمات الماركسية-اللينينية المتطرفة. ثم تهت من جديد في الشوارع تحت الرذاذ القذر البارد، والأسئلة تغلي في رأسي غليان الماء على نار حامية.

بعدها ركضت إلى ساحة "محمد علي الحامي" حيث مقر الاتحاد لألقي بنفسي وسط بحر هائج من العمال والعاملات. هتافات. زغاريد. الهواء معطر بعرق الغضب والتحدي. من العيون يسطع العزم وعلى الوجوه يفيض نفس ذلك البشر الذي كنت ألمحه وأنا صبي على ملامح فلاحي قريتي عندما يهطل المطر في بدايات الخريف. وتلك الأخوة التي طالما تلمستها وأنا أتصفح سجل تاريخ الثورات تمد أغصانها في السماء، خضراء يانعة مثل شجرة سحرية، مؤلفة بين القلوب، مشعة المحبة والوفاء والتضامن، جارفة الشك والتردد والخوف.

ثلاثة أسابيع والوضع على هذا الحال. في الليل كما في النهار. ولما رفع العمال زعيم الاتحاد على الأكتاف بعد إقرار الإضراب العام، قال لي صديق ونحن نأكل

سندويتشا خفيفا في المدينة العتيقة: "اسمع... غدا سيسيل الدم في ساحة محمد علي الحامي وربما في أماكن أخرى. ليس فقط لأن الاتحاد أقر الإضراب العام، وهو أكبر تحد يواجهه النظام منذ الاستقلال، وإنما لأن بورقيبة لا يتحمل أن يرى واحدا آخر غيره يحمل على الأكتاف!". صبيحة اليوم التالي، الخميس الوافق لـ 28 جانفي 1978، سال الدم غزيرا، وتساقط الضحايا بالمئات في العاصمة وفي العديد من المدن الأخرى. عند الظهر، أعلن عن حالة الطوارئ في البلاد، وصدر قرار بمنع التجول ابتداء من الساعة السادسة مساء وحتى الخامسة صباحا. قبل أن يطلع فجر يوم الجمعة، كان آلاف النقابيين في الزنازين.

عقب شهرين، رفع قرار منع التجوّل وعدت أنا أمشي. أحيانا دون أن أشعر أجد نفسي خارج المدينة، وسط الحقول، أو أمام البحر، أو بين القبور. من الصباح وحتى هبوط الليل وأنا أمشي، والمدينة تواصل حياتها غير عابئة بي...

**بوه الله يرحمو كان بخزره وحده يطيح عشرة رجال... أما الولد طلع كوّل صباطه. النار تخلف الرماد. يا لطفي برحمة أمك سيبني خلّيني نفتفتو نريشو تريش نشرب من دمو. برد يا عطشان برد. وسع يا ولدي وسع وانت سادد الثنية كاينك حجرة بلا. أم السيسي طايره واللديب يهق. الحجاج بن يوسف، خلّدنا اسمه التاريخ بكونه إنسان قوي وصعيب، قبيح، قتال أرواح، خليقه مشومة، ما يرحمش حتى خوه اللّي رضع معاه الحليب من فرد بزوله. لكن أمير المؤمنين (عبد الملك بن مروان) كان يحبو. علاش يحبو؟ على خاطر كان خادم أمين ونصوح، ولذا كان ثمة تهريج في بلاد يبعثو هو يريضها، يقص طرف روس وما عاد حد يتكلم كلمة، كان البلاد اللّي يحب يتهنى من جهتها يبعثو هو ليها. جاني لجنينه يا للغنج يا مدبل عينه ديني علي دينه عض الشفه مع البزول جاني لسطحها حلّينا المطلع وطلعنا سكارى تحولنا خلاني عقلي مخبول. يا طحان يا موسخ يا عافن يا فرخ الحرام يافار بو سباطه يا سطل مقعور يا خنفوس الزبل يا قواد يا هامل ولد الهامل يا اللي عرضك ناتن في كل بقعة اسكت يا جحش، يا رخيص يا وجه الكلب يا اللي ما تحشمش. هاكه علموك تتكلم قدّام أسيادك طول النهار وأنت ما تخرج كان الخراء من فمك تفوه عليك ميت وحي يا دجّال يا ساقط يا اللّي بوك كان يلحس رجلين الفرنسيس واليهود. أمك**

صنّلفة اختارتلكم اليوم دجـاج باللوز والبعـل. تأخذ كيلو ونصف دجاج. 5 سنتيلتر زيت زيتونة. مغـرفة زعفران كبيرة. شـوي زنجبيل. 300 غرام بصل مقصوص قطايع قطايع. 80 غرام زبدة. نصف مغرفة قرفـة. زوز مغارف صغار عـل. 4 ديسنتلر مرقة دجاج. 200 غرام لوز منقي. شوي معدنوس. وتاكلو بالشفا والهنا.

أم السيـــي طايرا والذيب يهق. مادام سيدنا صـحيح مـادام البلاد لا باس ونحنا لا باس والدنيـا الكل لاباس... هيوا هيوا لـبنات ما تلومو علي حـرقت قلبي جنات بالفانطازية. عـاد أبي للدار من عمل النهار. قـبلته من خده، مـسكته من يده، وقلت ابتاه أعانك الاله. يا سمير شوف آك الـشخطورة اللي واقفة قدام حانوت عمك سالم. شوف كـيفاش تغمز وتتـزعبن وترهز وكان يخلوني معاها حتى سـويعة واحدة وبعدها يعـملوا في اللّي يحبوا. يهزوني للحـبس والاّ يشنقوني ما يهمنـيش. ورحمة بابا مـا يهمني. اللطف اللطف آش يخلـق الرحمان وآش يصـورا أم السيـي طايره والذيب يهق...

أمرق من المدينة العتيقة فيعترضني صديق وعلى وجهه عاصفة من القلق والحزن:

- مالك ؟
- ألم تسمع ؟
- ماذا حدث ؟
- مات صديقنا مختار !
- مات !؟
- نعم... مات
- متى؟
- البارحة. الساعة الواحدة صباحا وسيدفن غدا في قريته.

أواصل المشي والذكـريات تتزاحم في رأسي. أول مـرة سمعت فـيهـا اسم مخـتار كانت خلال صيف 68. وقتها كنت مـدمنا على الاستماع إلى برنامج "هواة الأدب" الذي يذاع أيام الجمـعة والـسبت والأحد. وعبـر هذا البرنامج الذي كـان يخفف عني وطأة ضجر الصيف الحارق الطويل، تعرفت على العديد من الذين أصبحوا أصدقاء لي لما دخلت الجامـعة مطلع السبعـينات. وكان مختـار أحد هؤلاء. شاب أسمـر وسيم من

واحة "الزارات" القريبة من قابس. نحيل الجسد والصوت. له ذلك الحياء البدوي المحبّب إلى النفس، وذلك الإقبال النهم على ملذات الحياة الذي يتميز به أهل الجنوب.

التقيت به أول مرة في بار "الكون". كان محاطا ببعض أصدقائه، وكان يشرب ويدخن بدون انقطاع. بين الحين والحين يقرأ علينا مقاطع من مقاصد يحفظها عن ظهر قلب. سهرنا حتى الفجر. بعدها صرنا نلتقي في نفس البار في مقهى "باريس". ثم فرقتنا الأيام ولم نلتق إلا بعد أن فصلت من التعليم ببضعة أشهر. أذكر أنه دعاني إلى مطعم شعبي في شارع "القاهرة" كنا نرتاده أيام كنا طلابا. أعلمني أنه يدرس اللغة العربية في بلدة صغيرة. عندما سألته عن مشاريعه الشعرية قال لي: "اسمع يا صديقي منذ فترة طويلة لم أكتب بيتا واحدا من الشعر. كل وقتي مخصص لدراسة التراث الشعبي. وخلال الأشهر الماضية التهمت كل ما يقع بين يدي في هذا المجال. أقوم أيضا بجمع أغاني من مختلف المناطق، خصوصا من الجنوب. وأنا على يقين أن العمل الذي أقوم به الآن سوف يفتح أمامي آفاقا عريضة، ويمنحني الوسائل والمواد التي تخول لي أن أكون شاعرا مجددا وحقيقيا. ولعل السبب الأساسي الذي حرضني على هذا العمل هو أني اكتشفت أن جل شعرائنا يجهلون تراثنا الشعبي جهلا مريعا ومخجلا، بل ويستنكفون منه استنكافهم من أي شيء وضيع تافه. لذا فإن أغلب القصائد التي يكتبونها تأتي باهتة، مسطحة، خالية من أي نكهة أو تميز، إن الشاعر الذي لا يكون منغرسا في تراث بلاده لا يمكن أن يكون شاعرا أصيلا".

عند خروجنا من المطعم، دس في جيبي عشرة دنانير وهو يقول: "خذ هذا المبلغ البسيط بودي لو أعطيتك أكثر، لكن أنت تعلم جيدا يا صديقي العزيز أن الراتب الحقير الذي آخذ ينتهي دائما في الأسبوع الأول من الشهر!".

قبل اندلاع المواجهة بين النظام واتحاد النقابات وجدته جالسا لوحده في مقهى شعبي بـ "باب الجديد". كان متعبا شاحبا بطيء الحركة منطفئ الصوت. قال لي إنه كان عند الطبيب وإن آلاما يجهل أسبابها تمزق جسده منذ أسابيع وتمنعه عن النوم والأكل. بعد ذلك بوقت قصير علمت أنه مصاب بسرطان في المعدة، وأن أيامه أصبحت معدودة.

أمشي. والمدينة من حولي تواصل عبثها وصخبها وثرثرتها وفضائحها وألعابها ومجونها وقسوتها علي وسخريتها مني.

أم السيسي طايره والذيب يهق. الدنيا متاع ها الزمان للقافزين وللّي عندهم اكتاف عريضة. أمّا اللي كيفي وكيفك يمشي يدفن روحو وعينو حيا. ايه. الله يرحمو عمك الصادق اللي مات توا عندو جمعتين بالضبط. كان ديما يقل لي: اسمع يا وليدي، عظم الشقا ما يرتاح كان في الجبانة. فلما وصلت الي حجاب الفردانية نظرت إلى الوحدانية فإذا بسبعين ألف صف من الملائكة قياما على أرجلهم وإذا النداء من قبل الله تعالى: ارفعوا الحجب التي بيني وبين حبيبي محمد. فرفعت حجب لا يعلمها إلا الله تعالى، فرأيت مائة ألف صف من الملائكة قياما يركعون، ومائة ألف صف من الملائكة ركعا لا يسجدون، ومائة ألف صف سجودا لا يجلسون ولا يرفعون رؤوسهم إلى يوم القيامة. اسمع. أنت لا... لا. لاخر اللي بالسروال لكحل. ايجاهوني وانت حال فمك كي الورل. آش تعمل غاديكا؟ تستنى في واحد؟ الله يخليك وحدك ليل ونهار. واش كونوها الواحد؟ قريبك؟ الله يقربك من جهنم. ما تعرفش اللي الوقوف غاديكا ممنوع؟ ما تعرفش؟ أيّا امشي وايجا والا توا نبيتك في قلبو الليلة. أيا تحرك وأنت تبحلق في كايني عزرايين قدامك. خيار المحبة في الحوش بابه منقوش.

الخد أحمر للوش والشفه طريّة. يا خويتي. راني ما عادش نشوفو ما عادش نحب نسمع صوته والا نشم ريحتو. البارح دخل سكران ميت بعد نصف الليل. حسبت روحي راقده من عهد سيدنا نوح. بدا يعيط ويصيح ويسب ويهرس ويمرس ويدور ويغور وينفخ تقولش عليه هاك الغول متاع الخرافة. قاموا الصغيرات وبداو يبكيو وهو لا حشم لا جعر وما رقد إلا ما قيم الحومة بكبارها وصغارها.

لا... لا... خويتي. يزيني ما تحملت منو. الراجل فسد وما عادش فيه ما يصلّح. أم السيسي طاير والذيب يهق. داوية يا البنت داوية شكروك قالوا طبيبه حلي حزامك ودسيه والموت راهي قريبة.

منذ القرن الثالث عشر و"سوق العطارين" على ماهو عليه من حركة دائبة و"العطارون يبيعون منتوجهم في قوارير طويلة الأعناق إلى حرفاء عديدين

ودكاكـينهم آخر ما يغلق بـالأسواق كل مسـاء" هكذا شهد الرحـالة ادورن في القرن الرابع عشر الميـلادي ولا عجب من ذلك فالتونسـيون شأنهم سائر الشرقـيين مولعون بالطيب يعطرون الثياب والشعر واللحية وحتى القهوة وماء الشراب وبعض الأطعمة. ويمتزج بالسـوق أريج العطور برائحة الحنّة تنتشـر من الأكياس المتـراصة التي تعلوها صناديق البخـور والكحل والسواك وغـيرها من المساحـيق ومواد التجـميل، هذا يزيد البشرة نعومة وذاك يزيد الشعر سوادا ولمعـانا. أما الشموع والسـلال الزاهية الألوان فهي تغدق على السـوق جو الأفـراح فكأنه يشارك الناس أعـراسهم الصاخـبة وطقـوسهم الدينية المرحة. أم السيـسي طاير والذيب يهق. ذيل الكلب خلوه في القصبة ميات علم وطلع معوج. ياولدي قلت لك ماك العام اللي الترجي هي الكل. أما ليكيبات لحربن لوح في الزبلة من غيرندم. والسنا هاي لحيتي إيذا مات تا خونفش الكوب والشمبيون مع بعضهم. واللي ما يعجـبوش يمشي يطير قرنو والا يستناني في الدورة. أنا هاني خلصت حقي بيـدي وأنت روح زمر والاّ برا عيط للبوليس هاواكـا واقف غاديكا قدام الحانوت. القارعة ما القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوت وتكون الجبال كالعـهن المنفوش فأما من ثقلت مـوازينه فهو في عيـشة راضية، وأمـا من خفت موازينه فـأمه هاوية وما أدراك مـا هية نار حامـية. العشق مـا أحر ناره سكن في الحشا عـاد ماكن في الجاش شـعلت حراره وصبغ صبـغان داكن. اللطف ها الناس اليوم يحبوا ياكلوا الدنيا ويتسـحروا بالآخرة. اللهم أنا نسألك بحقك العظيم وبحق اسـمك الكريم أن لا ترينا وجـه مالك خـازن النار بقـدرتك وحولك ياذا الجـلال والإكـرام. عينك وحـواجـبك سود قلبـك قليل الدباره ها الزين واش تعلمى بيـه ماشي لقبـرك خساره. أم السيـسي طاير والذيب يهق. قال لك خـوذ بنات الأصول ما تعرف على الدهر كيفاش يدور. زوزو قهـاوي وواحد تاي. واحد كوكا وزوزو ويتيام وصحنين حوت وسكر هاك البـاب راي ريحة التواليت قتلتنا. نهارتهـا الحال صيف. قايله تشق راس العـصفور وشـهيلي يرفرق وأنا وحـدي في الدار وما ثمة واحـد كان ربي. دوشت وقـعدت في الصـالة نقلب في الجـرايد. أنا هكاكة والبـاب دق. حليت نالقـاها هي. قـالت أمك هوني. كـذبت عليـهـا وقلت لهـا هوني أيا دخلت. كـيف مالقـاتش أمي. كذبت عليـها مرة أخـرى وقلت لها في دار الجـيران. دقيـقتين وتجي.

قعدت جبت لها كاس كوكا. يا خوي مـا صبرتش». نهارتها كيف ما قلت لك الدنيا سخونة تشق الحجر وهي لابسة روبة خفيفة باين منها كل شيء».

قعدت ندور بيها ندورِ بيها حتى لين ذابت بين يدي. قال النبي [ قلت. يا أخي جبريل من هذا الذي اقشعر منه جلدي وارتعد منه فؤادي؟ فقـال: يا حبيب الله هذا مالك خازن النار، خلقه الله من غضـبه وسخطه، ولم يزل منذ خلقه الله وولاّه جهنم لا يزداد إلا غـضبـا على أعـدائه، هذا وملك الموت عـزرائيل لا يضـحكان أبدا، أدن وسلم عليه، فدنوت وسلمت عليه فلم يرد عليّ السلام. جع جع جعجوعا دب الفار ميمـونة، ميمونـة حبيبتـنا سرّاقة خمـيرتنا هزتها وِاداتها أدتهـا لوليداتها نهارِ الـعيد كلاتها وعـملت بها حساتهـا. ثم ينادون فيها يا حنّان يا منّان ألف عـام يا قيّوم ألف عام ويا أرحم الراحمين ألف عام فإذا أنفذ الله تعالى فيهم حكمه وقضاءه أمر جبريل عليه السلام فيقـول يا جبريل ما فعل العاصون من أمة محمد فـيقول جبريل إلهي أنت أعلم بحالهم مني فيـقول انطلق وانظر ما حولهم فينطلق جـبريل إلى مالك وهو على منبـر من نار وسط جهنّم فإذا نـظر مالك إلى جبـريل عليه السلام قام تعظيما له فيقول يا جبريل ما أدخلك هذا الموضع فيقول ما فعلت بالعصاة من أمة محمـد[ فيـقول مـالك ما أسوأ حـالهم وأضيق مكانهم قـد أحرقت النار أجـسادهم وأكلت النار لحومهم وبقيت وجوههم وقلوبهم يتلألأ فـيها نور الإيمان فيقول جبريل عليه السلام ارفع الحجاب حتى أنظر إليهم فيأمر ملك الخزنة فيرفع الحجاب عنهم فـإذا نظروا إلى جبـريل عليـه السلام ورأوه من أحـسن الخلق علمـوا أنه ليس من ملائكة العذاب فيقولون من هذا العبد الذي لا يأتي أحد قط أحسن منه فيقول مالك هذا جبريل عليـه السلام كان يأتي محمـد بالوحي فإذا سمعوا ذكرِ مـحمد (صلعم) صاحوا بأجـمعهم يبكون ويقـولون يا جبريل اقرئ مـحمد منا السلام وأخـبره بسوء حالنا فقد نسينا وتركنا في النار.

يا للاّ يا زماني أشطح بين أحضاني باكمامك نوّم الزانّي واعمل لي فارطه. لا ل لا ل لا الاّ ر لا ل لا الاّ رلا ل لا الاّ رلا ل لا...

أمشي... أمشي في سبت مواعيد العشق والسهرات الحمراء وحفلات الرقص الصاخبة في "زيرو كوندويت" و "الكريزي هورس".

في أحد المباريات الرياضية والنزهات المرحة في حديقة "البلفيدير" والعائلات السعيدة المتحلقة حول الموائد الفاخرة. في اثنين الضجر والتثاؤب والملفات المكدسة على المكاتب والتلاميذ الناعسين أمام الدرس الديني بسبب سهرات نهاية الأسبوع. في ثلاثاء برنامج "أغنية لكل مستمع" ومسلسل "سلوى في مهب الريح" والذي، مكتوبا، يبدو شائكا مثل صبار الجنوب. في الأربعاء المتربعة وسط الأسبوع مثل امرأة سمينة تتثاءب ضجرا في انتظار زوجها الذي يأتي سكرانا بعد منتصف الليل. في الخميس الأشيب الحزين مثل رجل في الخمسين، متحسر على الشباب الذي ضاع، وخائف من الشيخوخة الهاجمة بسرعة الريح. في جمعة الغبار واللحي الشعثاء / جمعة المكائد والجنائز/ جمعة الأباطيل/جمعة الجموع الذاهلة الشاحبة المقهورة المسلّمة رقابها للجلادين/جمعة البلاغة الصفراء والأيمة العور/جمعة الأرض العاقر المجمعة/جمعة اللعب على الحبال واللف والدوران/جمعة التهديد والوعيد/جمعة بيع الذمم بالجملة/جمعة الزيف والبهتان والخداع والأكاذيب المشحوذة جيدا مثل سكاكين القتلة/جمعة الجموع الحالمة بالجنة على أرصفة الدنيا الفانية/جمعة الوشايات والمؤامرات والطعن في الظهور/جمعة جهنم الحمراء/جمعة الهذر والمذر وأكداس الكلام النتن الرخيص.

أمشي... في ساحة صغيرة في قلب "باب سويقة" حلقة من الرجال والأطفال، يضحكون ويهرجون. أقترب فأرى وسط الحلقة رجلا أغبر، مرتديا معطفا أسود رثا، محركا يديه في الهواء بعصبية، ناطقا بكلام غريب:

**الأمم راهي كيف هاك الصبابط اللي تشوفهم مكدسين قدّام الجوامع. والكلام الباهي. الكلام المضبوط بالميزان اللي يدوخ هارون الرشيد وما أدراك ما يطلع كان من فم هاك الراجل لعور اللّي راقد تحت الحيط وساقيه حافيانه.**

**أما الأمريكان والروس عمرهم ما يتحاربو راهم وعمرهم ما يولّيو أصحاب. تعرفوش علاش؟ أخاطر ثمة خط أحمر، والخط لحمر هلايا ما يراه حتى حد كان آنا. وأنتم ردوا بالكم من هاك الشجرة بنت الحرام اللي قدام البنك راهي نهار من نهارات ماش تطيح عليكم وتقتل منكم ميا والاّ ميتين. وأنا هاني نبهت عليكم**

**بلشي ملش تجيوش غدوا تتبكاولي وتتشكاولي. هاني نبّهت عليكم ولي ما سمعش والاّ ما يحبش يفهم يمشي يزمر، مطلوب فيه آنا؟ لا آنا مشني مطلوب فيه. آنا ماني مسؤول إلا على نفسي وإلاّ على صديقي أبو نواس الله يرحمو وينعمو. فهمتو والاّ نزيدكم. يعطيكم عما وصما يا همال يا ضائعين...**

أنا أعرف هذا الرجل. أعرفه جيدا. لكن من يكون؟ من يكون؟ آ... إنه ذلك الشاعر الراذع الذي قال قبل أن يطبق عليه ليل الجنون:

| | |
|---|---|
| كان في قلبي كون طافح | من كنوز الفن من سحر الخطاب |
| كان دنيا الشعر فاضت بالمنى | بالأغاني والمسرات العذاب |
| لو تراني عندما كنت فتى | صادق الغيمة مفتر السحاب |
| لقرأت الحب في سفر الهوى | وترشفت من السحر المذاب |
| فاحذرن يوما به تذكرني | وتلاقي ما ألاقي من عذاب |

أبتعد مرعوبا كما لو أني أطللت على ظلام قبري. أواصل المشي تحت شمس أكتوبر الشاحبة، وصوت الشاعر المثخون بمتاعب الجنون يملأ الفضاء من حولي.

قد يكون العشق الأول للكلمات ولرنينها السحري، وموسيقاها الشجية الأسرة ألهب قلب الصبي وهو في الخامسة أو السادسة من عمره، يلعب في واحات الجريد. طول النهار، وفي الليل يجلس تحت سماء مرصعة بالنجوم، ليستمع إلى والده، رجل الدين التقي الورع، وهو يرتل القرآن، أو البردة. ولم يكن عشق الكلمات هذا بالأمر الغريب عن الصبي الصغير ذي الشفتين الغليظتين العصور. بل يمكن القول إن الشعر متأصل فيهم تأصل النخلة في صحرائهم. وكان الصبي دون العاشرة من عمره لما توفي والده تاركا عائلة ضخمة وموارد قليلة لا تكاد تفي بالضروريات. وقتها كانت الحرب العالمية الثانية التي اندلعت قبل عامين تحرق الأخضر واليابس، مشيعة الخراب والفواجع في كل مكان. وكانت دبابات الجنرال رومل تملأ الصحراء الإفريقية الكبرى بهديرها ودويها. ولأن المصاعب كانت قد اشتدت على العائلة حتى أنها باتت على حافة الجوع، فإن الصبي انقطع عن التردد على الكتاب حيث كان يحفظ القرآن، ورحل صحبة خاله ليعمل في أفران الخبز في العديد من قرى الوسط والشمال.

وهو يعجن الخبز، تعلم الفتى كيف يعجن الكلمات، ويروّضها، كيف يشكلها كما يبتغي، ويحلو له. ومثلما حذق صهر الخبز في نار الفرن، حذق أيضا صهر الكلمات بلهب روحه اليافعة التوّاقة إلى الحب والحرية والعدالة.

في الفرن الذي لم يكن له مأوى سواه، يقرأ الفتى الشعراء الجاهليين، والمتنبّي، وأبا العتاهية، وأبا نواس، وعمر ابن أبي ربيعة، وجميل بثينة، ويحفظ العديد من قصائد هؤلاء وغيرهم من ظهر قلب. وبعد أن يقرأ أبا القاسم الشابي، ابن منطقته، ينفتح أمامه، أفق الشعر بنفس اتساع الأفق في الصحراء التي شهدت مولوده، فيشرع في الكتابة بشكل محموم، وكأنه يريد أن يثأر لذلك الشاعر الذي خانه القلب فرحل عن العالم وهو دون الخامسة والعشرين من عمره.

عقب أزمة مالية خانقة أدّت به إلى الإفلاس التام، يترك الخال قرية "حاجب العيون"، قرب القيروان، وينطلق صحبة ابن أخته إلى بلدة مكثر بالشمال سيرا على الأقدام. وها الفتى خباز من جديد. ثم لا يلبث الحظ أن يبتسم له، فيفتح دكانا للفطائر سرعان ما يدر عليه ربحا وفيرا.

غير أن مشاغله الكثيرة لم تمنعه من مواصلة الدرس والمطالعة والاستماع إلى المحاورات الأدبية والسياسية التي كان خاله الفطن، المثقف قليلا يخوضها مع أعيان البلدة.

في عام 1949، يزور أحد الزعماء الوطنيين بلدة مكثر، فيلقي الفتى بين يديه قصيدة وطنية قصيرة تحمل عنوان: "ابتسم يا شعب". يصفق الجمهور الغفير له معجبا ومشجعا، أما الزعيم الوطني فيهنئه قائلا: "أنت شاعر حقيقي!". ثم ينصحه بالالتحاق بالجامعة الزيتونية. يأخذ الفتى بالنصيحة ويسافر إلى العاصمة. يظل يطرق الأبواب إلى أن تسوقه الأقدار إلى "مطبعة العرب" حيث يتعرف على صاحبها، الذي كان آنذاك واحدا من أبرز الوجوه الثقافية في العاصمة.

عقب ساعة من الحوار، يعجب صاحب المطبعة، الرجل الوقور، الكريم النفس، الشغوف دائما باكتشاف المواهب الناشئة، بذكاء الفتى الفصيح المتوثب، فيجهزه بوصلات اشتراك في جريدة "تونس" التي يشرف على رئاسة تحريرها، ويعطيه نفقات السفر ثم يطلب منه أن يتوجه إلى منطقة الشمال الغربي من البلاد. يمضي

الفتى هناك شهرا ونصف الشهر، متجولا بين القرى والمداشر، متّصلا بالمشتركين، مستخلصا ما بذمتهم، متعرفا على أحوال البلاد والعباد، كل نهاية أسبوع يبعث بمراسلة تنشر على ظهر الجريدة. المراسلات الثلاث الأولى نشرت مهذبة ومحورة. لكن الرسالة الرابعة نشرت كما خطّها قلمه.

عند عودته إلى العاصمة، يلتحق بالجامعة الزيتونية. ولكن الشاب ذا العشرين عاما الذي تمرس بالحياة وهو لا يزال رخص العود، وعشق الكلمات مصهورة بنيران الأفران، معطرة بروائح الخبز، حلوة المذاق كالفطائر المدهونة بالعسل، لم يتحمل الكلام الأصفر الذي يلوكه شيوخ يبدون كما لو أنهم أشباح قاتمة طالعة من ماض سحيق، فيغادر بعد بضعة أسابيع دون أي ندم أو حسرة.

يعين متجولا لجريدة "الأسبوع" فيجوب البلاد طولا وعرضا حاملا معه في كل رحلة كتابا أدبيا أو ديوان شعر. حين تحيد الجريدة عن اتجاهها السياسي الذي رسمته لنفسها في بداية صدورها، ينهي الشاب عمله بها، وينطلق إلى بلدة البقالطة على الساحل الشرقي للبلاد، ليفتح من جديد دكانا لبيع الفطائر. وها هو محاط بحرفاء يشتهون فطائره اللذيذة. ويبتهجون به عندما تفاجئهم الصحافة اليومية والأسبوعية بنشر قصائده "فتراهم لا يصدقون أنهم يقرأون في المساء أدب من اشتروا منه الفطائر في الصباح".

أواسط الخمسينات. أعداد وفيرة من المناضلين الوطنيين يقبعون في السجون والمعتقلات. المظاهرات الصاخبة تهز البلاد من شمالها إلى أقصى جنوبها. المقاومة المسلحة مستمرّة على أشدّها في الجبال والأحراش. وشاعرنا الشاب الذي أصبح مشهورا، يلهب الجماهير بقصائده الحماسية: "أنت إنسان لدى الناس رسول الكلمات/فتكلم وتألم ولتمت في الكلمات/وإذا عشت فيهم فلتكن في الكلمات/شاهد أنت عليهم وعليك الكلمات".

حين يصدر ديوانه "فجر الحياة" تحجزه السلطة الاستعمارية، ويحجر بيعه وترويجه. ثم تحصل تونس على استقلالها التام.

خلال السنوات الأولى من الاستقلال، يبدو الشاعر الشاب كما لو أنه كوفئ على وطنيته وصموده. فهو يشرف على تحرير الصفحة الثقافية لجريدة "العمل" الناطقة

باسم السلطة الجديدة ويكلّف بإدارة جهاز الرقابة التابع للإذاعة الوطنية. في الآن نفسه، يصدر العديد من الدواوين الشعرية التي تخوّل له أن يصبح الشاعر الأول في الدولة الفتيّة. لكن فجأة، وقبل أن ينجلي غبار الاحتفالات بالاستقلال، تتغير الأحوال، فإذا بالخيبة تطل بوجهها الكالح البشع، وإذا بالآمال والأحلام تنضب في قلب الشاعر تماما مثلما تنضب عيون الماء أزمنة القحط، هناك في واحات الجنوب.

في البداية يعتقد الشاعر أن كل ذلك أمر عادي في أوقات التحوّلات الكبرى، وأنه لا يعدو أن يكون سحابة صيف عابرة، غير أن الأيام سرعان ما تطوح بعيدا بإحساسه ذاك، فإذا به منقبض النفس، مكبلا باليأس والإحباط، وحيدا مثل قشة في العاصفة الهوجاء. ما الذي حدث يا ترى؟

من خلال حياته المرة القاسية، تعلم الشاعر الشاب أن الحب الصادق لا يمكنه بالمرة أن يحتم عليه الانحناء أو التفاؤل. غير أن السلطة الجديدة التي ناصر رجالاتها أيام العسر والشدة، بدأت تلمح له، بل تطلب منه جهارا أن ينخرط في جيش المداحين، شأنه في ذلك شأن أولئك الذين طلعوا من حجورهم بغتة، ليصبحوا في رمشة عين، أبناءها المدللين. ثم لم يلبث الوطن أن غيب تماما تحت ركام من الشعارات الجوفاء. فذبلت زهرة الاستقلال، وانغرست شوكة الانكسار المريع في قلب الشاعر لتفتح جرحا عميقا سوف لن يندمل بعد ذلك أبدا. وهاهو يصرخ الآن ملتاعا بعد انهيار شعار الاستقلال الأول: "شيئان في بلدي/قد خيبا أملي/الصدق في القول والـ/إخلاص في العمل". وعلى عادة الشعراء الأصيلين في أوقات التقلّبات والحيرة الكبرى، ينكفئ الشاعر على نفسه ولا سلوى له الآن غير الشراب والغناء: "تعالي نغنّي/على كل لحن/وغصن/ونرقص بين السنا والظلال/ كتلك الفراشات بين التلال/كأحلامنا الغر عبر الخيال/كطيف التمني/بقلبي وذهني وعيني".

ويظل الشاعر ممعنا في الشراب والغناء باحثا في أجساد المومسات عمّا يمكن أن يخفّف عنه وطأة الألم الذي اجتاح روحه عنيفا قاتلا. أحيانا تستيقظ المدينة، فيراه الناس مرميا في الشارع مثل أي مشرّد. أثناء جلسات المستمرة ليلا نهارا، ينطلق لسانه منتقدا السلطة الجديدة ورموزها، مشنّعا بها، ساخرا من جيش الشعراء

المدّاحين الذين يبنون الفيلات الفخمة على الشواطئ بجوائز العكاظيات الشعرية. فتكثر العيون والآذان من حوله...

وبعد بضعة أسابيع يأتي حانة "الكاينجو" قرب الإذاعة، مضطرب الذهن، مشوّش الأفكار، زائغ النظرات. يتناول كأسا غير أن الكأس سرعان ما تسقط منه لتتحطّم على الأرض بسبب الارتعاشات القوية التي تهزّ كيانه. يمكث أيّاما وهو على تلك الحال. لا يكلم أحدا ولا يكلمه أحد. ثم فجأة، يأخذ في تمزيق ثيابه، صارخا، ضاربا رأسه على جدار الحانة وكانت تلك أول نوبة جنون تصيبه.

عند خروجه من المستشفى، يعي أنه لا ينتسب فقط إلى ذلك الوطن الجحود الذي ظلمه وقسا عليه، بل إلى العالم الفسيح، فيحزم حقائبه ويتوجه إلى الجزائر. يستقبله الجزائريون بالأحضان، ويفتحون له قلوبهم وبيوتهم. ترتفع معنوياته، فيعود إلى الكتابة والعمل بشكل محموم. وهاهو يمارس نشاطا مكثفا في الإذاعة والصحافة الجزائرية، وينشر قصائد يتغنى فيها بثوره الجزائر، والثورة الفلسطينية، ممجدا ثورة السود في جنوب افريقيا، مادحا لوتركينج وهوشي مينه القائد الفيتنامي الشهير. ولا يتردد في التشهير بالأسطول السادس مطالبا بانسحابه "من أجل أن يبقى البحر الأبيض المتوسط بحيرة سلام".

تداهمه النوبة مرة أخرى فيعود إلى تونس ليمضي عدة أشهر في المستشفى. عند خروجه، يشتري بيتا صغيرا في ضواحي العاصمة. في سنة واحدة، سنة 1972، يصدر على حسابه الخاص كل الدواوين الشعرية التي ألفها منذ بداية مسيرته وكأنه يهيئ نفسه للطلاق الأبدي بينه وبين الكلمة. قبل أن يهوي في تلك العتمة التي لن يخرج منها بعد ذلك أبدا، يترك على الطاولة "قصيدة-وصيّة" يقول فيها: "كل ما أعرفه أني ظلمت الكلمات/ وسمعت الناس يصغون لصوت الكلمات/ فتكلّمت ولكن لم أفدها الكلمات/ وتألمت كثيرا من جراح الكلمات/ وسفحت العمر معها في عيون الكلمات/ ليس بالهزل ولا بالجهل الخوض الكلمات".

مشهد الشاعر هاذيا في غبار الخريف وسط حلقة ضخمة من الرجال والأطفال فجّر في حنينا جارفا إلى الشعر. دون أن أشعر وجدت نفسي أمام بيت

خالد. طرقت البـاب، فأطلّ عليّ والده، بوجهه البـربري الحاد القسمـات، وشاربه الشبيه بشارب مكسيم جوركي:

- آ... أنت! من زمان لم نسمع عنك خبرا. أين كنت يا ناكر العشرة؟!

- هنا وهناك.

- أنا دائما أسأل عنك خالدا فلا يفيدني بشيء. هل أنتما متخاصمان؟

- لا. أبدا. لكن ظروفا كثيرة حالت دون أن نلتقي خلال السنوات الأخيرة.

- أية ظروف يا رجل تمنع صديقين حميمين مثلكما من أن يلتقيا خصوصا إذا ما كانا يعيشان في نفس المدينة؟

- والله ظروف يا حاج !

- يؤسفني أن أعلمك أنك لم تأت في الوقت المناسب إذ أن خالدا سافر.

- إلى أين؟

- الله أعلم. أنت تعرف أن خالدا لا يعلمنا أبدا بوجهته. لكن أعتقد أنه سافر إلى القاهرة.

- ومتى يعود؟

- لا أدري. الشيء الذي أنا متأكد منه هو أن سـفرته ستكون طويلة. وربما تدوم شهرين أو أكثر. لقد سافر وهو في حالة نفسية سيئة للغاية.

- لماذا؟

- لقد طلّق.

- طلّق؟!

- نعم... طلّق. وعلى أيّة حـال أنا لم أفاجـأ بهذا الأمر. فـأنت تعرف جـيّدا أن ابني لا يمكن أن يثبت في مكان. ويوم زفافه قلت لأمه لن يدوم هذا الزواج أكثر من عام. وها قد صدق حدسي!

عدت أمشي. عطشي للشعر الآن يستحـوذ على كياني، يحرق حلقي، ينتشر في جسدي مـثل حمى لا تطاق. حولي راحت تلك اللحظات البـديعة التي عشـتها مع خالد ونحـن نقرأ لوركا ورامـبو وبيـرس وأدونيس والسيّـاب، ترفرف مـثل طيور الربيع، مداعـبة روحي بأجنحتهـا الخضراء، مطلقة أغـانيها العذبة الحـارّة. ركضت

إلى مكتبة "العيون الصافية". فتحت ديوان والت يتمن وقرأت: "أني أحتفي بنفسي، وأغني نفسي / وما سآخذ به ستأخذون به / كل ذرة في هي ذرة فيكم / إني أطوف، وأدعو نفسي / إني أتكئ وأطوف، مطمئنا / أرقب ورقة جديدة للعشب الصيفي / لساني، وكل ذرة في دمي، هي من هذا التراب / وهذا الهواء".

عندما خرجت منها كنت خفيفا كما لو أن روحي شفيت من شقاء السنوات. تهت في حديقة "البلفيدير" إلى أن هبط الليل. لم تكن لي رغبة في العودة إلى بيت حي "ابن خلدون"، أو رؤية الرفاق محلقين يشربون الشاي الرديء، ويتحدثون عن الثورة والبروليتاريا. عند منتصف الليل، أكلت "لبلابي". ثم عدت راجلا آملا في أن أجد الرفاق نائمين. لكن ما إن دفعت الباب حتى رأيتهم مكدسين على الأرض وسط حلقات كثيفة من دخان السجائر. رفعوا رؤوسهم نحوي مثل عجول يؤتى لها بالحشيش في ليلة شتاء باردة:

- مالك... هل حدث شيء؟...

- رأيت الشاعر !

تبادلوا نظرات الاستغراب والدهشة:

ومن يكون هذا الشاعر ؟

حدجتهم بنظرة قاسية، ثم صحت فيهم بحدة:

- عجبا. ألا تعرفون من هو الشاعر ؟!

آ... آ... أليس ذلك الشاعر المسكين الذي جن؟!

- نعم... هو بالضبط ذلك الشاعر الذي جن !

صمتوا. ظلت عيونهم مغروسة في، وفي ملامحهم ما يشي بأنهم بدأوا يرتابون من سلامتي العقلية. رحت أعد الفراش. تململوا. تنحنحوا. ثم نطق أحدهم:

- لقد أمضينا الليلة كلها في انتظارك ! فبدونك يبدو النقاش غير ذي معنى.

- لا غرض لي في الحديث في أي شيء، قلت. ثم التففت بالغطاء ونمت.

عند الفجر، تسللت على أطراف الأصابع، وتهت في المدينة بحثا عن "الأستاذ" في حرارة الخريف الخانقة، المثقلة بالذباب والغبار والسأم. ذهبت إلى كل الأماكن التي كان دائم التردد عليها فلم أعثر له على أثر.

جلست في مقهى "الأندلس" قدّام مطعم مشهور بأعداد المأكولات التونسية التقليدية. سياح يلتهمون السمك المشوي، والبريك، والسلاطات. تحلّب فمي وبدأت أمعائي تنقنق من شدة الجوع. عددت ما في جيبي فإذا به دون ثمن "صحن تونسي بالعظمة". ركضت إلى أقرب عطار. اشتريت خبزة وعلبة حليب. انزويت في ركن. تغذيت ثم عدت إلى مقهى "الأندلس" من جديد. مكثت هناك حتى ارتفع آذان الظهر.

وكنت أنوي العودة ثانية إلى مكتبة "العيون الصافية" حين أحسست بيد تربت على كتفي. رفعت رأسي فإذا بي أمام محام أعرفه من أيام الجامعة، وأعلم أنه على صلة قوية بالأستاذ:

- هاقد عثرت عليك أخيرا أيها المرتحل أبدا... لقد بحثت عنك حتى جف ريقي!. قال.

ولأن علاقتي به لم تتعد المجاملات، ولم تصل أبدا إلى الدرجة التي يمكن أن تحتم مثل ذلك البحث المضني الذي أوحي به إلي، فإني سألته بنبرة استغراب واضحة:

- تبحث عني؟!

- نعم. منذ شهر بالضبط وأنا لا أكاد أفعل غير هذا !

- ولماذا ؟

- تعال معي وسوف تعرف.

تبعته. راح يسألني عن أحوالي، وعن مشاغلي وأنا أجيب باقتضاب بينما اللهفة لسماع سر البحث عني تكاد تحبس أنفاسي. حين بلغنا شارع "روسيا" حيث يوجد مكتبه، فتح سيارته، ودعاني للركوب. أشعل الراديو. محمد عبد الوهاب يغني: "بنحب القمر والقمر بحب مين؟" خرجت السيارة من العاصمة، وتوجهت نحو الضواحي الشمالية. واصل هو الحديث حول مسائل مختلفة... هو تزوج منذ عام من فتاة تعمل مدرسة للغة الانجليزية في معهد "نهج الباشا" للبنات. أمضيا شهر العسل في الأندلس. هناك اكتشفا أن العرب كانوا عظماء بالفعل. في "قصر الحمراء" بكى بحرقة حزنا على ما آل إليه العرب في الزمن الحاضر. يفكر في الذهاب مع زوجته إلى لندن أيام عيد الميلاد. هي درست هناك عامين وقالت له إن أيام عيد الميلاد

هي أحلى الأيام في العاصمة البريطانية. هو متلهف بالخصوص على سماع خطباء الأحد في "الهايدبارك". المحاكمات السياسية في البلاد تكاثرت حتى أن المحامين لم يعد بإمكانهم إيجاد الوقت لقراءة الملفات. وهو تعب من كل هذا، وأصبح يمضي كل أوقات فراغه في البيت يستمع إلى الموسيقى أو يقرأ. آخر ما قرأ: "مسامرات الأموات". كتاب تركه له "الأستاذ" قبل أن يفر من البلاد.

- قبل أن يفر من البلاد؟!، قلت مدهوشا.

- نعم... لقد فر "الأستاذ" من البلاد قبل ما يزيد عن الشهر، وقد طلب مني أن أعلمك وخالدا بالأمر غير أني لم أعثر عليكما أو عليه.

- وإلى أين ذهب؟

- إلى الجزائر. عنده أصدقاء هناك وعدوا بمساعدته.

- وهل اتصل بك؟

- لقد طلبت منه ألاّ يفعل ذلك.

[مرت سنوات ثلاث ونحن بدون أي خبر عن "الأستاذ". وذات ظهيرة، فاجأنا ونحن متحلقون في مقهى "الأنتارناسيونال" حاملا محفظته الحمراء. أمطرناه بالأسئلة عن سر غيابه الطويل، فلم يجب على أي واحد منها. في مطعم "طونطونفيل"، وبعد أن شرب زجاجة بوقع سريع للغاية قال لنا وفي عينيه حزن من أضناهم السفر في أرض قفراء: "اسمعوا يا أولاد! لقد اكتشفت الآن أن جميع الإيديولوجيات والمذاهب أوهام وأكاذيب تفضي إلى نتيجة واحدة: عبودية الفرد. لذا أنا لم أعد أؤمن بشيء إلا بجسدي الهزيل هذا. وأعتقد أنني سوف أكون سعيدا إذا ما أنا أكملت ما تبقى لي من العمر في مثل هذه الحال من العدمية المطلقة...".

أقام الأستاذ في فندق حقير في شارع القدس الضيّق الرابط بين شارع الجزائر وشارع علي باشا حامبه. واصل حياة التشرد والصعلكة معتمدا على مساعدات الأصدقاء. أحيانا يحدثنا عن مشروع رواية ضخمة مستوحاة من سيرته الذاتية تحمل عنوان "تلك المدن أولئك الناس". غير أنه لم يكتب منها غير بعض الأوراق وجدت في محفظته الجلدية الحمراء عند وفاته. وما أظنه كان قادرا على إنجاز مثل ذلك المشروع على الوجه الأكمل، ليس فقط بسبب نمط الحياة التي كان يحياها، وإنما لأن

كل موهبته لم تكن في الكتابة، وإنما في الحديث، والجدال، وتوليد الكلمات والأفكار والكلمات الطريفة، وأيضا في فن السخرية والتهكم. ولعل أقرب شخص إليه من هذه الناحية، هو ذلك السلافي الذي تحدث عنه سيوران ذات مرة، وقال إنه تعلم منه ما لم يتعلمه من كبار الفلاسفة الذين قرأ لهم وهو في سن العشرين. وقد كان هذا الشخص فاشلا اجتماعيا مثل الأستاذ. بلا مأوى ولا مورد رزق. ومثله درس اللاهوت لكي يكون فيما بعد من ألد أعداء الدين والأخلاق والتقاليد. وقد كان نفورا من الكتابة، غير أنه أثناء الحديث، كان مثل الأستاذ يأتي بأعجب الأفكار، وأكثرها إثارة للجدل. ويذكر سيوران أن هذا الشخص كان هاما بالنسبة إليه لأنه اكتشفت من خلاله الحدود القصوى للعدمية.

وهذا ما اكتشفناه نحن من خلال معاشرتنا للأستاذ الذي بالرغم من أنه عاش في مجتمع إسلامي متحجر، الإجماع فيه قانون مقدس، والرفض بدعة تصيب صاحبها بلعنة تلازمه طول حياته، فإنه ذهب في عدميته حتى الأقاصي، وظل ممعنا فيها غير متهيب إلى أن قضى وحيدا معدما في ذلك الفندق البائس في شارع القدس.

في شتاء 1994 ، اعترضت "الأستاذ" بالصدفة وهو خارج من مكتبة "العطارين" حيث كان في زيارة لمديرها الذي لم يكن يبخل عليه بالمساعدة بين وقت وآخر. دعوته للعشاء في مطعم "الكوسموس". ضحكنا كثيرا كعادتنا دائما. آخر الليل سألته مازحا:

- متى تعتقد أنك سوف ترحل عن هذه الدنيا القبحة يا "أستاذ"؟

فكر قليلا، ثم قال بعد أن رمى في جوفه بكأس بيرة:

- اسمع: والدي عاش 86 سنة. أمي عاشت 80 سنة. أنا سكرت كثيرا، وتعذبت كثيرا لذا أعتقد أنني لن أتجاوز سن السبعين. أي مازال أمامي اثنا عشر عاما بالضبط. بعدها Adios ! مطلع العام 1995، توفيت والدتي. وكنت لاأزال أكابد أوجاع فراقها حين هتف لي خالد في صباح معتم حزين ليعلمني أنه عثر على الأستاذ ميتا في غرفته في فندق حقير بشارع القدس وأن جثته مودعة في جناح قسم التشريح بمستشفى شارل نيكول منذ أربعة أيام. ثم سألني:

- أتعرف ماذا كان يقرأ قبل أن تفاجئه النوبة القلبية؟

- "مسامرات الأموات!"، قلت.

- نعم. بالضبط.

عدت إلى تونس بعد مرور شهر على وفاة الأستاذ صبيحة اليوم التالي لوصولي، ذهبت إلى الفندق الذي أقام فيه منذ مطلع الثمانينات. صاحبه جنوبي، أعمش العينين، ضئيل الجسد، مسوس الأسنان، يغطي رأسه الأصلع بمنشفة صفراء. طلبت منه أن ألقي نظرة سريعة على الغرفة التي مات فيها الأستاذ. ظل يتأملني لبضع لحظات، ثم صاح في بصوت أخن:

- ولماذا تريد أن تراها؟ الأستاذ مات. الله يرحمو وينعمو.

رحت أتوسل إليه إلى أن لان. صعد بي إلى الطابق الثالث وسط روائح عطنة. فتح الباب. غرفة ضيقة كأنها زنزانة محكوم بالإعدام. جدران وسخة ملطخة بدم البراغيث والناموس. سرير حديدي عليه أغطية كالحة اللون. مغسل. نافذة صغيرة مفتوحة على هاوية الفراغ الفاصل بين العمارات. لكأنها نفس تلك الهاوية التي ظل الأستاذ مطلا عليها طول حياته].

شربنا شايا بالبندق في "مقهى العالية" بسيدي بوسعيد ثم دعاني المحامي إلى مطعم سمك في حلق الوادي. أكلت وشربت كما لو أني أريد أن أنتقم من السنوات العجاف التي عشتها. عند منتصف الليل، وضعني المحامي في "باب البحر". قبل أن أنزل من السيارة مد لي ظرفا وهو يقول:

- خذ. هذه مساعدة متواضعة مني. أرجو أن تقبلها !

في زاوية منعزلة، فتحت الظرف وعددت ما فيه: 150 دينارا ! لو انفتح باب العرش أمام بدوي بائس في ليلة القدر، لما شعر بذلك الفرح الذي هزني في تلك اللحظة.

أجرت غرفة في فندق صالمبو في شارع اليونان. في الصباح ملأت حقيبة بالروايات وبدواوين الشعر، ثم انطلقت إلى قريتي دون أن أعلم أحدا بالأمر. وجدت أمي واقفة عند العتبة وكأنها تنتظرني. احتضنتني وهي تبكي بمرارة. لم تلمني عن غيابي الطويل، ولم تسألني عن أي شيء. فقط قالت لي بعد العشاء:

- كنت متأكدة أنك سوف تأتي. لقد أدركت ذلك من خلال حلم حلمته الأسبوع الماضي!

أمضيت هناك ثلاثة أشهر بكاملها. أقضي الجزء الأكبر من الليل في القراءة على ضوء مصباح الكيروزين الواهن. في المساءات أتمشى في الدروب الرملية، وفي الشعاب الوعرة تماما مثلما كنت أفعل صبيًا، باحثا عن أعشاش الطيور وناصبا الفخاخ للأرانب البرية. في كل يوم جديد، أزداد توغلا داخل ذاتي، تلك التي نسيتها وأتلفتها خلال السنوات الماضية ظانا أن الذوبان في الجماعة هو الضمان الوحيد للحصول على الحرية الحقيقية، وأن الإيديولوجيات قادرة على تحقيق الخلاص المرتجى، وأن الفعل وحده كفيل بترك بصمات في الواقع والتاريخ. تحت تأثير كل هذا، هجرت الكتابة والأدب والشعر، ورميت بنفسي وسط القطيع لأتحول مع مرور الزمن إلى مجرد ببغاء يردد كلاما خاويا، مبتذلا، مقطوعا عن نهر الحياة. وهكذا لم تفض التجربة المريرة التي قمت بها إلى إسعادي وإسعاد الآخرين، مثلما كنت أتوقع، بل فصلتني عن ذاتي، ثم طوحت بي هيكلا خاويا في بيداء الإحباط واليأس والألم. في نهاية تلك الرحلة الطويلة سقطت كل القناعات القديمة. وإذا بي أشعر كما لو أنني أبرأ من داء عضال كان على وشك أن يفتك بي.

ذات ليلة أخذت أكتب إلى أن بان الفجر. بعدما نمت حتى الظهر، فرأيت نفسي أسير في بلاد عجيبة لم أر أجمل منها في حياتي. جبال وطيور بألوان قوس قزح. جداول وغابات وبحيرات. كنت وحيدا. لا أثر لإنسان. ورغم أني كنت أجهل وجهتي. فإني لم أكن خائفا أو قلقا. وحتى عندما وجدت نفسي على حافة هاوية مظلمة دون أن يكون هناك أي أمل في التراجع إلى الوراء لسبب لا أدريه، فإني ظللت هادئا متماسك الأعصاب.

عقب هذا الحلم ببضعة أيام، عثرت على عمل مؤقت في القيروان. اكتريت شقة، وجلبت أمي من القرية. وهكذا رحت أخرج ببطء من ذلك السرداب المرعب الذي خلته دون إطلالة على النهار.

# القسم الثاني

تفاجئنا رنا ونحن غارقان في الصمت. كل واحد منّا منصرف إلى الاستماع إلى أغنية نفسه.

- المعذرة على التأخير، تقول وهي تعلّق جاكتتها على المشجب. كنت على وشك أن أغلق الباب حين رنّ التلفون. حسبتها مكالمة من ابنتي التي ذهبت لزيارة صديقة لها في الضواحي فرفعت السماعة. وإذا على الخط صديقتي جوسلين العائدة للتو من بيروت. لمدة نصف ساعة وهي تحدّثني عن الأوضاع هناك. لم أستطع التملص منها إلا بمشقة. المعذرة مرة أخرى.

نتحاضن ونتبادل القبلات ثم تلتفت إليه مؤنبة:

- أما أنت فلن أسلّم عليك لأنك متنكر للصداقة. لم تهتف مرة واحدة لتسأل عن أحوالي. فقط حين يأتي هذا البدوي الذي أصبح ألمانيا في نهايات هذا القرن، تكلف نفسك عناء الاتصال بي. واليوم كان في نيتي أن أغلق السماعة في وجهك غير أني لما علمت أن الأمر يتعلق بهذا البدوي قررت أن أؤجل عقابك إلى فرصة أخرى !

يتململ هو تأهبا للدفاع عن نفسه غير أنها تسكته بإشارة حازمة من سبابتها اليمنى:

- اسكت. لا تحاول أن تدافع عن نفسك بحجج أعلم مسبقا أنها واهية !.

ينكمش منصاعا طابعا على شفتيه تلك الابتسامة الطفولية التي تعود أن يواجه بها كل من يواجهه بحجج دامغة.

لم تتغير رنا كثيرا. لقد امتلأت قليـلا ووخط الشيب شعرها غير أنها ما تزال فاتنة بوجهـها القمري، وشـفتيـها المكتنزتين، وعينيـها الزرقاوين بلون بحـر بيروت في أماسي أيار. لا شيء فـي ملامحـها يشي بالمتـاعب التي تعذبها منـذ سنوات. لقد طلقت وعاد زوجها إلى بيروت تاركا في كفالتها صبـيا وصبية تسكن معهما شقة ضيـقة بغـرفة ونصف. لا غيـر. لا تملك حتى طاولة للكتـابة. مع ذلك هي تكتب دون انقطاع وبإتقان تحسد عليـه. مقبلة على الحياة بغبطة طفوليـة. لا مبالية بكل تلك الهموم التي تجعل أمـثالها ومثيلاتها يمشون مقـوسي الظهر في شوارع الغربة. حين أهتف لها من ميونيخ بين وقت وآخر، ترن ضحكتـها عاليا حتى لكأنها طفلة سعيدة تلعب في الرمل على شاطئ بيروت.

تعـرفت على رنا قبل نحـو أربعة أعـوام، عقب أشـهر قليلة من انفـصالهـا عن زوجها. كنت قد جئت إلى باريس مكلفا من قبل جريدة ألمانية للقيام بتحقيقات عن بعض الكاتبـات العربيـات المقيـمات في المنفى. وكانت هي واحـدة من اللاتي وقع عليهم اختياري. هتفت لها فوجدتها مزكومة غير أنها لم تمانع في القدوم:

- "لا يهم. أنا مـن زمـان أرغب في التـعـرف عليك. وها قـد حـانت الفرصة. لعل هـذا الزكام الخبيث يذهب في حالـه عندما أراك!، قالت دون أي كلفة كما لو أنها تعرفني من زمن بعيد. ببيلوفير داكن الزرقة، وتنورة سوداء قصيرة إلى حـدّ ما، جـاءت إلى مقـهى "كلوني". راحت تحرق السيـجارة تلو الأخـرى مجيبة عـلى أسئلتي بتلقائية بديعة وبصراحة لم أتعـود عليها مطلقا لدى جل النسـاء العربيات. بعد أن تأملت فيها مليا، وراقبت حركات يديها، والتعبيرات التي ارتسمت على ملامحها أثناء الحـديث، تأكد لي أنها مطابقة تماما للصورة التي انطبعت عنهـا في ذهني وأنا أقرأ كتاباتهـا. استمر الحـديث حوالي ثلاث ساعات. بعـدها رحنا نتنقل بين بارات "الحي اللاتيني" حتى الثالثة صـباحا. أثناء ذلك روت لي بعضا من وقائع حيـاتها.

ولدت في قلب بيروت مطلع السـتينات. هي بكر والديها اللذين تزوجـا عقب قصة حب عـاصفة. في البداية دللّـت بشكل مفرط أحيانـا. كان أهلها يتخاطـفونها،

يشترون لها الألعاب، يأخذونها إلى البحر خصوصا في الربيع والصيف فتركض وتلهو مثلما يحلو لها. في الشتاء تصعد إلى الجبل فيبهرها جمال الثلج وغابات السنديان. عند بلوغها من العمر سنتين وشهرين، وضعت أمها طفلا فأصابتها الغيرة. وهي تذكر أنها أخذت تقوم بحركات غريبة لتلفت إليها انتباه الكبار.

في الخامسة من عمرها، سافر والدها بصحبة عائلته الصغيرة إلى الكويت التي كانت في تلك الفترة قبلة الباحثين عن الثروة. هناك عمل في متجر ضخم لبيع أنواع الكريستال والفضة والمرايا والثريات. وهي أحيانا كانت تذهب لزيارته فترى الأميرات من الأسرة الحاكمة جالسات على الكراسي مسدلات عباءاتهن، مرخيات شعورهن على أكتافهن. لساعات طويلة، يظللن هناك يتخيرن الأشياء التي يرغبن في اقتنائها وهن يتهامسن ويتضاحكن.

ثم قرر والدها أن يستقل ففتح محلا لبيع الملابس النسائية لكنه سرعان ما أصيب بالإفلاس. وإذا بسعادة العائلة الصغيرة تتقوض بين عشية وضحاها. احتدت المشاكل بين الوالدين فأصبحت حياتها وحياة شقيقها جحيما لا يطاق. ثم بلغ السيل الزبى فقرر الوالد إرسالها صحبة أمها إلى بيروت. أما هو فمكث في الكويت آملا في إصلاح حاله من جديد.

من بيروت أرسلت أمها تطلب الطلاق. ظلت مصرة على ذلك رغم ضغوط الأهل والأقارب. أخيرا استجاب لطلبها. وكان الانفصال.

هي الآن بصحبة أخيها في بيت جدها لوالدتها في دمشق. كل شيء يبدو لها مختلفا اختلافا كليا عن الماضي. فالنساء هنا محافظات، مذعورات طول الوقت، يرتدين الحجاب ويتغطين بالسواد. والأبواب مغلقة في الليل كما في النهار. والرجال يراقبون الصغيرة والكبيرة بريبة وحذر، ويتكلمون بأصوات غاضبة، ويبالغون في الزجر والنهي. وجبل قاسيون عار موحش. والبحر بعيد. وهي في التاسعة من عمرها لكنهم يعاملونها كما يعاملون البالغات. محرم عليها الخروج بمفردها واللعب مع الصبيان في الشارع مثلما كانت تفعل في بيروت. تجلس البنت الصغيرة أحيانا في شرفة البيت الكبير، ذي الحيطان العالية والأبواب السميكة، والنوافذ المسيجة، وتبكي حظها العاثر.

فجأة بدا وكأن حدثا غريبا انسل إلى البيت في غفلة من الجميع مشيعا الارتباك والفوضى في الحياة المملة الرتيبة. أكثر الرجال من التشاور والنقاش، أما النساء فقد تكدسن في الأركان المعتمة وغرقن في حديث هامس لا ينتهي إلا في ساعة متأخرة من الليل. اقتربت هي منهن لاستجلاء حقيقة ما يجري غير أنهن نهرنها بشدة:

- مالك وشؤون الكبار أيتها الصبية !

هرعت إلى أمها التي كانت في المطبخ تعد القهوة للرجال المجتمعين في الصالة الفسيحة، هناك حيث تتخذ القرارات الحاسمة. وجدتها ساهمة، شاردة الذهن، مرتبكة الحركات. اقتربت منها عازمة على إرغامها على الكشف عن حقيقة ما يحدث في البيت. غير أن الأم دلقت عليها كأس القهوة الساخن فأحرقت يدها اليسرى. لاحقا علمت أن رجلا من الأقارب تقدم يطلب يد أمها. بعد زواج الأم بأسابيع قليلة، تقدم الأب بطلب إلى المحكمة. بهدف استرجاع ابنيه. أمضت الأم أسبوعا كاملا تلقنها وتلقن أخاها الصغير ما يتوجب عليها قوله أمام المحكمة.

ثم أدخلا على القاضي الذي بدا لهما شبيها بواحد من أولئك الملوك الجبابرة الذين قرأوا عنهم في قصص الأطفال. حالما سئلا مع من يرغبان أن يكونا، أجابا بسرعة وكأنهما على اتفاق مسبق:

- مع والدنا !

بكت الأم بحرقة. أمّا هما فكانا سعيدين بالعودة إلى بيروت هناك حيث البحر والسباحة والحرية والسهرات العائلية تحت القمر.

أخذت البنت تكبر بسرعة مذهلة، تحت قميصها نبت لها نهدان ثم لم يلبثا أن استدارا مثل تفاحتين ناضجتين. في العانة نبت الشعر. ثم سال دم البلوغ. كانت البنت المراهقة وحيدة على الشاطئ مفكرة في كتاب "النبي" لجبران الذي انتهت من قراءته قبل يومين وإذا بصديقة لها تستوقفها وهي شاحبة مذعورة:

- هل سمعت ؟ سألتها.

- ماذا ؟

- الحرب !

- الحرب ؟!

- نعم الحرب اندلعت بين الفلسطينيين والجيش اللبناني. وهناك أموات كثيرون حسبما سمعت.

جرت رنا إلى بيت عمتها، المرأة الصلبة الحديدية التي تعلق صورة عبد الناصر في غرفة نومها، وتجادل الرجال في أمور السياسة دون رهبة أو خجل. فإن أظهروا شيئا من الاستعلاء والغطرسة، ضربت على الطاولة محتجة، فإذا بهم ينكمشون مثل الفئران أمام القط الهائج. أمضت الليلة عندها. وفي الصباح التحقت بحركة "المرابطون"، حركة الناصريين المستقلين. شرعت رنا في التدرب على السلاح والإسعاف وبها إحساس عارم بأنها تساهم في صنع الحلم الكبير: تحرير فلسطين. وكانت تجد متعة لا تضاهيها متعة في الاستماع إلى محاضرات يلقيها قادة الحركة عن فكر عبد الناصر ودوره القيادي في حركة التحرر العربية. وهي الآن تشعر أنها تحب هذا الزعيم الذي استمعت إلى خطبه وهي صغيرة أكثر من أي زعيم آخر في الدنيا. تحب قامته الفارعة. طلعته البهية على شاشة التلفزيون. يده التي يرفعها لتحية الجماهير الغفيرة الهاتفة بحياته. صوته حين يعلو في الفضاء معلنا أن ساعة النصر وشيكة. ولما صافحت لأول مرة زعيم الحركة التي تنتمي إليها، شعرت أنها منذورة للقيام بعمل جبار. وانتابها فرح لم تعرف له مثيلا منذ فتحت عينيها على الدنيا.

في ذلك الوقت أيضا كان والدها، بأمر من المحكمة، يصطحبها وأخاها كل خميس من أول كل شهر لتراهما أمهما. في قاعة المحكمة ترى النسوة يبكين بحرقة وهن يعانقن أطفالهن فيتقطع قلبها ألما وحزنا. كثيرا ما كانت إحدى السيدات تقترب من أمها لتسألها: هل هذان طفلاك؟ فتهز الأم رأسها بالإيجاب ثم تنخرط في بكاء لا يكاد ينتهي. أما هي فتتمنى لو تدفن حية حتى لا ترى ما ترى وتسمع ما تسمع.

اشتدت أهوال الحرب فبدأ الناس يهربون. كانت رنا ترغب في البقاء لتموت من أجل الحلم الذي ملأ حياتها غير أنه ذات صباح مفعم بدخان القنابل والانفجارات جلب والدها سيارة أجرة إلى البيت وأمرها وأخاها بالصعود. جلست هي وأبوها وأخوها في المقاعد الأمامية. في المقعد الخلفي جلس شابان بدا عليهم

التوتر والخوف. انطلقت السيارة في طريق بيروت - دمشق الذي كان مزدحما بسيارات الفارين من نار الحرب المجنونة. قبل الحدود، توقفت السيارة عند حاجز عسكري لمدة نصف ساعة. ولما تعبوا من الانتظار نزل السائق ليستفسر الناس عن سبب الوقوف. في اللحظة ذاتها أخذ رجال من جبال الدروز يتقاطرون من وجهات مختلفة مسلحين بالرشاشات وببنادق الصيد والمسدسات. وثمة آخرون كانوا يحملون فؤوسا ومناجل وهراوات. كان واضحا للجميع أن هناك أمرا خطيرا حدث أو سيحدث. عاد السائق ليخبرهم أن مسيحيين موارنة قتلوا عائلة درزية مؤلفة من أب وأم وخمسة أطفال. وأن الدروز عازمون على الانتقام. عندئذ أخذ الشابان الجالسان في المقعد الخلفي يلحّان على السائق أن يعود بهم إلى بيروت. كانا يتكلمان وهما يرجفان ويبلعان ريقهما بصعوبة ناظرين إلى الشارع بهلع بالغ. سألهما والد رنا عن شأنهما بالذي يحدث فأجاب أحدهما:

- نحن موارنة ولا علاقة لنا بما يحدث. وها نحن مثلكم فارّان بجلودنا لأننا نرفض ما يحدث.

قال السائق محاولا طمأنتهما :

- لا تخشيا شيئا. ليس في وسعي أن أعود لأن رتل السيارات الذي ورائي يمتد حتى بيروت. أوصيكما فقط أن تحافظا على هدوئكما وأنا أعدكما بأن كل شيء سوف يتم على أحسن ما يرام !

ما إن أكمل السائق حديثه حتى اقترب منه مسلح وسأله :

- من معك في السيارة ؟

- هاربون من الحرب ونحن في طريقنا إلى دمشق. رد السائق وكانت رنا تشاهد من المرآة الداخلية الشابين المارونيين وهما يرجفان مثل ورقتين في الريح.

تمعن المسلح ذو الشارب الذي على شكل مقود دراجة ثم قال:

- الهويات من فضلكم !

مدّ والد رنا البطاقات إلى المسلح فنظر فيهما مليا ثم أعادهما إليه. بعدها خاطب الشابين المارونيين بحدة:

- وأنتما... لماذا تبحلقان في هكذا؟ ألم تسمعا ما قلت؟ !

سلم الشابان المارونيان بطاقتيهما إلى المسلح وكأنهما يسلمان إليه روحيهما. ألقى المسلح نظرة سريعة على البطاقتين ثم أشار للشابين بالنزول. شرع السائق يستعطف الرجل المسلح:

- أرجوك. إنهما بريئان. ولا علاقة لهما بأيّ شيء. أرجوك. أرجوك. ارحم شبابهما وأميهما.

صاح المسلح:

- لا شأن لك ولا لغيرك بأي شيء. فاهم !

صمت السائق وبدا كأنه على وشك البكاء. نادى المسلح على زميل له كان واقفا على مقربة. همس له بشيء ما، ثم بلا مقدمات، وفي رمشة عين انطلقت رصاصات من المسدسين لتستقر في رأسي الشابين. أغمضت رنا عينيها ولم تعد ترى شيئا. لوقت طويل سيظل ذلك المشهد المريع يعذبها في نومها ويقظتها.

ثم قرر الأب أن يتزوج من منى، وهي امرأة من أصول شركسية، شقراء، زرقاء العينين، في العشرين من عمرها، لها بنت وولد غير أن زوجها "البدوي النتن"، كما وصفته، منعها منعا باتا من رؤيتهما عقب الطلاق. قبل الزواج، ذهبت رنا وأخوها صحبة والدهما لرؤيتها، والتعرف عليها فاستقبلتهما استقبالا حارا، وقدمت لهما الحلويات الدمشقية اللذيذة، وضمتهما إلى صدرها أكثر من مرة وهي تقول:

- ما أحلاهما. سيخففان عني وطأة الحرمان من رؤية طفلي !

طارت رنا من الفرح معتقدة أن منى، بحكم فارق السن البسيط بينهما، ستكون صديقة أكثر منها زوجة أب. غير أن شعورها ذاك سرعان ما تبدد. وكانت خيبتها لاحقا شبيهة بخيبة الصياد الذي أخرج الثعبان من القمقم في الأسطورة الشهيرة.

من جديد استبدت بالأب حمى الحصول على ثروة، فانطلق إلى "أبو ظبي" واعدا زوجته الجديدة وابنيه بأنه سيرسل في طلبهما حالما تستقر أحواله ويعثر على بيت لائق. أثناء غيابه، كانت منى ترسل إليه رسائل هي عبارة عن تقارير مفصلة عن كل ما يحدث في البيت. لاحقا اكتشفت رنا أنها كانت "بطلة مجيدة" في

تلك التقارير إذ كانت منى تـركز عليها هي أكثر من غيـرها، ناعتة إياها بـ "الداعرة الصغيرة" و "الشيطانة الخطيرة".

بعد نصف عام، سافرت العائلة الصغيرة إلى "أبو ظبي". كانت نهايات الصيف. حرارة قـاتلة. لكأن تلك البـلاد قائمـة على حافـة الجحـيم. الوقوف لدقـائق قليلة في الشارع كاف لإجبـار الإنسان على الفرار عائدا إلى بيته وهو مـشبع بالعرق والرطوبة. وربما لهذا السبب كان الناس يـسيرون ببطء شديد كما لو أنهم سكارى أو مخدرون.

في المدرسـة الإعدادية المبنيـة على أحـدث طراز معـماري، تعـرفت رنا على فتيـات ناضجات خبـيرات بأسرار الحب، يروين مغـامراتهن العاطفيـة مع الشبـاب وهن يتـضاحكن ويتـغامزن. وكـثيـرا ما فـاجأت رنا البـعض منهن وهن يتبـادلن القـبلات والمداعـبات في الأركـان المعتـمة. الرجل الوحـيد الذي كـان مـسـموحـا للفتيات برؤيته خارج المعهد هو سائق البـاص. وكان هذا يديم النظر في المرآة التي يوجهها نحو الفتـيات. وغالبا ما كان يغازل البعض منهن فيلتفـفن حوله ملتهبات العيون كأنما يرغبن في التهامه. عند الخروج من المعـهد، يتجمع عشرات من الشبان وراء السور حالمين بغمزة، أو بابتسـامة، أو بإشارة صغيرة من بعيـد.

في البيت كانت رنا تقضي جل أوقـاتها في القراءة متحاشيـة التصادم مع زوجة أبيها التي كانت تغلي حقدا عليها وعلى أخيها، صارخة فيها كل يوم تقريبا :

- طول النهار وأنت مسـتلقية مثل الأميرات المدللات تقـرئين قصص الغرام. لم لا تمدين يدك مرة واحدة لمسـاعدتي. سأعلم أباك فإن لم يتخذ قـرارا فسأتركه حالا وأعود إلى دمشق. أنا لم أتزوجه لكي أكون خادما لك ولأخيك !.

ولم يكن الأب يختلف عن زوجته في شيء. كان ينساق لها انسياقا كليا، ويصدق كل كلمـة تقولهـا. وربما لأنهـا تصغـره بعـدة سنوات فإنه كـان مـسـتعدا أن يفـعل المستحيل لكي يفوز برضاها. لم يكن يفكر في ابنيه إلا لمامـا. قليلا ما صاحبهما في نزهة. نادرا مـا اشتـرى لهمـا هدية. قلما سـمعـا منه كلمـة تعبـر عن عاطفـة أبوية نحوهما. حين يشـتد غضبه بعـد أن يكون قد أصغى جيدا إلى شكاوي زوجـته، كان يصرخ مهددا رنا :

- إذا لم تكفي عن سلوكك هذا فسوف أجعلك تقبعين في المنزل كالخادمة وأحرمك من الذهاب إلى المعهد !.

كان هذا التهديد يخيف رنا أكثر من كل التهديدات الأخرى، ذلك أن المعهد كان نافذتها الوحيدة على العالم في ذلك البلد المقفر الجاف. في مرحلة النضج كتبت تقول: "التهديد بالحرمان هو ما شكل وعيي الأول. حرمت من أمي ومن حنانها. ثم حرمت بعد ذلك من الأشياء الصغيرة العادية. هددت دائما بالعقاب. كان محرما علي مراسلة أمي فهي بالنسبة إلى والدي ميتة رغم حبه الشديد لها حتى بعد الطلاق. كان ينتقم منها من خلالنا، ويسعى لإرضاء زوجته بتعذيبنا وتهديدنا طول الوقت. الحرمان كان طوقا ظل يكبر معي إلى أن سطع بصورته النهائية كالأرض الحرام!".

لم تكن رنا قد أتمت سن السادسة عشر حين تقدم لطلب يدها سوداني في الخمسين، متزوج من مصرية مريضة بالسكري، ويعمل مهندسا في شركة نفط. كذلك فعل واحد آخر من أبناء البلد، في الأربعين من عمره، واعدا أباها بأنه سيأخذها إلى أجمل الأماكن في الدنيا، وسيبني لها قصرا في أي مكان تريد، وسيبدل سيارته بأحدث موديل كل أول سنة من أجلها. تحلب ريق الأب، وأقرت زوجته أن الزواج هو أفضل حل لـ "ابنته الفاسدة الكسولة".

غير أن رنا رفضت رفضا قاطعا مهددة بأنها سوف تشنق نفسها إن هي أرغمت على الزواج. في الليل، وحيدة في غرفتها، فكرت طويلا، ثم أخذت قلما وورقة وأخذت تكتب قصة من وحي حياتها فيها تروي عذاب طفلين بعد انفصال ولديهما.

في اليوم التالي نشرت تلك القصة في مجلة الحائط الخاصة بالمعهد. ثم تلتها قصة ثانية وثالثة ورابعة. وشيئا فشيئا بدأت رنا تحس أن الكتابة تساعدها على أن تكون نفسها، وأن تواجه العالم الشرير من حولها. لاحقا كتبت تقول: "كأنثى في شرق شهريار العنيف، كنت أشعر دائما أن العالم أقوى مني. في صدري ثمة قوة هائلة لكنني كنت أشفق على نفسي من أن أدمرها. ماهو حولي كان ضدي، لذا كان شعوري الدائم بالخوف من أن أظهر في صورة سيئة. صورة البنت الفاسدة الشيطانة كما كانت تقول زوجة أبي. وبما أن أي تصرف في بلاد الشرق يصدر عن

ثورة على الظلم، كان من الممكن أن يصبح وبكلمة واحدة خروجا على الأخلاق وعلى التقاليد التي تتوارثها الأجيال منذ قرون، فإني كنت أكبح بكل ما استطعت من قوة تلك المشاعر التي كان يضج بها صدري. كنت أخشى أن أدمر العائلة التي وهبتني اسمها. أخشى أن أكون شرطيها الذي لا يرحم. أن أقتلها بعنف وأن أقف باكية وأنا أراقب دمارها. مع ذلك كنت أشعر أنه عليّ أن أنتصر أولا على ما في نفسي تجاه نفسي. أن أعتق وأحرر عبودية الآخر فيّ. أن أطلق رغباتي كما أريد من دون تأنيب ضمير أو إحساس بالخطأ. فكل أحلامي كانت صغيرة. أحلام بالاكتشاف والمعرفة. أحلام بسماء زرقاء تظل تتسع دائما وأبدا !".

اكتشف الوالد أن ابنته تكتب فأخذ يمزق كل سطر ترسمه على الورق غير أن ذلك لم يفتّ من عزمها. في النهار تمارس لعبة النفاق الاجتماعي المفروضة عليها. تبتسم في وجه أبيها. تساعد زوجته على إعداد القهوة أو على طبخ العشاء أو على غسل الثياب. في الليل تحكم إغلاق حجرتها وتسلم نفسها للقلم والورقة مثلما كان السندباد يسلم نفسه للبحر. كل سطر تكتبه يشعرها بأنها تنتصر على نفسها، وعلى أعدائها الذين آلموها وجرحوها. في اليوم التالي يداهم والدها غرفتها. يفتح الكتب والدفاتر بحثا عن أوراقها الصغيرة. حالما يعثر على واحدة منها يمزقها إربا منهالا على ابنته بالشتائم المقذعة. لكن رنا تمعن في التحدي. والآن هي حريصة على أن تحفظ عن ظهر قلب كل ما تكتبه.

فإن أتعبها ذلك لجأت إلى الحمام، وأقفلت الباب بالمفتاح حتى لا تسأل عما تفعل، ثم تشرع في تسجيل خواطرها وأفكارها على فخذيها.

وكان ذلك يتيح لها لذة الشعور بأنها تمارس الحب مع القلم الذي بات عشيقها الأوحد.

في عام 1979، عادت رنا إلى بيروت لتنخرط من جديد في حركة "المرابطون"، ولتكثف نشاطها في الهلال الأحمر اللبناني: تسعف الجرحى، وتسحب الدم، وتوزع المؤونة التي كانت تأتي كتبرعات من جهات مختلفة. كما انضمت إلى التجمع النسائي العربي واتحاد الشباب العربي. في الآن نفسه نشرت قصائدها الأولى

في بعض المجلات والصحف وإذا بها تشعر أنها تنتصر على الجانب المتخاذل في نفسها، وعلى العالم الذي ظلمها ماحية تلك البشاعة السوداء التي ظللت حياتها. ولكي تستقل ماديا، عملت في محل للألبسة الجاهزة، غير أنها سرعان ما فصلت من العمل بعد أن اكتشف صاحب المحل أنها توزع الملابس على النساء الفقيرات مجانا.

عندما اجتاح الجيش الإسرائيلي بيروت في صيف 1982، لجأت رنا إلى بيت عملها لأن الشقة التي كانت تسكنها لم تكن آمنة بسبب تكاثر مكاتب المنظمات الفلسطينية فيها. وكانت منهمكة في أداء عملها في مقر الهلال الأحمر حين قصفت الطائرات الإسرائيلية أحياء قريبة من هناك. انطلق زعيق سيارات الإسعاف ليغطي على ما عداه. فجأة، من مكانها على شرفة مقر الهلال الأحمر، رأت والدها محمولا على نقالة وقد غطت الدماء أماكن مختلفة من ثيابه. هبطت المدارج وهي تولول ولم تهدأ إلا عندما تأكدت أن الإصابة ليست خطيرة بالمرة. في مساء اليوم ذاته علمت أن البناية التي كانت تقطن فيها قبل أن تنتقل إلى بيت عمها قد انهارت تحت القصف بطوابقها الاثني عشر.

اشتد الحصار على بيروت وأهلها، فانضمت رنا إلى مجموعة من الفتيات والنساء قررن أن يقمن بحركة احتجاج ضد ما يجري فأضربن عن الطعام ووزعن البيانات على وكالات الأنباء والصحافة وأقمن في الجامعة الأمريكية مكتفيات بكأس حليب كل صباح حتى يتمكن من مواصلة الاحتجاج.

أثمر الإضراب فبدأت وفود كثيرة تأتي من أنحاء مختلفة من العالم لتعلن تضامنها معهن. وكانت الأم تيريزا من بين الزائرين. صلت لأجلهن ثم انصرفت. وكن هن يصرحن لوكالات الأنباء منددات بالعنف والغارات الجوية التي لا تكاد تنتهي. غير أن الطائرات الإسرائيلية لم تعبأ بهم وظلت تضرب المدينة حتى امتزجت الأرض بالسماء.

ثم توالت الأحداث بعد ذلك بسرعة فائقة: خرج الفلسطينيون من بيروت، وقتل بشير جميل، وحدثت مجزرة "صبرا وشاتيلا"، وبدأ أهالي المخيمات والأماكن المجاورة لها يتراكضون في الشوارع حفاة أو أنصاف عراة هاربين من مجزرة أخرى

محتملة. في هذه الفترة العصيبة، تعرفت رنا على شاب يكتب الشعر أصبح زوجها بعد ذلك بأشهر قليلة. معا سافرا إلى قبرص ليعملا في الصحافة العربية المهاجرة. وفي خريف عم 1986 حصلا تأشيرة الدخول إلى فرنسا.

في آخر ذلك الحوار الذي أجريته معها للمجلة الألمانية قالت لي رنا مجيبة عن سؤالي حول الغربة وما فعلت بها: "ربما بإمكاني القول إن تجربة السفر بحد ذاتها، تجربة مفيدة لأية كتابة. فالسفر في الخارج -أي في خارج النفس- قد يكون معادلا لسفر الكائن في داخله. فهو استكشاف وبحث ورغبة في دفع الحياة وتقصيها. كما هو رغبة في استقبالها أيضا ومن ثم مخاصمتها في بعض وجوهها. والغربة تعلّم الإنسان نفسه وتدله عليها. تقوده إلى روحه. وتلك الروح هي أجمل ما للكائن أن يتمسك به وهو يواجه حروب ودمار وخراب الخارج" .

تلتفت إليه رنا وبنفس لهجة العتاب الأولى تقول له:

- لا يكفي أنك لا تتصل بي بل ولا تبعث لي بديوانك الجديد مثلما فعلت مع الآخرين !

يقول هو متصنعا الجهل؟ التام بالأمر :

- عن أي ديوان تتحدثين؟ !

- عجبا. ألم تصدر قبل نحو ثلاثة أشهر ديوانا صغيرا أسميته "Oldboy"؟!

بيده اليمنى يقوم بحركة توحي بأن الأمر ليس مهما على الإطلاق ويقول:

- آ... هذا ليس ديوانا شعريا. إنما لعب بالكلمات أتسلى به في أوقات الكسل والعزلة والقلق.

تمد رنا رأسها باتجاهه وتقول له وهي تغمز بعينيها :

- قل لي أيها الوغد. أتريد أن تلعب معي دور الشاعر المتواضع اللامبالي إلى درجة أنه يلقي بما يكتب في سلة المهملات أو ينساه على كونتوار البار؟

يرد هو جادا :

- لكن أنا لست شاعرا بالمرة !

تتراجع رنا بجذعها إلى الوراء. تركز نظراتها على وجهه. تجذب نفسا طويلا من سيجارتها ثم تقول :

- أنت وغد حقيقي وشيطان أحمر لم أعرف له مثيلا في حياتي. لكن دعني أقل لك إن ديوانك هذا فتنني حتى أني تركت ابنتي مريضة وطفت في بارات "الحي اللاتيني" كلها بحثا عنك. فقط لأقبل جبينك !

يضحك هو عاليا ثم يقول :

- أنت دائما تبالغين يا عزيزتي رنا. لكن تأكدي أني لست شاعرا ولا أريد أن أكونه. صدقيني. أنا خالي الذهن من كل هذا.

من جديد تمد رنا رأسها باتجاهه :

- وماذا تريد أن تكون إذن ؟

- سينمائيا ! أجاب هو بجد واضح.

- سينمائيا؟ !

- نعم سينمائيا. هذا هو مطمحي الأول والأخير.

تضحك رنا بسخرية واضحة:

- من أيام بيروت وأنت تصدع رأسي بهذا الادعاء الفارغ. وها أنت مشرف على الأربعين دون أن تتمكن من أن تمتعنا بصورة واحدة على الشاشة !

- سوف يأتي أوان ذلك. انتظري قليلا !

- هذا هو نفس الكلام الذي سمعته منك ونحن في "الفاكهاني".

- ما عليش. اسمعيه مني مرة أخرى وتأكدي أنني سأكون سينمائيا لامعا ذات يوم.

- حتى يحين ذلك الوقت دعني أصارحك بأن ديوانك جميل جدا ومتميز تماما عن أغلب ما قرأت من الدواوين خلال الأعوام الماضية.

- أنا سعيد أن أسمعك تقولين مثل هذا الكلام لكن مع ذلك أكرر لك أن ما كتبته كان لمجرد التسلية. فقط لا غير.

تستدير رنا نحوي وتسألني :

- هل قرأت الديوان ؟

- نعم قرأته.

- وكيف وجدته ؟

- رأيي هو رأيك. لا خلاف بيننا على الإطلاق. وأنا كنت أول من مجد شاعريته غير أنه لم يأخذ كلامي بعين الاعتبار.

صمتت رنا قليلا ثم قالت :

- كل القصائد أعجبتني. لكن هناك قصيدة ذهبت رأسا إلى القلب فحفظتها عن ظهر قلب !.

أسبلت رنا جفونها ثم بدأت تقرأ القصيدة وكأنها تصلي: الآن تستيقظ "الحبانية" مثل كل مساء / وكيكا: الأخرس، الأطرش، الفران / يشاهد فيلما هنديا مع طفله الصغير، صانع سينما الظل: / طفل يحرك شخصياته الكارتونية، يقربها من الورقة الشفافة وسط الشمعتين. / الأول: أبوك لا يسمع، لا يتكلم. / الطفل: أبي مثل السينما، صور، صور، صور / الثاني: وأبي لا يرى / الطفل: إنه يتخيل الأشياء مثل السينما./ الأول: أبي يرى جيدا، يأكل جيدا، يسمع جيدا، يتكلم جيدا، وينام جيدا./ الطفل: إنه شرطي. / والحبانية لم تزل مستيقظة في كوب الشاي / تنتظر صباحها المظلم: / تقفل الكنيسة الصغيرة / يسحل إسحاق ابن رفقة من أمام بوابة الجامع ذي المنارات الشامخة / تكبر المزبلة والأولاد ينشدون: موطني، موطني... / وكيكا الفران، كعادته، يخرج منديله الأبيض من جيب بنطالها الخلفي يمسح عرق جبينه، أنفه، ويلقي بالمنديل في جوف الفرن البارد و"كرجية" تضع أشياءها في العربة الخضراء عند مرتفع الجسر الصغير لحظة الغروب / -أمي، أمي، مابه توقف أبي؟ - دوخنا بزوجته اليهودية. فمن ينقل قبر رفيقته إلى أورشليم في تموز الظالمين؟ / موطني، موطني / وزجاج السقف المربع لم يعد يعكس ضوء الشمس في فراش أختي المبلل بالبول / ولم نعد نسمع "نهرين" تصرخ: / انظري يا أمي، مريم رسمت خريطة الشرق، / ويوسف خريطة الغرب،/ وعلى ظهر الجسر المقوس / رأيت شعر قريا قوس الذي ما عاد مصففا / موطني، موطني / واندريوس اليتيم غارق بين فخذي شديران الجميلة أختي / خلف صفصاف مستشفى الضباط الجمهوريين.

من جديد تظل رنا صامتة لحين ثم تقول له:

- كل طفولتك في الحبانية التي حدثتني عنها عشرات المرات وضعتها في هذه القصيدة البسيطة، الواضحة، الحزينة حد البكاء. وأنا على حق عندما أقول إنك

بالفعل متميز عن جل مجايليك من الشعراء لأن هؤلاء باسم الحداثة يكتبون شيئا يسمونه هم شعرا أما بالنسبة إلي فهو لا يتعدى أن يكون كلاما مبهما، مكلفا، اصطناعيا. لا حياة فيه ولا روح. سيان أن تقرأ القصيدة من البداية إلى النهاية أو العكس لا شيء يتغير حتى عندما تضع البيت العاشر مكان البيت الثاني أو الخامس مكان الثالث عشر. وأنا من زمان انقطعت عن قراءة هذا النوع من القصائد. قبل كنت أبذل جهدا مضنيا لمحاولة فهم وفك رموزها معتقدة أنني دون المستوى. لكن شيئا فشيئا اقتنعت أن هذه القصائد هي في الحقيقة هذيان موجع للقلب والرأس، صادر عن رهط من الشعراء لا علاقة لهم بالشعر أصلا. واليوم حدثتني جوسلين عن دار نشر في بيروت مختصة في إصدار إنتاج الشعراء "الحداثيين"، ضاقت بأكداس ما تنشره فقررت توزيعه مجانا على القراء قبل أن يأكله السوس والفئران. وهكذا زينت واجهات مقرها بالدواوين الشعرية "الحديثة" وعلقت لافتة كبيرة كتب عليها بالأحمر: "لوجه الشعر!" على وزن "لوجه الله" غير أن الناس ظلوا يمرون غير مبالين. لا أحد منهم قبل أن يقتني مجانا ديوانا واحدا من الدواوين المعروضة !.

- ما تقولينه صحيح مائة بالمائة. وأنا موافق عليه تماما. لكن دعينا من الشعر والشعراء وحدثينا عما قالته لك جوسلين بشأن الحياة في بيروت الآن؟

- صعبة للغاية: آثار الحرب لا تزال مرسومة بالغليظ على البلاد والعباد. بيروت خراب وأطلال. الناس تخلوا عن كل القيم وأصبحوا يعبدون إلها واحدا: الدولار! المثقفون يتقاتلون مثل زعماء الميليشيات خلال الحرب الأهلية. لا شيء تبقى مثلما كان. لا أحلام ولا امال. وجوسلين أصيبت بصدمة عنيفة من البداية حتى أنها فكرت في العودة حالا إلى باريس. وأعتقد أن هذا هو وضع جل الذين يعودون إلى بيروت.

أتدخل أنا :

- ليس هذا فقط وضع الذين يعودون إلى بيروت وإنما هو وضعنا جميعا نحن الذين اغتربنا. أنا أيضا حين أعود إلى بلدي أشعر أنني غريب وأنه لم يعد لي مكان هناك. وكم من مرة تمنيت لو أقفل راجعا إلى المطار حتى أستقل أول طائرة تعيدني إلى المنفى. إنه وضع مأساوي ومؤلم للغاية إذ أننا غرباء هناك وغرباء هنا. حتى النهاية سوف نظل على هذا الحال، معلقين في الفراغ الفاصل بين الهنا والهناك !

تعلق رنا بحزن:

صحيح. وأنا على يقين أن الثمن الذي دفعناه يفوق ما دفعته الأجيال السابقة لنا !.

ينتشلنا هو من حزننا بضحكة ساخرة قائلا: لا تفكروا في الثمن دفعتموه أو في ما ستدفعوه بل في المكان الملائم لشرب كأس في هذا الغسق الخريفي الجميل!.

- ما رأيكم في "كعب الحسان"؟ تقول رنا.

ندفع ثم نمضي على مهل بمحاذاة "السين" باتجاه "الماريه" بينما كانت السماء تتزيا بحلة الغسق البديعة التي يمتزج فيها البنفسجي الغامق بالوردي، والأصفر الفوسفوري بالأزرق الداكن، والأرجواني بالرمادي الشبيه بلون مياه النهر عند انطفاء أضواء المدينة في السحر.

قد يكون أندريه مالرو أول من نبهني إلى القيمة الهائلة التي يجسدها الفعل، وقدح في ذهني فكرة مسؤولية المثقف في التاريخ. أذكر أني اكتشفته ذات صيف حارق ككل الأصياف في منطقتنا وأنا بين السابعة عشر والثامنة عشر. كنت قد قضيت أسبوعين عند أخي الأكبر في العاصمة، ثم عدت إلى القرية ومعي عدة روايات اشتريتها من مكتبات "نهج زرقون" و"الأمل" لاندريه مالرو. كان في نيتي أن أنزوي في ظل زيتونة "الجمل" كما هي عادتي كلما انصرفت إلى المطالعة غير أن أمي صاحت بي والعصا في يدها :

- اسمع يا ولد. لن أسمح لك بأن تتركني وأخاك الصغير ندرس القمح. لابد أن تساعدنا وإلا فإني سأحرق كل هذه الكتب التي بين يديك !.

انصعت. تحت شمس كأنها كتلة من لهب بحجم السماء كلها، كنت أظل لنصف ساعة أو يزيد أدور خلف الأحمرة أضربها بقسوة كما لو أنني أرغب في الانتقام من أمي من خلالها. في وقت الاستراحة أحتمي بكوخ القش المقام قرب البيدر، أطفئ عطشي من ماء الجرة المعطر برائحة الصنوبر والإكليل، ثم أغرق في قراءة "الأمل". في الحين أنسى الاحمرة الكسلى وعذاب الحر والدوران، وأطير بعيدا، بعيدا جدا، هناك حيث يدور القتال من أجل الحرية في أحراش اسبانيا العارية مثل أحراش منطقتنا. عند بلوغي نهاية الرواية، تعتريني رغبة حادة في أن أقطع علاقتي

نهائيا بتلك الحياة الفارغة التي أحياها في الأرياف العقيمة، وأمضي إلى حيث بإمكاني أن أكافح من أجل أن تكون حياتي وحياة الآخرين أكثر بهاء، وأعمق معنى.

قبل مالرو فتنني "مارسولت" في "الغريب"، و"روكنتان" في "الغثيان" لسارتر، و"جوزيف.ك" في المحاكمة لكافكا. وقد بدا لي أني سأكون على صورتهم في المستقبل، فردانيا حتى الأقاصي، لا مباليا حد العدمية المطلقة، منزويا في ركن قصي بعيدا عن صخب الجموع أجتر أفكاري وهلوساتي وكوابيسي. ولما قرأت مالرو، تغير مفهومي لنفسي وللحياة تغيرا جذريا. وها أنا أكتب على دفتري بالأحرف الغليظة قولة فاتسان بارجير مي "غرقى التنبرج": "الإنسان ليس ما يخفي بل ما يفعل" مقررا أن أجعلها شعاري في المستقبل. حالما أكون ذات يوم شبيها بـ"كيو" في "الوضع الإنساني"، وبـ"مانويل" في "الأمل" وبـ"جارين" في "الغزاة" وبـ"باركين" في "الطريق الملكي"، ذلك أنني أصبحت مثلهم أرى أن المغامرة هي أساس الوجود، وأن الحياة لابد أن تكون مرتبطة بفعل عظيم أولا تكون، وأن على الفرد أن يترك بصماته على خارطة الواقع والتاريخ قبل أن يمضي إلى العتمة الكبيرة.

أفكار مالرو كان لها تأثير حاسم في في ما بعد. ولعلها كانت أحد الحوافز الأساسية التي دفعتني للقيام برحلة إلى الشرق، ثم إلى الالتحاق بالحركة اليسارية في بلادي، وعندما عدت إلى قريتي فارا من ذلك الإحساس المريع بالهزيمة والعقم عقب سنوات مفعمة بالأمل في الثورة بين رفاق ذلك البيت البائس في حي "ابن خلدون"، بدأت وأنا أتمشى في الدروب الرملية أراجع مسيرتي وأفكاري وقناعاتي السابقة وإذا بي أكتشف أن كل ما قمت به لم يؤد إلا إلى خسارتين فادحتين: الأولى هي أني خسرت نفسي ولم أعد أعرفها رغم أننا نعيش داخل جسد واحد. والثانية هي أني فشلت في ترك خدش بسيط باهت على سطح ذلك الواقع الذي كنت عازما على تغييره. بل أنني أحسست أنه ازداد صلابة ورفضا لي. وعندما حدثت خالد بإحساسي هذا، قال لي: "كان عليك أن تفهم منذ البداية أن الشرق لم يعد منذ زمن مديد أرضا للمغامرات والأحلام والطموحات. إنه مقبرة لمخلوقات شبه حية، شبه ميتة. لذا على المغامر إن ابتغى حقا أن يكون لمغامرته معنى

ونتيجة أن يختار مكانا آخر غير الشرق !". بعد أن وقفت على كل هذا، وسبرت أغوار تجربتي الماضية عزمت على إنقاذ ما يمكن إنقاذه أي نفسي. وتأكد لي أن ذلك لن يتم إلا عبر القطيعة التامة مع الإيديولوجيات التي خربت حياتي على مدى ما يقارب العشر سنوات والعودة إلى الكتابة والعزلة.

كانت هذه الأفكار تتماوج في ذهني وأنا أصعد هضبة "كف الشعابين" النحاسية اللون، الواقعة شمال القرية. لم أكن أسمع غير خطواتي وهرج أطفال في المسرب الأحمر المؤدي إلى المدرسة. فجأة طلع علي من بين الصخور غرس الله. كان نصفه الأسفل مغطى بقطعة باهتة اللون من الصوف الخشن. أما نصفه الأعلى الذي بدا بلون الصخور فقد كان عاريا تماما. وكانت لحيته الكثة متسخة بالقش والتراب والرماد، وعيناه ملتهبتين، وساقاه حافيتين، وعلى وجهه آثار الثلاثين عاما التي أمضاها في الجبال والأحراش. ولأنني أعلم أنه يمقت أن يفاجئه أحد وهو غارق في عزلته وتأملاته، فإنني تراجعت إلى الوراء وفي نيتي أن أفر بأقصى السرعة حتى لا يأخذ في الصياح محتجا على ما فعلت. غير أنه أشار علي بأن أتقدم، فتقدمت واجف القلب، ناشف الريق، وفي الركبتين رعشة. أشار علي ثانية أن أجلس، فتربعت على بعد خمسة أمتار منه. تربع هو أيضا. ثم صامتا أوقد نارا وشرع يعد الشاي.

تأملت فيه. بدا لي أنه لم يتغير كثيرا عن الصورة الأولى التي رأيته عليها وأنا في السابعة أو الثامنة من عمري. أذكر أني كنت أسير وحيدا في قيلولة قائظة وإذا به يبرز لي من بين أشجار الزيتون وهو عار كما أنجبته أمه. حسبته جنا من أولئك الجن الذين يتحدث عنهم الناس في الخرافات، فأطلقت صرخة مدوية، ثم ركضت باتجاه بيتنا دون أن أكف عن الصراخ.

لما رويت لأمي ما رأيت قالت لي:

- آ... إنه البهلول غرس الله. إذا رأيته المرة القادمة فعليك ألا تخاف منه لأنه لا يؤذي أحدا ولا يكلم الناس إلا في ما ندر !". الناس يقولون إنه كان شديد الخوف في صباه ومراهقته حتى أنه لم يكن يجرؤ على الخروج لوحده ليلا للتبول. وكان صموتا، دؤوبا على أن يبدو نظيفا طول الوقت، معرضا عن الجلوس إلى الناس، نفورا من الأعمال الزراعية. ولما أرسل إلى المؤدب ليحفظ القرآن، أبدى

مقدرة عجيبة، وذكاء حادا حتى أن أباه باع بعضا من شياهه وأرسله إلى القيروان آملا أن يلتحق في ما بعد بجامع الزيتونة ويصبح فقيها ذا شأن. مر عامان والفتى على حاله، مواظب على دروسه، محافظ على عاداته في النظافة والصمت والعزلة. وعندما يعود من هناك، يتحلق الناس حوله فيرتل عليهم القرآن، وأحيانا ينشدهم البردة فيبكون حتى يختنقوا بدموعهم. لكن فجأة تغيرت أحوال الفتى: ذهب أخوه الأكبر ليزوره فإذا به يعود مبهوتا، مبعثر الخطوات، ليروي للناس أنه وجد أخاه وقد تغير حتى أنه لم يتعرف عليه إلا بصعوبة بالغة. فقد أطلق لحيته، ولبس الصوف الخشن، وأخذ يتردد على المقابر ليلا بل ينام فيها أحيانا، ويصاحب شيخا مشردا، أعمش العينين، متقرح الجسد، مكشوف العورة، يهذي بكلام غريب، وتعتريه بين وقت وآخر نوبات جنون فيطلق صوته عاليا بالصراخ. ضاربا رأسه على الحائط. ويظل على هذا الحال إلى أن يسقط على الأرض مغشيا عليه والدم ينهمر منه بغزارة. وقال الأخ الأكبر إنه لما رغب في التحدث إلى غرس الله ولاه ظهره. فلما ألح، نهره بشدة وهو يصيح فيه:

- عد من حيث أتيت. من الآن لا رابط بيني وبينك ولا بيني وبين الآخرين. بما في ذلك أبي وأمي!

وجم والد غرس الله وجوم من فقد عزيزا عليه. أما الأم فقد ولولت ملتاعة. ومن الغد، ذبحت ديكا أسود أمام ضريح سيدي أحمد بن أبي سعيد وظلت طول النهار تصلي كي يشفي الله ابنها من أذى العين الشريرة التي أصابته.

ثم اندلعت الحرب العالمية الثانية فنشرت الموت والدمار والفجيعة في كل مكان. عاد أخو غرس الله من القيروان في يوم شتائي أغبش ليخبر الناس أن أخاه اختفى دون أن يخلف أثرا. باع الوالد قطيعا آخر من شياهه وأرسل ابنه الأكبر إلى العاصمة وإلى مدن أخرى بحثا عن أخيه لكنه كان يعود دائما خاوي الوفاض. وكان الألمان يمرون بدباباتهم بالقرب من قريتنا، حين شاعت أخبار تقول أن غرس الله شوهد في بلاد الجزائر، وأخرى تقول إنه شوهد وهو يقطع الحدود باتجاه طرابلس. بل إن شيخا وقورا من دوار مجاور أكد أنه لمحه وسط الحجيج في مكة المكرمة. بعد مرور خمسة أعوام على

اختفائه، بدأ أهله يتصرفون وكأنه دفن منذ زمن بعيد. لكن والناس يتأهبون للحرث عقب أمطار غزيرة استمرت أياما وليالي منهية بذلك عامين كاملين من القحط والجدب، برز غرس الله من جديد وقد ارتدى جبة قمراية، وشاشية مثل تلك التي يضعها الأكابر، وانتعل حذاء رفيعا من الجلد الأسود، وأشرق وجهه بالنعمة والعافية.

قبل أن يتفوه أحد بالسؤال عن أسباب غيبته الطويلة وأطوارها، صاح غرس الله:

- أنصتوا جيدا. لن أتحدث بشيء ولن أجيب عن أي سؤال. ها قد عدت. أليس هذا كافيا؟!

في نفس الشهر الذي عاد فيه، اشترى غرس الله شياها لأبيه، ورمم جزءا من البيت كان قد تهدم أثناء غيابه، ثم أرسل أهله لطلب يد زينب أجمل بنات عمي الحسني.

لمدة سنة تقريبا، عاش غرس الله مع زوجته في وئام لم يعهد له الناس مثيلا في قريتنا. لم يصح في وجهها مرة وحدة، ولم يجرحها بكلمة نابية، أو يوجعها بسلوك. بل إنه كان غالبا ما يساعدها في أشغال البيت، وهو ما لم يكن يقبل به رجال قريتنا بأي حال من الأحوال. وكانت هي تفاخر به أمام النساء قائلة:

- الله أنعم علي برجل لا مثيل له في بر تونس كلها !

في صيف العام التالي، والناس مستسلمون لنوم القيلولة، خرج سالم الأحمر من حانوته ليتبول فرأى في الطريق الضيق المتجه لبيت عمي الحسني مشهدا غريبا: غرس الله يركب زينب مثلما يركب حمارة ويضربها بقسوة وهي تولول طالبة النجدة. خرج الناس وهم يفركون عيونهن من آثار النوم الثقيل وتجمعوا أمام بيت عمي فاغري الأفواه من الدهشة. نزل غرس الله من فوق ظهر زينب، ثم خاطب عمي الذي وقف شاهرا عصاه:

- اسمع يا شيخ الحسني. هذه أمانتك ردت إليك. أما أنا فقد طلقتها وطلقت معها هذا القرن وأهله !.

منذ ذلك الحين وغرس الله يعيش في الأحراش والجبال. ينام في الكهوف والمقابر. عند اشتداد البرد، يوقد نارا هائلة، ثم يتمدد فوق الرماد عاريا. لم يمرض قط ولم يحضر زفافا أو مأتما. لا أحد يجرؤ على الاقتراب منه إلا إذا كان هو راغبا في

ذلك. وقد أباحت حياته هذه للناس أن ينسجوا حوله أغرب الحكايات وأعجبها حتى أن البعض منهم زعموا أنه متزوج من جنية وأنهم شاهدوه معها أكثر من مرة.

مد لي غرس الله كأس الشاي، ثم سألني:

- من زمان لم أسمع عنك خبرا. أين كنت؟

حدثته بالتفصيل عن رحلتي إلى الشرق ثم عن أيام السجن وسنوات البطالة والتشرّد. أصغى إليّ بانتباه شديد وعيناه مثبتتان عليّ ثم سألني:

- ولم عدت إلى القرية؟

- عدت لأني شعرت في الفترة الأخيرة أنني لم أعد أعرف نفسي. وقد فكرت أنه ربما يكون باستطاعتي وأنا في هذا الخلاء والصمت أن أربط الصلة من جديد معها وأن أعرفها.

أطرق طويلا ثم قال:

- أعتقد أن معرفة الذات هي أعسر تجربة يقوم بها الإنسان. نحن دائما نتوهّم أن العدو الحقيق يكمن خارج أنفسنا غير أن التجارب المريرة التي عشتها علّمتني أن العدو الداخلي عادة ما يكون أعتى وأشرس من أي عدو آخر. أنت تعلم أني أعيش في هذه الأحراش وحيدا منذ ما يزيد عن الثلاثين عاما. في كل يوم أسافر داخل شعاب نفسي ساعيا لاستكشاف خفاياها وأسرارها. مع ذلك أحس أني لم أتمكن حتى هذه الساعة من أن أعرفها جيّدا. ولعلّي سأموت دون أن أصل إلى نهاية الرحلة !

مكثت مع غرس الله حتى الغروب ثم عدت إلى البيت وقد أفعمت روحي طمأنينة لتجاوز المحنة وأشرف على ساعة الخلاص. في الليل، تمددت في الفراش دون أن أضيء مصباح الكيروسين. من النافذة المفتوحة كان باستطاعتي أن أرى النجوم، وأن أسمع هسيس الليل وهو يتقدم بهدوء وبطء. فكرت في كلمات غرس الله. بدا لي أنه أضاء في طريقي كما لم يضئه أحد من قبل. ظللت هكذا إلى أن لمحت في الأفق ابتسامة الفجر الأرجوانية. نهضت وغادرت البيت. لفحني نسيم بارد طرد عني تعب السهرة الطويلة. واصلت السير إلى أن توغلت في الشعاب، عندئذ بدا لي أن رحلتي داخل نفسي قد بدأت، وأنه بات محتما علي أن أضع كل شيء موضع السؤال.

في القيروان تواصلت رحلتي داخل نفسي. كنت أقضي الشطر الأكبر من الليل في الكتابة. أما النهار فأقسمه بين جولات في المدينة القديمة وبين المطالعة في المكتبة العامة حيث كتب التراث التي لم تكن إمكاناتي المادية تسمح لي باقتنائها. وقد ساعدتني هذه الكتب على صقل لغتي التي حنطتها الشعارات والإيديولوجيات حتى أضحت يابسة جوفاء.

كانت غيباتي في القيروان تطول. أحيانا تستمر ثلاثة أسابيع وأحيانا أكثر من ذلك. وتلك المرة تغيبت ستة أسابيع بأكملها تمكنت خلالها من إعادة قراءة "ألف ليلة وليلة" في طبعة بولاق. كما كتبت قصة طويلة ولد موضوعها في ذهني أثناء إقامتي في القرية. ولما صعدت إلى العاصمة لم أعثر على أحد من "الفتية الشرسين". بحثت عنهم الصباح بكامله في مقاهي "باب البحر" لكن دون جدوى. تغديت وحدي في مطعم "طونطونفيل". وكنت على وشك أن أدفع حين لمحت ذلك الفتى الشاحب الذي يلازم خالد مثل ظله يفتش عن مكان شاغر. ناديته فأخبرني أن خالدا سافر فجأة إلى نيويورك وأنه ينوي الإقامة هناك لفترة طويلة. أما الفتى العراقي فهو عاشق متيم.

في نهايات المساء كنت أشرب بيرا في مقهى "الانترناسيونال" لما رأيت الفتى العراقي مارا وقد تأبط ذراع فتاة كنت أشاهدها دائما في الندوات والنوادي الثقافية. ركدت إلى الشارع وناديته فاستدار وهو منزعج إلى حد ما.

- آ... هو أنت !، قال حالما وقعت عيناه علي.

- تعال !

- لا أستطيع. أنا مشغول كما أنت ترى. لكن سآتي إلى "طونطوفيل" في المساء.

- في الساعة الثامنة جاء إلى "طونطوفيل" وقد بدا عليه الانشراح والسعادة. قلت له:

- سمعت أنك عاشق متيّم !

- نعم. أنا بالفعل كذلك. وبإمكاني أن أقول لك إني لم أحب في حياتي امرأة كما أحببت فائزة (هذا هو اسم الفتاة).

- بلغني أيضا أنك عازم على الزواج منها.

- هذا صحيح أيضا. وأنا أفكر في الإقامة هنا نهائيا من أجلها. قبل كنت أعتقد أن حلمي بأن أصبح سينمائيا شهيرا سوف يكون أقوى من كل شيء. أما الآن فأنا أريد فائزة فقط. لا غير !...

صمت قليلا ثم أراح ظهره على الكرسي وقال وهو مغمض العينين :

- يا إلهي. ما كنت أتصور أن التونسيات لذيذات إلى هذا الحدّ !

أضواء الغروب الخريفي تتراقص على صفحة "السين". الأرصفة مغطاة بالأوراق الميتة. عاشقان يتبادلان قبلات محمومة على جسر "سان ميشيل". جسور. جسور. جسور. "تحت جسر ميرابو يتدفق السين وقصص حبنا" غنى ذلك الرائع أبولينير قبل أن يموت برصاصة في الرأس. أما باول تسيلان فقد رمى نفسه في النهر من فوق أحد الجسور ذات ليلة باردة من ليالي نيسان. كثيرون هم الذين قضوا على هذه الجسور وعلى هذه الضفاف غير أن النهر يمضي منذ الأزل باتجاه مصبّه النهائي غير عابئ بشيء. وأنا عندما جئت إلى هذه المدينة أول مرة، في مطلع وصولي لصديقي المنصف الذي قبل أن أقاسمه غرفة السطح التي يسكنها في "مونبارناس" :

- أريد أن أرى الفجر على نهر "السين".

- لك ذلك، قال.

ظللنا ننتقل بين البارات حتى بان الفجر. تركته يرتشف قهوته على مهل، ووقفت على جسر "سان-ميشيل". وهناك ظللت حتى سطع النهار الربيعي على صفحة النهر.

- أحيانا أضيق بهذه المدينة ضيقا شديدا حتى أنني أكون مستعدة للذهاب إلى أتعس مكان في الكون لكي أنساها. لكن حالما أغادرها أشعر بحنين جارف إليها، وأتأكد أنه ليس باستطاعتي أن أعيش بعيدة عنها، تقول رنا.

- أنا أيضا برغم العذاب المرّ الذي أتجرّعه فيها يوميا، أنا على يقين تام أني لا أقدر على العيش في أي مدينة أخرى غيرها. حتى لندن التي أعشقها لا يمكن أن تعوضها.

- أما أنت فيبدو أنك برئت من حبك لها، تقول رنا.

- لا... أبدا. بل أعتقد أن العيش بعيدا عنها أجج حبي لها أكثر من ذي قبل. وكلما ضاق بي الحال هناك في ميونيخ، أشعر أن المدينة الوحيدة القادرة على أن تعيد لي الحيوية والتوازن هي باريس لا غيرها.

- باريس وطننا الأخير وقبرنا في النهاية، يقول هو.

تركت الفتى العراقي عاشقا وسافرت. منذ أن استرجعت جوازي، أصبح السفر شيئا أساسيا في حياتي، أمارسه بنفس المتعة والحماس اللذين أمارس بهما القراءة والكتابة. خلال فترة قصيرة، جبت مدنا عديدة: باريس، لندن، مدريد، الدار البيضاء، الرباط، مراكش، روما، فلورنسا، ميلانو، لوزان، جنيف... لم يكن يعنيني أن أنام في الشارع، أو في فندق حقير أو أن أكتفي بساندويتش واحد طول النهار. ما كان يهمني هو اكتشاف تلك البلدان وتلك المدن التي هفت نفسي لرؤيتها خصوصا في سنوات الحرمان من الجواز. في كل سفرة أقوم بها، ازداد توغلا في مجاهل نفسي، وأسفر عنها بعضا من ذلك الغبار الكثيف الذي كان يحجبها عني. ألم يسم العرب السفر سفرا لأنه يسفر عن وجوه المسافرين وأخلاقهم فيظهر ما كان خافيا منهم وسموا المسافر مسافرا لكشفه قناعا يكن عن وجهه، ومنزل الحضر عن مكانه، ومنزل الخفض عن نفسه؟!

الرباط كانت محطتي الأولى. مكثت فيها خمسة أيام قابلت خلالها العديد من المثقفين ومعهم أجريت حوارات لمجلة عربية مهاجرة في لندن بدأت أعمل مراسلا لها منذ ما يقارب العامين. تجولت طويلا في المدينة العتيقة متأملا أشكال أجساد النساء المثيرة في الجلابيات الملونة.

شربت الشاي أمام "أبي رقراق". أكلت "الهرقمة" في "السويقة" أواخر الليل مع السكارى والعاطلين والنشالين والشواذ. نمت مع فتاة في السابعة عشر من عمرها تعشق أغاني عبد الحليم حافظ وتحلم أن تكون ذات يوم ممثلة مشهورة مثل سعاد حسني. ثم غادرت الرباط إلى طنجة. وضعت حقيبتي في فندق صغير يطل على الميناء ثم انطلقت أبحث عن محمد شكري الذي فتنني كتابه "الخبز الحافي" حتى أني قرأته مرتين متتاليتين دون أن أصاب بالملل. في الرباط قالوا لي: "ليس من

الصعب أن تعثر على محمد شكري في طنجة. أغلب ماسحي الأحذية وباعة الصحف ونادلي المقاهي والبارات والمطاعم يعرفونه". وكان الأمر كما قالوا. فما إن سألت عنه نادلا في "المقهى المركزي" حتى أشار إلى الركن الذي على يساري قائلا: "إنه هناك !".

اقتربت منه. بعد أن قدمت نفسي سألته: "هل عندك وقت!". أجاب مبتسما: "دائما عندي وقت لكن للأشياء المهمة فقط !".

ظللنا نشرب البيرة ونتحدث في مواضيع مختلفة إلى أن أوشكت الظهيرة على بلوغ نهايتها. عندئذ قال لي شكري: "أعتقد أنه حان الوقت للتجول بين حانات طنجة إذ أني أرى أنها أفضل الأماكن لمعرفة هذه المدينة وأهلها !".

تنتهي سهرتي مع محمد شكري عند بدايات الفجر. يرافقني مشيا على الأقدام حتى الفندق. يودعني قائلا: "لم تعد لي رغبة في النوم. سأنتظر النهار في إحدى مقاهي البولفار".

قطعت مضيق جبل طارق تحت شمس نوفمبر الفاترة. من مالقة ركبت قطارا ليليا أوصلني فجرا إلى مدريد. جلست في مقهى صغير بـ "بوارتا دال صول" أنتظر طلوع النهار. برد لاذع. ضباب خفيف يغلق الشوارع. الناس يهرولون إلى أعمالهم. أغلب الزبائن في المقهى الذي أنا فيه يشربون قهوتهم على الكونتوار مثرثرين بأصوات عالية بلغتهم التي لا أفهم منها شيئا غير أنها تسليني وتطربني. أمد رجلي وأسترخي. تسري في جسدي نفس تلك السعادة التي غمرت روحي لما وصلت إلى باريس أول مرة، ووقفت على كونتوار في بار في سان مشيل، وحقيبتي في يدي، لأشرب بيرة. في بلادي، وفي جميع المدن العربية التي زرتها خلال رحلتي الفاشلة، لم يحصل لي مطلقا أن تذوقت مثل هذه السعادة حتى ولو للحظة قصيرة. دائما أحس أنني محاصر. محاط بالممنوعات من كل النواحي. حتى عندما أكون وحيدا. منعزلا في مكان قصي، فإن هذا الشعور لا يفارقني أبدا. يصعب علي أن أعطي تعريفا محددا لهذه السعادة. أقول فقط إنها ناعمة مثل ورق الورد. بفعلها يفتر الجسد، ويصبح خفيفا حتى يخيل لنا أننا نطفو في الهواء. وأنا لا أعتقد أن أحدا من غير

أولئك الذين استعادوا حريتهم بعد أن سلبت منهم لأمد طويل بإمكانه أن يحسّ بمثل هذه السعادة. أشرب كونياكا. أغمض عيني. تطوف في ذهني قصيدة لشاعر إشبيليه أنطونيو ماتشادو يقول فيها:

أيها العابر، آثارك هي الطريق / لا شيء أكثر... / أيها العابر، ليس ثمة طريق، / تتشكل الطريق لدى المسير / لدى المسير تتشكل الطريق / وحين نلتفت إلى الوراء / نشاهد الدّرب الذي / ليس لنا أن نعود فنطأة أبدا، / أيها العابر، ليس ثمّة طريق / بل نقوش على البحر.

عثرت على بنسيون صغير قرب ساحة (مايور) تملكه عجوز قصيرة، شعثاء الشعر، تعاني من آلام النقرس، وتبدو شديدة الشبه بـ"الباسيونارا" في أخريات أيامها. تحممت ثم رميت نفسي في الشوارع كما يرمي الواحد نفسه في البحر في يوم قائظ. عند الظهر دخلت متحف "البرادو". أمضيت هناك أربع ساعات. توقفت خلالها طويلا أمام لوحات فالسكيز وزورباران وخوزيه دي ريبيرا، وبالخصوص أمام "اللوحات السوداء" التي غطى بها جويا حيطان بيته في السنوات الأخيرة من حياته، عندما اشتدت عليه أوجاع المرض، وحاصرته كوابيس الموت.

بعد خمسة أيام أمضيتها في مدريد، انطلقت إلى باريس في قطار السادسة مساء. معي في المقصورة سيدة إسبانية سمينة تضع كمية هائلة من المساحيق على وجهها الذي كانت لا تزال فيه بقايا جمال، وكهل خمسيني عبوس، يابس، له وجه راهب متزهد لم يتبادل الحديث مع أحد حتى نهاية الرحلة، وطالبة من مدريد تدرس الأدب الفرنسي في باريس اسمها باتريسيا متوسطة الجمال غير أن نصفها الأسفل بدا لي مغريا في بنطلون الجينز الضيق. ثرثرت السيدة الإسبانية عن حياتها في باريس، وعن ابنتها التي تعمل عارضة أزياء، وعن زوجها الشيوعي الذي لجأ إلى فرنسا في عهد فرانكو. بعد الساعة الحادية عشر، أخلدت إلى النوم. أما الكهل فقد نام قبلها بما يزيد عن الساعة بقيت أنا وباتريسيا في الممر. أتينا على الدجاجة وعلى الجبن وشربنا زجاجة النبيذ. تحدثنا عن باريس وعن الأدب الفرنسي خصوصا عن مارجريت دوراس التي تعشقها باتريسيا. جدية الحوار الذي دار بيني وبينها أذبل

أملي في أن أنال منها شيئا. بعد أن تجاوز القطار الحدود، اعتذرت منها ودخلت المقصورة لأنام. وكنت لا أزال أتقلب في الفراش لما انفتح الباب، وانحنت علي باتريسيا لتهمس لي: "اسمع... لا أشعر بأي حاجة للنوم. هل لك رغبة في مواصلة الحديث". التحقت بها في الممر. القطار يقطع جبال "البريني" مطلقا صفيرا موحشا بين الحين والحين. وجه باتريسيا ملتهب بسبب النبيذ الأحمر وفمها منفرج قليلا كما لو أنها تشتهي قبلة. مددت يدي ورحت أداعب رقبتها. أغمضت عينيها. ازددت اقترابا منها. أحسست بجسدها يتفتح مثل زهرة. دخلنا التواليت. عند وصولنا إلى باريس، رافقتني إلى الفندق، ومكثت معي حتى الظهر.

باريس لذيذة، حنون، حالمة، منتشية مثل عاشقة غارقة في الغرام. وأنا أمشي تحت ثلوج ديسمبر. ساعات طويلة وأنا أمشي كما لو أنني أرغب أن أختزن المدينة بكل ما فيها في الذاكرة. أحيانا أتوقف لشرب كأس أو للتطلع إلى واجهات المكتبات، ثم أواصل السير من جديد تحت الثلوج المتهاطلة بوداعة الحمام. أمشي وبي إحساس أن كل الشوارع التي أمر بها، وكل الساحات التي أقطعها، تروي أحداث روايات وقصص التهمتها في مراهقتي وشبابي الأول، وتنشد قصائد حفظتها عن ظهر قلب تحت شموس قريتي الحارقة. أمشي وباريس متاهتي البودليرية التي ترسخ في الشعور بأنني أصبحت حرا طليقا.

نعم أنا الآن حر طليق. وباريس ليست ذلك "الوحش الحديث" كما وصفها بالزاك، وإنما هي نفسي التي عادت إلي مثلما تعود الحبيبة إلى أحضان حبيبها بعد انفصام طويل.

أمشي غير عابئ بهذا الشتاء المثقل بالبرد والثلوج، فأنا منذ شاهدت في الثالثة عشر من عمري ذلك الفيلم الذي يروي قصة حب عاصفة في بلدة صغيرة تغطيها الثلوج، وأنا أتمنى أن أكون في أحضان شتاء أبيض قاتم كهذا، ينسيني عذاب دروب الرمل في الصيف، ويبعدني عن الغبار والذباب ووحشة العيش في البوادي في أزمة الجفاف والقحط.

أمشي في باريس التي تتهيأ لأعياد الميلاد ورأس السنة. شموع تغمز لي من وراء الستائر. أنغام السمفونيات الكلاسيكية تتعالى من كل النواحي شبيهة بهمسات

الملائكة عند ارتكاب آدم وحواء الخطيئة الأولى. عيون الباريسيات الزرقاء، الخضراء، السوداء، العسلية، تتماوج مشعة بالحب والرغبات. معاطفهن بألوان عيونهن تبرز مفاتن أجسادهن. موسيقى خطواتهن على الأرصفة البيضاء تداعب قلبي برقة ولطف كأنها قبل في دفء الفراش. ضحكاتهن تتطاير في الهواء البارد مثل أطباق من فضة. وأنا أمشي في باريس التي تتمرغ في تلك الغبطة التي تسبق ميلاد العام الجديد، وبي إحساس أن رأسي الملتهب بالأحلام والأفكار والأماني يلامس السماء مثل برج بابل.

يشرع الليل في الهبوط فأهتف لشانتال. نتواعد على اللقاء في مطعم مغربي صغير في "مونمارتر" كنا ارتدناه من قبل عدة مرات. أسبقها إلى هناك. أطلب قنينة "بوردو" حمراء. أشرب كأسين بسرعة. وأنا أملأ الثالث، تدخل شانتال وقد ارتدت معطفا أسود، ولفت عنقها بشال أزرق بلون عينيها.

- أنت كعادتك لا يمكن أن تصبر على الشراب أبدا !. تقول باسمة.

أحتضنها وأطبع على فمها الشهي قبلة طويلة توقظ في جسدي رغبات قديمة، أيام كنت أجامعها على مراكب شاطئ بنزرت في السحر أو الأصيل بينما السماء وراءنا أو أمامنا بلون العسل. تعلق معطفها على المشجب ثم تجلس. أملأ كأسها ونشرب على نخب صحتنا. أحدثها عن تونس وعن مدريد وعن مشاريعي الجديدة خصوصا في مجال الصحافة والكتابة. تعلمني أنها أمضت أسبوعين ممتعين في جنوب المغرب مع صديقها الجديد. تقرصني الغيرة فأحاول جرها بعيدا عن ذلك غير أنها تصر على مواصلة الحديث في نفس الموضوع. صديقها الجديد ممثل. عاش طويلا في إسبانيا حتى أنه أصبح إسبانيا أكثر من الإسبان. تعرفت عليه في حفل عيد ميلاد إحدى صديقاتها. هو يدعى... لا أريد أن أسمع. تضع راحتها على ظهر يدي:

- مالك؟، تسألني.

- لا شيء !، أقول.

- تسحب يدها وتقول:

- طيب. فلنغير الموضوع !

أتنفس الصعداء. لا أستطيع أن أبرأ من حبي لها. وقد حاولت هي مرارا أن تبين لي أن كل شيء انتهى بيننا، ماعدا الصداقة البريئة، وأنا من جانبي سعيت بكل

جهدي أن أقنع نفسي بذلك غير أن الفشل كان لي دائما بالمرصاد. إن حبي لها يأبى أن يخمد. ولا امرأة من اللائي عرفت بعد السنوات العجاف التي عشتها، تمكنت من أن تعوضها، ومن أن تطفئ النار التي أوقدتها في كياني قبل ما يقارب الثمانية أعوام... وقتها كنت أدرس في القيروان.

في عطلة الربيع صعدت إلى بنزرت.

ظهيرة يوم دافئ مشمس أمضيت شطره الأول في التجوّل على الشاطئ، كنت ممددا على الفراش أقرأ الجرائد، حين سمعت طرقات على الباب. فتحت فوجدت نفسي أمام فتاتين أجنبيتين. واحدة نحيلة تترقرق في الوجه المائل إلى الشحوب. الثانية أقصر من الأولى قليلا. متناسقة التكوين. بشعر قصير أشقر وصدر شهي وبنطلون دجينز وجاكتة جلدية سوداء على تي-شورت أزرق داكن. وفي العينين الزرقاوين شيء من تلك الوقاحة المستحبة.

- هل بإمكاننا أن نتحدث إلى السيد(...)، قالت النحيلة.

- أنا هو، قلت.

أشرق الوجهان ولمعت ابتسامتان في عتمة الممر الخفيفة.

- آ... -أردفت النحيلة- نحن سعيدتان بالعثور عليك بمثل هذه السرعة. صديقك المنصف هو الذي أعطانا عنوانك ونصحنا بزيارتك.

المنصف؟ !، سألت مستغربا.

- صديقك المنصف الذي يعيش في باريس. هل نسيته؟!

- آ... أهلا وسهلا... تفضلا.

صديقي المنصف الذي كان أقرب الأصدقاء إلي خلال الفترة الجامعية اختار طريق الغرب بينما اخترت أنا طريق الشرق. قال لي ونحن نتأهب للسفر، هو بحرا باتجاه مرسيليا، وأنا برا باتجاه طرابلس الغرب:

- ستعود خائبا من هناك. أنا على يقين من ذلك !

- وما الذي يجعلك متيقنا إلى هذا الحد؟ !

صمت قليلا ثم قال :

- اسمع يا صديقي أنا لا أعرف الشرق إلا من خلال الكتب والصحف والمجلات. لكن حدسي يقول لي إنه لا شيء مهما يحدث هناك. فالشرق الذي نحلم به قد اندثر وأضحى أثرا. والذهاب إليه سوف يكون بمثابة الذهاب إلى مقبرة هائلة تبرز شواهد قبورها أمجادا قديمة غير أن هذا لا يعني أنها ليست مقبرة مثل كل المقابر الأخرى!

سخرت من أقواله وسافرت. عند عودتي من سفرتي الخائبة تمكنت من الحصول على عنوانه وكاتبته فرد علي قائلا: "حسنا فعلت إذ لولا التجربة المرة التي عشتها لما تخلصت مطلقا من تلك الأوهام التي كانت مستبدة بك. الآن بإمكانك أن تبدأ حياتك على أرض صلبة. لكن حذار من الأوهام!" -ومرة أخرى لم تجد نصيحته نفعا إذ أنني سرعان ما غرقت في الأوهام من جديد -.

- اسمي مونيك. وصديقتي تدعى شانتال، قالت النحيلة، ثم أضافت: أنا أستاذة فلسفة. وهي مضيفة في إير-فرانس.

في المساء تجولنا في المدينة العتيقة وعلى الشاطئ. عند الغروب شربنا شايا في مقهى صغير قرب "الميناء القديم" ثم توجهنا إلى مطعم "السبور-نوتيك" حيث تناولنا طعام العشاء. شربت أنا كثيرا وحدثتهما عن رحلتي الخائبة إلى الشرق. إثر ذلك أعلمتني شانتال أنها ولدت في بيروت حيث كان والدها يعمل في السفارة الفرنسية هناك: لكن لم أعد أذكر من بيروت إلا "الروشة" التي كانت المكان المحبب لأمي في جميع الفصول، والآن كلما التقيت لبنانيا إلا وسألته عن حال "الروشة". ثم انفجرت ضاحكة. في هذه اللحظة التهب قلبي بحبها.

عقب يومين، رافقتهما إلى تونس ثم إلى القيروان. في الحافلة العجوز التي أخذتها إلى هناك، لامس فخذي فخذ شانتال أكثر من مرة، فلم تبعده، ولم تبد أي نفور بل أحسست أنها استلذت مثلي ذلك. بعد أن تجاوزنا "النفيضة" غفت فسقط رأسها على كتفي. ولما استيقظت بعد حوالي عشرين دقيقة، رأيت في عينيها الزرقاوين بريق الشهوة يرقص مثل فراش حول قنديل. فيما بعد، قالت لي: "في الحافلة اشتهيت أن تجامعني هكذا أمام الناس. لقد كانت رغبتي للحب في أوج اضطرامها!".

أمضينا يوما كاملا في التجول في الأسواق القديمة وفي الأماكن الأثرية. تعشينا في مطعم شعبي صغير ثم عدنا إلى البيت الذي كنت أسكنه آنذاك مع قريب لي.

ثرثرنا حتى الساعة الحادية عشر ثم غلبنا التعب فقررنا أن ننام. أعددت لكل واحدة منهما فراشا في الغرفة التي أسكنها. كانت مونيك تنظف أسنانها، نزعت شانتال بنطلونها، فاستبدت بي حمى الشهوة حتى أنني بعد انطفاء الضوء، لم أتمكن من النوم. ظللت أتقلب. هل أذهب إليها؟ أم لا أذهب؟... سأذهب وليكن ما يكون! حتى إذا ما صدتني فأنا على يقين أنها ستفعل ذلك بهدوء ومن دون أية فضيحة. أما مونيك فمن الصعب أن تستيقظ لأنها أخذت حبة نوم. وحتى إذا ما استيقظت، فإنها ستغض الطرف ! تسللت إلى فراش شانتال. مددت يدي في العتمة الحريرية فلامست جسدها العاري تحت الغطاء، اندست بجانبها فهمست: "كنت متيقنة أنك سوف تأتي!".

بعد أسبوعين من سفرهما، ذهبت إلى محطة الحافلات في القيروان لأستقبل "الأستاذ" الذي كان قد أبلغني عن طريق صديق أنه قادم في حافلة الخامسة مساء. وصلت الحافلة في موعدها لكن لا أثر "للأستاذ". وعندما كنت أتمعن يائسا في وجوه المسافرين، رأيت شانتال تندفع نحوي بعينيها الزرقاوين مثل موجة عاتية:

- ها أنذا ! -قالت- لم أكن واثقة من العثور عليك غير أنني مع ذلك غامرت وجئت. لقد فكرت فيك كثيرا خلال الأسبوعين الماضيين وكان من الصعب علي أن أصبر!.

أخذتها إلى واحات الجريد.

ظلت شانتال تزورني مرة أو مرتين كل شهرين. وعندما نقلت إلى قفصة زارتني أواخر الخريف. وصلت متعبة، حزينة. طفنا في واحات الجريد. مارسنا الحب بجنون، عندما أخذتها إلى محطة الحافلات لأودعها، أحسست أنها لن تعود أبدا. وهذا ما حدث بالفعل. كتبت لها رسائل كثيرة غير أنها لم ترد على أي واحدة منها. مرة واحدة فقط بعثت لي بطاقة من جزيرة "كريت" قالت لي فيها إن أعنف حب لا يمكن أن يصمد أمام رحلة في حافلة عجوز تتوقف كل نصف ساعة، وأحيانا

كل عشر دقائق، ولا تصل إلى هدفها إلا بعد أن يكون المسافر قد أصبح يفضل الموت على الحياة! كففت أنا أيضا عن كتابة الرسائل، غير أن حبي لشانتال ظل كامنا في طوال سنوات التشرد والعذاب التي عشتها بعد ذلك. وعندما سافرت إلى باريس، اندلعت نيران حبي لها من جديد حتى لم أعد أطيق احتمالها.

شكوت حالي إلى صديقي المنصف فقال لي إنه لم يرها منذ زمن بعيد، ثم سألني:

- هل عندك عنوانها؟

- لا... لقد أضعته.

- ليس هذا مهما. إذا كانت لا تزال تعيش في باريس فإمكانك أن تعثر عليها بسهولة!

- كيف؟!

- في دليل الهاتف!

ارتميت على الدليل وفتحته على حرف "اللام" الحرف الذي يبدأ به لقبها، فعثرت عليها من أول نظرة. رفعت السماعة وأدرت الرقم. رن الهاتف مرات عدة. لا جواب. لا في ذلك اليوم. ولا في اليوم الثاني. ولا في اليوم الثالث. بدأت أيأس. أصابني حزن عطل حركتي حتى أني لم أعد قادرا على مغادرة الشقة. ليلة اليوم الرابع هتفت لها بعد الحادية عشر ليلا فإذا بصوتها يأتيني مثلما يأتي الربيع إلى الشجرة العارية:

- آلو.

اختنقت فلم أستطع أن أردّ. ظللت ماسكا بالسماعة بينما كان قلبي يدق مثل طبل رمضان.

- آلو... آلو... آلو!

أخيرا استطعت أن أنطق:

- هل أنت شانتال؟

- نعم... أنا هي... ومن أنت؟

- أنا (...)

- آ... (طويلة). ليس هذا ممكنا. من أين تهتف لي؟

- من باريس.

- من باريس؟!

- نعم من باريس.

- ومتى جئت إلى هنا؟

- منذ أسبوعين.

- هل منحوك أخيرا جواز سفرك؟

- نعم.

- أنا سعيدة بسماع صوتك بعد كل هذا الانقطاع الطويل!

- أنا أيضا.

- متى تريد أن نلتقي.

- الأمر يتعلق عليك أنت. أما أنا فحر طليق.

- طيب. بعد غد. الساعة الرابعة ظهرا. في مقهى "سانت اندريه دي زار". في الساحة التي تحمل نفس الإسم. مبهور الأنفاس وضعت السماعة. لكأني سبحت طويلا في مياه راكدة. كان العرق يتصبب مني بغزارة. "واضح أنك تحبها !" قال المنصف. لم أنم.

ذهبت نصف ساعة قبل الموعد المحدّد. رحت أشرب بنهم محاولا التخلّص من حالة الانفعال والاضطراب التي استبدت بي منذ أن سمعت صوت شانتال في الهاتف، والتي كانت تزداد ضراوة وعنفا كلما اقترب الموعد. عينان مثبتتان على الباب طول الوقت، وقلبي يضرب في صدري مثل سجين يضرب على باب زنزانته ضجرا وحنقا. الساعة الرابعة. الساعة الرابعة وخمس دقائق... وسبع دقائق... واثنتا عشر دقيقة... وثمانية عشر دقيقة... واثنان وعشرون. ودائما لا أثر لشانتال. أوف. ارتطمت يدي بالكأس فسقط وتحطم، واندلقت البيرة على الطاولة وعلى الأرض. استدارت الرؤوس الشقراء باتجاهي وانغرزت العيون الباردة في لحمي. جمع

الجرسون حطام الكأس. مسح الأرض والطاولة، ثم حدجني بنظرة قاسية وكأنه يقول لي أنه لا مكان لي هناك. دفعت وخرجت أجر جسدي في طين الارتباك والخجل. مشيت على غير هدى تحت المطر النازل مدرارا. حين انتبهت من غفلتي، وجدت نفسي في ساحة السربون. "مستحيل ألاّ تأتي!" قلت. ثم ركضت عائدا ! إلى ساحة "سانت اندريه دي زار". فليذهب الجرسون إلى الجحيم ! سأشرب كأسا على الكونتوار وأنتظر ساعة أخرى إن لزم الأمر!

وأنا أقترب من المقهى، رأيت شانتال واقفة أمام الباب مديرة عينيها الزرقاوين في أنحاء الساحة.

تعشينا في مطعم فيتنامي قرب مركز بومبيدو. إثر خروجنا من هناك بعد الساعة الحادية عشر ليلا، تمشينا في شوارع "الماريه" الضيقة متبادلين قبلا محمومة بين وقت وآخر. ولما وصلنا إلى "الباستيل" قالت لي شانتال:

- الآن سأتركك.

- إلى أين ؟

- إلى البيت !

- ألا يمكن أن أرافقك ؟

- مستحيل !

- لماذا ؟

- لأن صديقي ينتظرني.

- صديقك؟ !

- نعم. صديقي. هل تعتقد أنني أعيش وحيدة ؟

اخترق السكين القلب حتى أنني وشكت أن أتهاوى على الأرض. احتضنتني.

- يجب أن تتفهم وضعي !

- لكن...

- لابد أن تتفهم وضعي إذا كنت تحبني حقا ! قالت. ثم طبعت على شفتي قبلة طويلة ونزلت مدارج الميترو.

بعد ذلك بيومين، هتفت لي فقالت لي:

- اسمع يا عزيزي. أعترف أنني أنا أيضا مازلت أحبك. غير أنـي أعتقد أنه من الأفضل لي ولك أن نظل صديقين. فقط. لا غير !.

أغادر وشانتال المطعم المغربي قرابة منتصف الليل. نتمشى قليلا. ثم نركب الميترو. هي إلى محطة "فولتير" وأنا إلى محطة "الأوتيل دو فيل". أواصل السهرة في بار "جافروش" في حي "الماريه" صحبة شبان إيرلنديين كانوا في أقصى درجات السكر ولا أعود إلى فندقي في شارع "ماليز" إلا في غمرات الصباح. وكانت باريس بيضاء مثل حقل هائل من الزنبق. من وسط زحام "السان جارمان" عشية السبت، يطلع عليّ خالد وقد غطس جسده في معطف طويل أسود يصل إلى كاحليه.

- ماذا تفعل هنا أيها البربري الوقح؟!، صحت فيه.

- وأنت؟

- بالنسبة إليّ ليس غريبا أن أكون في باريس. أما بالنسبة إليك فالأمر يبدو في غاية الريبة ذلك أن صاحبك الشاحب أبلغني أنك سافرت إلى نيويورك وأنك تنوي الإقامة هناك لفترة طويلة.

يقهقه عاليا ويقول:

- ما كان عليك أن تصدق ذلك لأنك تعلم جيدا أنني مختص في نشر الأخبار الكاذبة مجانا !

- لم تذهب إلى نيويورك إذن ؟

- بلى.

- ومتى عدت ؟

- قبل يومين.

- وكيف كانت رحلتك؟

- رائعة إلى أقصى حدّ. جامعت زنجية وهذه كانت أمنيتي منذ زمن بعيد، وأمضيت أياما هادئة في واشنطن حيث التقت بمثقفين عرب. ثم سافرت إلى

مونتريال حيث أقمت عند سيدة كندية تعرفت عليها قبل عامين في بيت لوران جاسبار في سيدي بوسعيد... أحتاج إلى وقت طويل لكي أحدثك بالتفصيل عن كل هذا لكن لابد أن أقول لك بأنه من الضروري أن تزور أمريكا إذا ما أردت أن تفهم مشاكل هذا العصر، ونواميس هذه الحضارة...

- ومتى تنوي العودة إلى تونس؟

- بعد رأس السنة. وأنت؟

- بعد أسبوع.

- أيها الأحمق. أتريد أن تقضي عيد رأس السنة في غبارِ القيروان المتزمتة؟ لابد أن تبقى. سنقضي معا عيد رأس السنة عند صديقي المصور ليونار في ضاحية سورين...

- ولكن أمي...

- دع أمك فهي تعلم أنك ولد عاق منذ أن وضعتك واذهب صبيحة الاثنين إلى أول وكالة أسفار لتغيير موعد سفرك !

في بار "كعب الحصان" نعثر على بشير يشرب ساهما على الكونتوار وعلى ملامحه سحابة كثيفة من الغمّ والاكتئاب. طائرٌ خلّفه السرب معطوب الجناحين على فرع شجرة المنفى. هو أيضا مثل الفتى العراقي، جاء إلى تونس مع الفلسطينيين بعد طردهم من بيروت غير أنه خلافا له، كشف لنا جل أوراقه منذ الأيام الأولى لتعارفنا. وهٰكذا عرفنا أنه من الحسكة، جنوب سوريا، وأن أباه من أعيان البدو. في سن العشرين ترك الجامعة وانطلق إلى بيروت لينضمّ إلى الثورة الفلسطينية. ويعمل في قسم الإعلام التابع لمنظمة التحرير. خلال عمله هذا، تنقل بين مدن متعددة، عدن، براج، موسكو، صوفيا، فرسوفيا، اسطمبول، قبرص... وعاش تجارب مهمة أكسبته خبرة بأحوال البشر، وحنكة سياسية نادرة عند مجايليه. وربما لهذا السبب هو واحد من القلائلِ الذين رأيتهم يحافظون على هدوئهم ورباطة جأشهم في الأوقات الأشد حلكة وتقلبا. في البداية بدا لنا بدويا غليظا. بلا عواطف. لكن لم نلبث أن اكتشفنا أنه يخفي في داخله روح شاعر رقيق، يفيض بالمحبة والصداقة والأخوة في

أسمى وأنبل معانيها. معه أمضينا أياما وليالي صاخبة في حانات "باب البحر" و"حلق الوادي". بعد أربع سنوات من الإقامة، غادر بشير إلى باريس ليعمل صحفيا في إحدى المجلات المهاجرة. قبل أشهر قليلة، أرسل لي ديوانه الأول: "قناديل لرصيف أوروبي" فازددت قناعة بشاعريته المتخفية وراء سياج ملامحه البدوية الشرسة. فلقد استطاع أن يرسم صورة آسرة لتيهه الطويل منذ خروجه من الحسكة وحتى وصوله إلى باريس وأن يحوّل تراجيديا منفاه، ومنفانا نحن أصدقاءه، إلى أغنية تنساب بعذوبة وجلال مثل نهر وسط الواحات: "نحنٍ بقايا المنشدين في آخر الليل / لنا أوطان وأمهات / ذكريات صغيرة وقصص حبٍ بعيدة / نحن آخر الهامشيين / على صخبة الجاز، تحت سماء النّيون / فرح أرصفة أوروبا".

- مالك يا بشير؟ تبدو حزينا ومهموما هذا اليوم !، تقول رنا.

- فعلا أنا كذلك !

- هل حدث لك سوء ؟

- لي صديق من بلدي مات هذا الصباح.

- أوه... هذا بالفعل شيء مؤلم للغاية !، تقول رنا وقد امتقع وجهها قليلا ثم تضيف: وهل كان مريضا ؟

- هو يعاني منذ سنوات طويلة من مرض القلب. وأعتقد أنه تعب في الفترة الأخيرة من الآلام ومن الأطباء ومن الحقن حتى أنه قام بثلاث محاولات انتحار في ظرف نصف عام !.

أعرف صديق بشير هذا. التقيت به أكثر من مرة هنا في باريس وفي أماكن أخرى غير أن علاقتي به ظلت دائما سطحية ومحدودة إلى أقصى حد. ربما للاختلاف الشاسع بين طبعي وطبعه. شاب دمشقي في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره. أشقر. نحيل. شاحب. بذلك الاكتئاب الذي نلمحه في وجوه بعض الشعراء الرومانسيين الذين انتحروا باكرا. وهو يعمل في الصحافة العربية المهاجرة ويكتب القصة القصيرة. جميع القصص التي قرأتها له، تعكس روحا قلقة، ممزقة، سوداوية، مسكونة بيأس بلا حدود. وقد روى بعض من أصدقائه المقربين أنه كان دائما على

يقين تام بأن مخابرات نظام بلاده تتجسّس عليه وتراقب حركاته وسكناته حتى عندما يكون وحيدا في غرفة نومه. بل وادعى أن هذه المخابرات قامت بأكثر من محاولة لتصفيته جسديا. وربما لهذا السبب هو يعاني من توتر دائم، ويرتاب في كل حركة، ومن كل قول، وفي كل وجه غريب، وحتى في ضحكة عفوية.

وذات مرة، خلال ندوة أدبية انعقدت في امستردام، نزلت معه في نفس الفندق. ألحّ أن يعطى غرفة هادئة لأنه حسب زعمه لم ينم إلا قليلا خلال الأربع ليال التي مرت. سلّمته صاحبة الفندق غرفة تطلّ على حديقة صغيرة: "هذه أهدأ وأفضل غرفة عندي"، قالت له باسمة. بدا عليه الابتهاج حتى أنه صعد إلى الغرفة في الطابق الثالث مصفرا لحن أغنية من أشهر أغاني فيروز. لكن بعد حوالي ربع ساعة، عاد متجهما، مهتاجا ليقول للسيدة أن هناك رائحة غريبة في الغرفة.

- أية رائحة؟ !، قالت السيدة الخمسينية وقد احمر وجهها السمين وبدت عليه أمارات الدهشة والاستغراب.

- أعتقد أنها رائحة جرذ ميّت !، قال هو. رافقته إلى الغرفة. وبالرغم من أنها لم تعثر على أيّ أثر لتلك الرائحة الغريبة التي تحدث عنها، فإن السيدة حافظت على رصانتها وبشاشتها، وعرضت عليه غرفة ثانية، ثم ثالثة، ثم رابعة غير أنه رفضها جميعا وبدأ يصرخ عاليا :

- كل الغرف سيئة وأنا لا أريد البقاء في هذا الفندق !

وكان على منظم الندوة أن يمكث معه ما يقارب الساعة لكي يقنعه أخيرا بقبول الغرفة الأولى التي عرضت عليه، لكن بعد أن قامت الخادمة المغربية بتنظيفها من جديد، وتحت مراقبته بطبيعة الحال !.

خلال الندوة، وبعد أن قرأ قصة قصيرة له، طرح عليه الجمهور الهولندي أسئلة عادية للغاية. أين يعيش؟ كيف يعيش منفاه؟ ماهي الأسباب التي جعلته يختار العيش في المنفى؟ ماهي طبيعة علاقته بالمثقفين العرب الذين يعيشون في المنفى مثله؟ ما رأيه بالحركات الأصولية المتطرفة في العالم الإسلامي؟... انتهى الجمهور من إلقاء الدفعة الأولى من أسئلته وصمت منتظرا الإجابة عليها. ظل هو

واجما يتفرّس في الوجوه بحقد وغيظ وكأنما كان يستمع إلى مرافعة إدانة ضده.
تنحنح مقدم الندوة، وقال له بلطف :

- الجمهور في انتظار أجوبتكم على الأسئلة التي طرحها يا مسيو...

استدار وقد اربدت ملامحه وازداد شحوبا وصاح فيه مقاطعا:

- أرفض الإجابة على أيّ واحد من الأسئلة التي طرحت عليّ !

- ولماذا ؟، سأله مقدم الندوة ودائما بلطف.

- لأن جميعها أسئلة بوليسية !، ردّ هو ثم ترك المنبر، وخرج من القاعة يدمدم غاضبا !

قبل أن يسافر عائدا إلى باريس حيث يقيم، أبلغ أن التاكسي التي ستأخذه إلى المطار، ستأتيه ساعتين قبل موعد السفر.

- ساعتان كاملتان قبل موعد السفر! وماذا سأفعل طيلة هذا الوقت في مطار كئيب مثل مطار أمستردام؟ !، صاح هو.

ظل يدمدم يومين كاملين، طارحا موضوع سفره في كل آن وفي كل حين. في فطور الصباح. في الغداء. في أوقات الاستراحة بين جلسات الندوة. في العشاء. على كونتوار بار الفندق آخر الليل.

يوم سفره، ساعتان قبل الوقت المحدد لقدوم التاكسي، كان مستعدا مثل جندي ذاهب إلى الحرب. كنا نحن نشرب البيرة على الكونتوار مثرثرين حول مسائل شتى. أما هو فأخذ يروح ويجيء، وعيناه مرة على الساعة، ومرة على باب الفندق. نصف ساعة قبل الموعد المحدد لقدوم التاكسي، بدأ يتذمر:

- هذا التاكسي اللعين لن يأتي. أنا متأكد من ذلك. ومن المحتمل أن يتورّط في حادث طريق في هذه المدينة الصعبة حتى على الراجلين. وأنا عندي مواعيد مهمة للغاية. وصديقتي تنتظرني في المطار. ولابد أنها هناك الآن. وهذه الليلة علي أن أكتب مقالي عن الندوة حتى يكون غدا على مكتب رئيس التحرير. ثم إن الزحام شديد في المطارات. وفيّ مطار أمستردام تحديدا. آه... ما كان عليّ أن آتي إلى هذه الندوة السخيفة! تدخل واحد من المشاركين في الندوة، وقال له:

- اسمع يا أخي. تفصلك عن الموعد المحدد لقدوم التاكسي نصف ساعة بأكملها. وأنت تحتاج إلى ربع ساعة فقط للوصول إلى المطار. فلم هذا التذمّر، أليس من الأفضل لك أن تهدأ أو تنتظر؟!

- قلت لك إن هذا التاكسي اللعين لن يأتي. أنا متأكد من ذلك. ثم إن هذه الندوة سيئة التنظيم إلى أقصى حد. وهؤلاء الهولنديون جحوش حقيقيون. لا يفقهون لا من الخلف ولا من الأمام. خسارة أن يكون فان كوخ واحدا منهم!

أراد الآخر أن يضيف شيئا غير أنه قاطعه بحدة قائلا :

- أرجوك... لا أريد نصائح -أنا أدرى بشؤوني- فاهم!

حان موعد قدوم التاكسي فهاج وماج. "أريد أن أتصل حالا بأولئك الأوباش، منظمي الندوة!" صرخ في وجه صاحبة الفندق - مدت له هذه الأخيرة الهاتف دون أن تنبس بكلمة - وكان هو بصدد إدارة الرقم لما دخل سائق التاكسي! بعد انصرافه، قال لي أحد الحاضرين في الندوة: "هذا الفتى لن يعيش طويلا!". حدث هذا قبل وفاته بعامين وخمسة أشهر بالضبط.

إثر عودتي من باريس، اعتصمت بالبيت في القيروان لا أخرج منه إلا آخر المساء لمشاهدة الغروب على جبال الغرب، هناك حيث ولدت ونشأت. أحيانا يستهويني بعد أن أكون قد انتهيت من العمل أواخر الليل، أن أتمشى في الشوارع الفارغة في انتظار طلوع الفجر على الأسوار الحمراء، بعد ذلك أدخل حمام "طقطق" وأمكث هناك ساعة أو ساعتين في البخار والحرارة. وكان أهم ما شغلني في تلك الأيام وسط هدوء القيروان القروسطي هو أن أغادر البلاد نهائيا، فإن عدت لها، فسوف أعود لها مثل كل غريب...

أمضيت أربعة أسابيع في القيروان ثم سافرت إلى تونس. رذاذ الشتاء القذر والطرقات الموحلة... بحثت طول النهار عن الفتى العراقي فما عثرت له على أثر. سألت عنه فما أسعفني أحد بدليل على وجوده في المدينة. ذهبت إلى بيت خالد فأعلمني والده أنه سافر إلى المهدية لزيارة صديق له هناك. هبط الليل والرذاذ القذر لا يزال يسح. تعشيت في مطعم "طونطوفيل". أمضيت الليلة في فندق "صالامبو"

الذي أصبح فندقي المفضل منذ أن ترفهت أحوالي. في اليوم التالي أعلمني الفتى الشاحب، الذي يلازم خالدا مثل ظله أن الفتى العراقي أصبح يسكن في "سيدي بوسعيد" وأنه لا يأتي إلى العاصمة إلا لماما.

ركبت القطار وذهبت إلى هناك. جلست في "القهوة العالية" أراقب مدخل "سيدي بوسعيد" متفرّسا في وجوه العابرين آملا أن يمر. كفّ الرذاذ عن النزول وبدأت الشمس تطل من حين إلى حين من وراء سحب كانت تتلاطم مثل أمواج بحر في حالة هيجان شديد. ساعة. ساعتان ونصف. ودائما لا رائحة له. يئست. لكن وأنا أهم بمغادرة المقهى، دخل سينمائي شاب أعلم أنه على علاقة بالفتى العراقي. سألته عنه، فقال لي أنه يعرف الشارع الذي يسكن فيه، أما رقم البيت فيجهله تمّاما:

- لقد دعاني أكثر من مرة غير أني لم أجد الوقت لزيارته، قال.

- وأين يقع هذا الشارع؟ سألته.

مشى معي قليلا داخل المدينة، ثم قال لي:

- اسمع... واصل السير في نفس الشارع. الشارع الثالث على يمينك. هناك يسكن صديقنا العراقي. بلّغه تحياتي وقل له إني سأزوره حين أجد الوقت لذلك. مع السلامة !.

الشارع فارغ تماما. رائحة الجدران المبللة بالمطر. صوت علي الرياحي يأتي من مكان ما... "أنا كالطير في وكرو يغنّي...". طرقت أول باب صادفني.

طلعت على امرأة أربعينية سمينة، مصحوبة برائحة الملوخية.

- عندي صديق عراقي يسكن في الشارع...

- آ... الشاب العراقي. طبعا أعرفه.

- أيّ بيت يسكن؟

- البيت الثالث على اليمين. رقم 10. لكن اسمع. أنا لم أره منذ أسبوعين. لعله سافر...

طرقت الباب رقم 10 عدة مرات لكن لا جواب. انتظرت قليلا ثم عدت أطرق بأكثر قوة... طق... طق... طق... طق... فتحت المرأة الأربعينية بابها من جديد وصاحت بي:

- لا تتعب نفسك. لقد قلت لك إنني لم أره منذ أسبوعين.

لم أهتم بما قالت وعدت أطرق. طق. طق. طق كففت عن الطرق وأنصت واضعا أذني على الباب. وقع خطوات. آ. هو هنا إذن. انفتح البا وظهر هو مرتديا بيجاما رمادية، شاحب الوجه، منفوش الشعر بلحية عمرها أيام عدة.

- آ... هو أنت. تعال. تعال! قال.

دخلت. مشى أمامي مباعدا ما بين ساقيه. جاراً قدميه جراً. البيت بارد. كل النوافذ مغلقة بإحكام. ولا ضوء على الإطلاق. علب سردين فارغة. منفضة مليئة بأعقاب السجائر. جرائد ومجلات قديمة مكدسة على طاولة صغيرة. على الجدار المقابل للفراش ملصق فيلم "سائق التاكسي" لمارتن سكور سيزي.

- كيف عثرت على البيت؟ سألني بعد أن تمدد على الفراش.

- صديقك السينمائي...

- آ... كيف أحواله؟

- تبدو جيدة وهو يسلم عليك ويقول لك أنه سيزورك إذا ما وجد الوقت.

- الأفضل ألا يزورني الآن وأنا على هذا الحال.

- مالك؟ هل أنت مريض؟!

- نعم... مريض. وجائع وحزين. منذ أسبوعين لم أخرج من هذا البيت ولم أر أحدا ولا أعرف ماذا حدث في الخارج. حتى الراديو الصغير الذي أعطاني إياه خالد ماتت بطارياته.

- ماذا حدث لك؟

- قصة حب طويلة. وأنا لا أستطيع أن أرويها لك إلا إذا ما أكلت وشربت.

ركضت إلى "السوبرماركت" القريب من محطة القطار. اشتريت جبنا ونبيذا ومن محل المأكولات السريعة القريب من هناك. دجاجتين مشويتين وعدت. أتى على الدجاجة بسرعة. وأيضا على نصف قنينة النبيذ. غسل يديه. أشعل سيجارة ثم تمدد من جديد على الفراش. ظل صامتا وعيناه مثبتتان على السقف.

- أكل هذا بسبب العشق؟ قلت له.

- أي عشق يا صديقي البدوي. وهل في هذا الشرق الصحراوي البائد مكان للعشق؟

- ماذا... هل انتهت قصة حبك؟

- نعم انتهت. وأنا سعيد أنها انتهت عند ذلك الحد وإلا كنت كمثل من يضع حبل المشنقة حول رقبته.

- قل لي ماذا حدث بالضبط...

- طيب. أنت سافرت وتركتني غارقا في العشق أليس كذلك؟

- نعم...

- بعد مضي أسبوع على سفرك، اتفقت مع فائزة على طلب يدها. كنت سعيدا بذلك إذ أنني لم أحب في حياتي امرأة مثلما أحببتها هي. وكنا نتناول الغداء في مطعم فاخر في المرسى، ونرتب تفاصيل الخطوبة حين قالت لي فائزة:

- اسمع. لقد أعلمت عائلتي أنك مسيحي.

- ولم فعلت هذا؟ أنت تعلمين أنني لست مسيحيا حقيقيا.

- لكن عائلتك مسيحية. لذا كان لا بد من الوضوح والصراحة حتى لا تحصل مفاجأة غير سارة في ما بعد .

- عندك حق. وماذا كان الرد؟

- أبي قال أنه لا يمكن أن أتزوج منك إلا إذا ما قبلت أنت إعلان إسلامك. والآخرون كانوا على اتفاق تام معه بخصوص هذه المسألة !

أصبح طعم السمك مرا في فمي.

- ألم تقولي لي أن عائلتك متفتحة ؟

- هي بالفعل متفتحة. لكن أنت تعرف أن التفتح عند العائلات هو دائما نسبي.

- وما الحل الآن ؟

- ليس هناك أي حل غير أن تقبل شروطهم.

صرخت كالملدوغ :

- مستحيل أن أفعل هذا !

راحت تداعبني بلطف:

- لا تغضب. هذه أمور شكلية لابد منهـا لإرضاء العائلات. بعدها نحن أحرار. نفعل مانريد. ونفكر كما نشاء.

- هل تعتـقدين أن الأمور سوف تقـتصر على الأقوال فـقط أم أنهم سوف يأتون بإمام ومصحف...

ضمتني إلى صدرها. قبّلتني وقالت:

- حتى لو فعلوا هذا... ألم تقل لي مرارا أن كل شيء يهون من أجلي؟!

افحمتني فصمت.

في الليل، وحيـدا في هذا البيت، رحت أتقلب في الفـراش مدخنا السيـجارة تلو الأخـرى... صحـيح أنني أحب فائزة. بـل إني لا أرى معنى لحياتي بدونهـا. ولكن هل هذا يعني أنه محـتم علي أن أقبل شرطهم؟! إذا مـا قبلته فسـوف أخون كل الأفكار وكل المبـادئ التي تقوم عليـها حيـاتي. ولكن أية أفكار وأية مـبادئ؟! المسألة لا تتعدى بعض الأمور الشكلية، الهدف الوحـيد منها إرضاء العائلات الغبية. بعـدها ينتهي كل شيء وأعـود إلى ممارسة حـياتي كـما أنا أشـتهي. ثم إني لبـست العديد من الأقنعة خلال حـياتي، ولعبت كثيرا على الحبـال، فلم لا ألعب هذه اللعبة الأخيرة وأرتاح. نعم أرتاح وأشرع في إنجاز مشاريعي السينمائية التي تشغل بالي منذ أن كنت في الحبانيـة. صبيحة اليوم التـالي، جاءني فائزة فأخبرتهـا أني قابل للشرط الذي شرطته عائلتـها. جاؤوني بإمام ومصحف وأسلمت. بعـد ذلك بيومين، أخبرتني فائزة أن هناك شرطا أخر تطالب به عائلتها حتى يكون إسلامي تاما وشرعيا.

- وماهو هذا الشرط؟ سألتها.

- الختان.

- يريدون أن أختن وأنا في مثل هذه السن؟ ! صحت أنا.

- الأمر ليس صعبا كما تظن. أسبوع واحد فقط وينتهي كل شيء ! قالت هي.

- ولكن يا فائزة... ا عزيزتي. أنا أخشى أن يضعوا شروطا أخرى...

- إذا ما فتحوا أفواههم بعد هذا الشرط فسوف أهجرهم نهائيا وليكن ما يكون!

بدأت أستعد للختان. بالغت في الشراب حتى أنسى كل تلك التفاهات التي أخذت تمصّ حياتي مثلما يمص العلق دم الحيوان. غابت فائزة أسبوعا كاملا. لم أهتم كثيرا بغيابها لاعتقادي أنها منهمكة في إعداد حفل الخطوبة الذي اتفقنا أن يتم بعد ختانتي بثلاثة أسابيع. لكن ذات ظهيرة، وأنا أقلب في الصحف، دخلت علي فائزة، وقد تبلل وجهها الجميل بالدموع، ولبست السواد كأنها في حداد. قفزت من الفراش:

- ماذا حدث؟ سألتها.

ارتمت في أحضاني وأخذت تشهق بالبكاء. ظننت أنها فقدت أحد أفراد عائلتها غير أنها قالت لي وهي تنتفض في حضني:

- اسمع يا عزيزي. زواجنا ليس ممكنا.

- لماذا ؟

- عائلتي رفضت ذلك رفضا قاطعا وقالت لي أنها لا تقبل أن أتزوج شابا غريبا بلا مال ولا مستقبل.

- وأنت ماذا كان رأيك ؟

- وماذا تريدني أن أفعل؟ أعتقد أن زواجنا مستحيل...

- يعني أنك وافقت على قرارهم ؟

- لا خيار لي !

أبعدتها عني بعنف :

- أخرجي حالا ! صحت فيها.

رحت أشرب حتى لم يعد باستطاعتي أن أمشي على قدمي. ثلاثة أيام بكاملها وأنا على هذه الحال. لا أخرج إلا لكي أتزود بالأكل والشراب والسجائر. مرة فكرت أن أزور لوران جاسبار. سرت تحت المطر إلى أن أشرفت على بيته ثم عدت أدراجي. خيرت ألا أفعل ذلك إذ لا يجوز لي أن أزور شاعرا جميلا مثله وأنا مدنس بخطايا حبي الفاشل. في الليل اتخذت قرارا حاسما : أن أعاقب نفسي على ما اقترفت يداي. نعم كان لا بد أن أعاقب عقابا

شديدا حتى لا أعود إلى ارتكاب مثل تلك الحماقات الشنيعة. وقد ارتأيت أن أفضل عقاب لي هو أن أختن نفسي. ليس لاستكمال إسلامي كما اشترطت ذلك عائلة فائزة. وإنما لكي أقطع آخر صلة لي بهذا الشرق المريض الذي يرى شرف المرأة وعفتها في عذريتها، وكمال الرجل وصلاحه في قطع غلفته. صبيحة اليوم التالي، ذهبت إلى حلاق هنا في سيدي بوسعيد. شيخ ستيني لطيف، ودود معي إلى أقصى حد. سألته إن كان يعرف ختانا جيدا فرد علي بفخر: "وهل هناك خاتن أجود مني أنا؟ الجميع يشهدون أني أحذق خاتن في الضواحي الشمالية كلها. أغلب أبناء سيدي بوسعيد ختنوا بيدي المباركة هذه!".

حين أخبرته أني أرغب أن أختن، شهق شهقة قوية وصاح:

- ألا زلت أغلف إلى هذه الساعة؟!

- نعم. غير أني كنت مسيحيا والآن أنا أرغب أن أدخل دين الإسلام، قلت له.

- باركك الله ورسوله يا ولدي وثبت خطاك! قال ثم مسح على رأسي.

جاء معي ذلك الحلاق الشيخ إلى البيت وهو في أقصى درجات السعادة لأنه كما قال لي سيدخل "كافرا إلى دين الحق". قطع غلفتي بسرعة لم أتوقعها. أعطاني بعض الأدوية ثم انصرف.

حالما أغلق الباب، رميت غلفتي إلى قطة الجيران التي تزورني من حين إلى حين!.

صمت لحظات، ثم أضاف:

- لعل كل هذا كان ضروريا لكي أقتنع نهائيا أنه لا مكان لي في هذا الشرق!.

وفاة صديق بشير تغرقنا في حديث طويل عن المنفى العربي الذي يزداد اتساعا يوما بعد آخر. أي مكان في العالم تذهب إليه الآن، تطالعك فيه وجوه عربية سمراء، وقد حفرتها ندوب الغربة، وجرحتها ويلات المنفى. لكأن أرض الشرق الشاسعة لم تعد تتسع إلا للطغاة. لكأن كل الثروات التي تحتويها وجدت فقط لكي يكون الإنسان العربي شقيا، مقهورا، مقصيا من وطنه. سجون وراء سجون. خوف مرتسم حتى على الأحجار والنبات والحيوان. وحشة كأنها وحشة المقابر. لا ربيع.

لا صيف. لا خريف. فقط شتاء طويل يمتد قاتما، باردا، رتيبا، فيه الناس يعيشون لاهم بأحياء ولاهم بأموات. لا نهار. بل ليل شامل، لا متناهي، فيه توؤد الأحلام والأماني والرغبات والقصائد وتعد حقن الموت البطيء. وأغلب المنفيين العرب هنا في أوروبا ليسوا أحسن حالا من مواطينهم هناك. إنهم يتعفنون من جليد الشمال في انتظار أن يعودوا إلى أوطانهم في توابيت، أو أن يفاجئهم الموت وهم يلوكون سأم الوقت، وذلك الشاعر المنفي مذ زمن بعيد كان طريح الفراش لما هتف له صديق ذات صباح ليعلمه أن هناك مقالا حول ديوانه الجديد الذي ظل ينتظر صدوره عامين كاملين. أنعشه الخبر فقفز من الفراش بخفة فتى في العشرين. لبس ثيابه على عجل، ثم ركض في الشارع مثل مجنون. اشترى الجريدة. وكان قد شرع في قراءة المقال حين خذله القلب، فسقط ميتا على الرصيف. قبل هذا ببضعة أشهر، كان نفس هذا الشاعر قد اتفق مع صديق له يعيش مثله في لندن على القيام بجولة في "الهايد بارك". كان الربيع على الأبواب. والطقس في غاية الجمال. ضغط الشاعر على ناقوس شقة صديقه عدة مرات. لكن لا جواب. نظر من خلال النافذة (الشقة في الطابق الأرضي). فرأى صديقه مسترخيا على الفوتاي والجريدة مفتوحة أمامه. هل أصيب بصمم فجئي؟ أم تراه يرغب في تهييج أعصابي بذلك المزاح الثقيل كما هي عادته دائما؟ تساءل الشاعر، ثم راح يضرب على بلور النافذة بقوة صائحا: "افتح أيها الغبي. ألا تخجل من ممارسة ألعاب الصبيان وأنت في مثل هذا السن؟!". ظل صديقه جامدا مثل صخرة، وظل هو يضرب على بلور النافذة إلى أن تيقن أن الأمر ليس طبيعيا مثلما كان يتصور. عندئذ هرع إلى الشرطة. فلما فتحوا الشقة، تبين له أن صديقه فارق الحياة. وكانت الجريدة مفتوحة أمامه على تحقيق يتحدث عن المآسي التي يكابدها العراقيون بسبب الحصار المضروب على بلادهم. أما ذلك الصحفي اللامع فقد كان خارجا من شقته في قلب لندن ليتعشى مع صديقته الرسامة الإيرلندية حين أصيب بعدة رصاصات في الرأس أودت بحياته في الحين. في نفس الليلة، تحدثت إذاعة بلاده عن مقتله بغبطة لا مثيلة لها واصفة إياه بـ "الكلب السائب". ولما ذهبت

الآنسة رنا. طالبة الفلسفة في جامعة السربون لزيارة والدها، السياسي العجوز الذي يعيش في إحدى ضواحي باريس منذ فراره من بلاده قبل عشرة أعوام، وجدته مذبوحا من الوريد إلى الوريد بسكين المطبخ. وعندما بلغ الرسام المرهوب نعي والدته التي لم يرها منذ ما يزيد عن الخمسة عشر عاما، انزوى في شقته الصغيرة في حي "كرويتسبارج" ببرلين، وظل يعب الفودكا الرديئة إلى أن انفجر كبده. في جيب سترته، عثر أصدقاؤه على مقطع من قصيدة لأدونيس يقول فيه: "من أنا يا أصدقائي؟ أيها الراؤون والمستضعفون / ليتني أقدر أن أخرج من جلدي لأعرف من كنت، / ولا من سأكون،/إنني أبحث عن اسم وعن شيء أسميه/ ولا شيء يسمى /زمن أعمى وتاريخ معمى / زمن طمي وتاريخ حطام / والذي يملك مملوك، فسبحانك يا هذا الظلام".

آخرون ينتظرون المصير ذاته في غرف السطح، وأنفاق الميترو، ومعسكرات اللاجئين، وعلى أرصفة المدن الباردة. لقد تحول الشرق إلى آلة موت رهيبة تطحن أبناءها بلا هوادة، سواء كانوا في الداخل أم في الخارج.

- أما أنا فلست معنيا بكل هذه المآسي العربية التي تتحدثون عنها ! يقول الفتى الآشوري الذي ظل صامتا حتى ذلك الحين.

بشير (مستاء إلى حد ما): ماذا تعني بهذا الكلام؟

هو (بحزم): أعني أن ما يشغلني الآن ليس ما يحدث لأهل الشرق سواء هنا أم هناك، وإنما ذاتي أولا وأخيرا.

بشير: هذا مطلق الأنانية.

هو: سمّ ذلك ما شئت. أما أنا فأرى أن ما أعيشه الآن إزاء ذاتي هو بداية التحرر الحقيقي.

بشير: ومتى كان الانغلاق على الذات تحررا حقيقيا؟ !

هو: أنت مخطئ، ذلك أنك تتصور أنني أعرف ذاتي بما فيه الكفاية. لذا أنا ألوذ بها في ساعات الشدة، تاركا الآخرين في الجحيم. ما أنا أقصده يا صديقي هو أنني اكتشفت منذ بضع سنوات فقط، أنني لم أكن أعرف ذاتي. لقد كانت مفصولة

عني، وكنت أنا مفصولا عنها بحواجز لا تحصى ولا تعد. وربما لهذا السبب عشت فترة طويلة من حياتي وأنا أخبط خبط عشواء وسط عالم من الأوهام والأكاذيب. والآن أنا بصدد كسر هذه الحواجز بهدف الانفتاح على ذاتي، والتعرف عليها، واكتشاف أسرارها وخفاياها، ومعاينة درجات قوتها، ودرجات ضعفها.

بشير: كلامك لا يزال مبهما.

هو: طيب. سأحاول أن أكون أكثر وضوحا. الشرق يا عزيزي بقبائله المتناحرة، وبأديانه وإيديولوجياته، وبملله ونحله المتراكمة عبر العصور، لا يتيح للفرد أن يكون فردا، بل هو يمحقه محقا تاما جاعلا منه مجرد شبح ميت القلب والروح داخل القطيع الكبير. الشخص الوحيد المسموح له أن يكون فردا هو الحاكم. وهذا الحاكم يذهب به الإعجاب بعظمة ذاته إلى درجة الظن بأن الأرض وما عليها له وحده. كل الثورات التي اندلعت في الشرق أفضت إلى نتيجة واحدة: ظهور مستبد جديد. هل تدري ما السبب؟

بشير: لا أدري...

هو: السبب يا عزيزي هو أن شعوب الشرق تعيش دائما بعقلية القطيع الذي ينبذ الفرد المتملك لحرية المبادرة، والتفكير، والتصرف في شؤونه. قطيع يرفض أن يعيش دون راع يهش عليه بعصاه الغليظة، ويوجهه إلى حيث يريد. ولا أعتقد أن المثقفين العرب الذين يعيشون هنا في المنفى يختلفون كثيرا عن شعوبهم. هم أيضا يعيشون بعقلية القطيع، ويتصرفون كما لو أنهم لا يزالون يعيشون في أحضان قبائلهم. لذا أنا أرى أن معارضتهم للأنظمة القائمة هناك هي مجرد زبد سوف يذهب جفاء مع مرور الزمن.

بشير: أنت شديد القسوة هذا اليوم !

هو: لا... أبدا ما أقوله هو عين الحقيقة. إن جل المثقفين العرب الذين يعيشون هنا ليسوا منفيين. وإنما هم أشباه منفيين. أعني بذلك أن حالة المنفى التي يعيشونها لم تمنحهم إلى حد هذه الساعة، ذلك التوتر السامي الذي يمنحهم

بدوره أحقية أن يكونوا منفيين بالمعنى الحقيقي للكلمة. اقرأ إنتاجهم سواء كان هذا شعرا أم قصة أم رواية أم مقالا وسوف تجده خاويا، سطحيا، مبتذلا، يتوقف عند القشرة ولا ينفذ إلى اللب، ذلك أن المنفى بالنسبة إليهم حالة مثيرة للشفقة، حالة استعطاف وليست حالة إبداع عميقة. أرجو أن أكون قد بلغت. والآن ارفعوا كؤوسكم تكريما لما قلت !.

القطار الذي غادر باريس في الخامسة مساء يمضي بي إلى كوبناهجن مدمدما وسط ليل الخريف الشمالي،وأنا أقرأ كريشنامورتي: "لا اسم لي. أنا مثل نسيم الجبال العليل. لا ملجأ لي. أنا مثل المياه المتدفقة. لا كتب مقدسة لي. ولا أنتسب إلى أي إرث. لست في البخور المتصاعد من المذابح ولا في أناشيد الطقوس. لست محاصرا بالنظريات ولا مفسدا بالمعتقدات. ولا موثوقا بسلاسل الأديان. ولا بالاحتضار الورع لكهنتها. لست لا في الأعلى ولا في الأسفل. أنا العاشق إذا عشقت. أنا حر. وأغنيتي هي أغنية النهر المتدفق على هواه مناديا المحيطات المفتوحة. أنا الحياة !". نعم. أنا الآن حر. والمنفى سيكون وطني حتى النهاية. وهذه الموسيقى التي تهدهد روحي هي موسيقى نفسي التي تحررت من القيود ومن الخوف الذي لازمني على مدى سنوات طويلة.

وصلت إلى "لوند" عقب رحلة استمرت ليلة كاملة والشطر الأول من النهار. في الفندق، وجدت جل الشعراء العرب والسويديين المدعويين إلى ندوة الشعر العربي - السويدي التي نظمتها الأكاديمية السويدية. وبرغم تعب السفر، فإني سهرت معهم حتى ساعة متأخرة من الليل.

أذكر أن جلسات الندوة خلال اليوم الأول كانت كئيبة، مملة إلى أبعد حدود الملل. وكنا نحن الشباب نتثاءب ضجرا هناك في ركن من أركان القاعة. في اليوم الثاني، استمر الوضع على نفس الوتيرة. في بداية جلسة الظهر، تقدم شاب وسيم، يرتدي دجينز، وجاكتة زرقاء (اعتقدنا في البداية أنه مجرد طالب من جامعة لوند) من رئيس الجلسة وفي يده كيس نيلون. اتكأ بمرفقه الأيمن على الطاولة،

وقال كلاما لم نفهمه بطبيعة الحال. ثم ألقى بما في الكيس فوق ملفات رئيس الجلسة! نظرنا فإذا بها أوراق يابسة. وعندئذ أدركنا أن الشاب مغتاظ، وأنه أراد أن يبلغ الحاضرين، وخاصة رئيس الجلسة، بأن ما قيل حتى ذلك الحين سخيف ويابس وميت مثل تلك الأوراق التي جردها الخريف الشمالي من أشجارها. ثم أغمض الشاب عينيه. وفي خشوع أنشد قصيدة حول الاسكندرية تحية لكافافي. بعدها انزاحت عن الندوة تلك الرتابة القاتلة التي واكبتها حتى ذلك الحين، فإذا الشعر يتدفق تدفق المياه من أعالي الجبال عند ذوبان الشتاء.

هذا الشاب يدعى نيكلاس رادو ستروم. وهو من مواليد عام 1953، ومنذ البداية تمرد هذا الشاب على قيم المجتمع الاستهلاكي، وصرخ مطالبا بالتغيير: تغيير الحياة وتغيير الشعر. وتماشيا مع هذا الشعار، راح يقرأ قصائده الغاضبة في الحانات، وفي الأحياء الجامعية والنوادي العمالية إلى أن تمكن هو ونفر من الشعراء الشبان من أن يعيدوا للشعر السويدي نضارته، ومن أن يكسبوه من جديد جماهيريته التي تقلصت بسبب الوسائل السمعية والبصرية، وبسبب ثقافة "الديسكو" و"الهامبورجر". وخلال نقاشي معه، فوجئت أنه يعرف المعري جيدا، بل هو بالنسبة إليه واحد من أفضل شعراء العالم. كما اكتشفت أنه ملم إلماما واسعا بالتراث الصوفي الإسلامي، وبتراث الشرق القديم.

خلال الندوة، تعرفت أيضا على شاعر آخر بمستوى نيكلاس رادستروم يدعى جاك فيروب مولود عام 1946. وعيش هذا الشاعر المرح دائما بين باريس وجنوب السويد. وقد قال أنه يحب كثيرا حي "بال فيل" وحي "بارباس" حيث يكثر المهاجرون العرب والأفارقة، وحيث تبدو باريس كأنها مدينة جنوبية. وقال لي أيضا أنه يحب الاختلاط بجموع المهاجرين، والذهاب إلى المطاعم المغربية: "أريد أن يكون وهج الجنوب في قصائدي". وكنت لا أزال مستغرقا معه في الحديث عن باريس وعن الشعر، لما اقتربت مني ماريا. وهي فتاة فلسطينية تبناها مستشرق سويدي في سن لم تكن تقدر أن تعي فيه شيئا من أهوال هذا العالم. لم يتبق من عروبتها غير شعرها الفاحم، وعينيها المتوحشتين، وبشرتها السمراء، وابتسامتها القمرية. تركنا

الآخرين يواصلون السهر والشراب، وسرنا على مهل في شوارع لوند المقفرة. قالت لي ماريا: "كم كان صوتك جميلا البارحة عندما غنيت في السهرة التي أقامها والدي!"

- شكرا ! قلت لها.

أمسكت بيدي وعيناها تلمعان ببريق أخاذ:

- هل يمكنك أن تقرأ لي أبياتا من الشعر العربي؟ قالت .

- لكنك لن تفهمي شيئا ! قلت .

- لا يهم. أريد فقط أن أسمع إلى لغتي التي فقدتها ! قالت.

قرأت لها بعض الأبيات وعندما احتضنتها، تلاشت برودة الليل الخريفي التي كانت في أوجها في ذلك الحين.

من لوند صعدت إلى ستوكهولم. كان الخريف كئيبا عاصفا. وكانت العتمة تغمر المدينة ابتداء من الساعة الرابعة ظهرا، والشوارع تقفز مبكرا. رحت أطوف في المدينة مستمتعا برائحة الشمال الغامض. الشمال البلوري البارد. شمال أقوام الفيكينج، والعيون الغامقة الزرقة، والقامات الفارغة، وجنون ستراندبرج، وتصوف جونار آكيلوف، وإنسانية أولف بالمه. بعد أسبوع التحقت بي ماريا ومعها تهت في الجزء القديم من المدينة. شوارع ضيقة تتعانق وتتشابك. هدوء العصور الوسيطة. مقاه صغيرة تضيئها الشموع. عشاق غارقون في عشقهم لا يجرأون حتى على الهمس. فجأة ساحة صغيرة وعجوز بنظارات سوداء يعزف لحنا حزينا. نجتازها فتعرض طريقنا امرأة فائقة الجمال، على ملامحها علامات الانبهار والدهشة. من حين لآخر، تغمض عينيها وكأنها تريد أن تحتفظ بكل ذلك الجمال حتى النهاية. أنسى نفسي غير أن ماريا تعيدني إلى الواقع بضربة خفيفة على الكتب وتسألني: "هل تعرف الكاتب ايفارلوجوهانسون؟" "لا" أقول لها. أنظر إلى حيث أشارت فإذا بعجوز يرتدي معطفا رماديا، ويعتمر قبعة رمادية أيضا يمشي متئد الخطى، غارقا في تأملاته. تقول لي ماريا: "هو حريص على أن يتجول كل يوم في المدينة العتيقة. وهو يسكن هناك بمواجهة البحر. ألم تقرأ له شيئا؟" تسأل ماريا، "لا. أبدا". "لابد أن تفعل ذلك في أقرب فرصة" تقول، ثم تقودني إلى مطعم سمك بمواجهة البحر.

باريس مرة أخرى. انزويت في فندق "مالار" الواقع أمام كنيسة القديس بولص ورحت ألتهم مؤلفات شعراء وكتاب سويديين اكتشفتهم خلال زيارتي لبلادهم. في دفتري الأزرق، سجلت الأبيات التالية لجوناراكيلوف: "أنا غريب في هذه البلاد / غير أن هذه البلاد ليست غريبة عني / وطني ليس هذا البلاد / غير أن هذه البلاد تريد أن تكون / وطني!

أمضي الجزء الأكبر من النهار في النوم والقراءة ولا أغادر الفندق إلا في نهايات المساء. أتسكع في " الحي اللاتيني". أشرب كأسا هنا وكأسا هناك. وعندما يتقدم الليل، ألوذ ببار "جافروش" القريب من فندقي، وأظل فيه حتى مطلع الفجر. وذلك المساء كان الطقس باردا جدا، وأنا كنت جالسا في بار "سانت اندريه دي زار"، أشرب بيرة، وأحاول أن أصطاد سائحة ألمانية كانت جالسة أمامي لمّا لمحت الفتى الآشوري يحث الخطى في اتجاه "السين". أحقا هو أم أنا واهم؟! تساءلت ثم ركضت إلى الباب وناديت بأعلى صوتي:

- سامي !

استدار. هو بلا أدنى شك !

- آ... أنت؟ ! يا إلهي... قبل لحظات فقط فكرت فيك وبي إحساس قوي أنني سألتقيك هذا النهار. أيها الوغد... ها أنا تمكنت أخيرا، وبعد خمسة عشر عاما من الانتظار والعذاب من الخروج من ذلك الشرق البائد !

- ما كنت أظن أنك ستكون قادرا على ذلك... ماذا فعلت؟ !

- هذا سر أحتفظ به لنفسي...

- متى وصلت إلى هنا ؟

- أمس... نعم أمس فقط !

- ومع ذلك أرى أنك تسير في باريس كما لو أنك في الحبانية !

- متعة الحرية التي حرمت منها وقتا طويلا هي سر ذلك يا صديقي... دخلنا البار. حال جلوسنا؟ قال لي:

- اسمع... ثمة شيء لابد أن أقوله لك...

- ماهو؟

- من الآن فصاعدا لا تناديني بسامي .

- لماذا ؟

- لأن هذا اسم مستعار استخدمته للضرورة.

- وماهو اسمك الحقيقي؟

- شاموئيل.

- إنه اسم يهودي...

- لذا اضطررت لإخفائه على مدى خمسة عشر عاما...

- ولماذا ؟

- سأروي لك القصة بالتفصيل. لكن قبل ذلك لابد أن نشرب على نخب صداقتنا وعلى نخب الحرية !

حالما استكمل الخدمة العسكرية، شرع الفتى الآشوري في الاستعداد لتحقيق حلم ظل يراوده منذ سنوات الطفولة في الحبانية: السفر إلى أمريكا ليصبح سينمائيا مشهورا مثل الأرمني ايليا كازان. في البداية كان عليه أن يحصل على المبلغ المالي اللازم للسفر. لذا مارس أعمالا عدة. فلما تم له ذلك، قدم طلبا لنيل جواز السفر. ثلاثة أسابيع من الانتظار القاتل، ثم أرسلوا في طلبه. ذهب إليهم والهواجس تنهش لحمه ظانا أنهم سيكتفون بإبلاغه برفضهم لطلبه مثلما يفعلون يوميا مع الآلاف من مواطني بلده. غير أن ضابط الشرطة سلمه جواز سفره وقال له بلطف لم يعهده من قبل خصوصا في أماكن كتلك: "أتمنى لك سفرة ممتعة !".

خرج من دائرة الجوازات وهو كالمصعوق. في الشارع راح يقلب أوراق الجواز بأصابع مرتجفة: الصورة صورته وهو بالشعر الخفيف، شعر الجندي الذي أنهى الخدمة العسكرية، وبالشارب الكث الذي يجعله يبدو أكبر سنا بخمس سنوات على الأقل، وبالعينين الآشوريتين الحزينتين والأنف الضخم الذي يغطي مساحة كبيرة من الوجه الذي لا تزال عليه آثار فواجع حرب جبال كردستان. الاسم اسمه: شاموئيل

بن غورجية الخادمة وكيكا الفران الأبكم الأصم. إذن هم لم يخطئوا ! آ... كم هم رائعون حين لا يخطئون! جرى في الشارع وبه رغبة في أن يصيح في الناس: "اسمعوا يا أهل بغداد... أنا الآن إنسان حر. هل تفهمون؟! أنا الآن إنسان حر وبإمكاني أن أذهب إلى أي مكان في الدنيا. هل تدركون معنى ما أقول؟! بعد أيام قليلة لن تروا خلقتي في مدينتكم العجوز هذه سأريحكم من خوفي، من هواجسي، من أوهامي، من جنوني، من أحلامي، من أنفي الضخم، أنف الآشوري المنقرض!".

الوقت خريف. والدنيا حر. ذلك الحر الذي يحبس الأنفاس ويضغط على الدماغ مثل كيس من رمل. الشوارع غبار وزحام وضجيج وباصات وسخة وشاحنات ثقيلة وملاءات سوداء ووجوه حمقاء، عابسة، مهمومة، مقهورة، ميتة، مذعورة، يائسة. وهو يركض في حر الخريف الآسيوي الثقيل. يركض وفي رأسه تتلألأ الأحلام والأماني. يركض وبه رغبة عارمة في أن يغني كل الأغاني الآشورية التي كانت ترددها أمه في الحبانية... يا أهل بغداد... أمريكا... أمريكا... غدا سوف أكون إيليا كازان الآشوري. والدنيا بأسرها سوف تتحدث عن ذلك الفتى الفقير، ابن غورجية الخادمة، وكيكا الفران الأبكم والأصم الذي دخل أمريكا وليس معه غير حقيبة صغيرة فيها بنطلون وقميص وفرشاة أسنان ورواية بوليسية. لم تمض سنوات قليلة حتى أصبح كبار الممثلين والممثلات يلهجون باسمه ويتدافعون بالمناكب لنيل دور صغير في أحد أفلامه. نعم... سوف ترون يا أهل بغداد ! ظل يركض ويركض. ثم فجأة انتابه إحساس بأنه تجاوز الخط الأحمر، فخبت في الحين نار فرحته، واجتاحه خوف أسود. توقف عن الركض. نظر فإذا به يرى جنودا مدججين بالسلاح يتفرسون فيه بعيون ملتهبة، مادين رؤوسهم الحديدية باتجاهه. وراءهم انتصب سجن "النهاية" الرهيب بأسواره العالية وأبوابه السوداء. أوه... يا إلهي. أية حماقة ارتكبها ! كان يلهث وكان العرق يحرق عينيه.

خطوة واحدة إلى الأمام ويفجرون دماغه، أو يلقون به في الظلام للقمل والفئران. أوه يا إلهي. تراجع إلى الوراء وهو لا يسمع شيئا آخر غير دقات قلبه.

اللعنة. عليك ألف لعنة يا شاموئيل... يا أيها الفتى الآشوري الأحمق. هل تريد أن تحرق كل أحلامك وكل أمانيك وكل صبرك عبر سنوات طويلة في رمشة عين؟! اللعنة عليك. ابتعد. لعلهم راقبوه وهو يركض فرحا مثل حصان وسط بغداد. وربما بعد لحظات أو ساعات أو أيام سوف يأتون ويقولون له: "تعال يا شاموئيل العزيز... نحن نرغب في أن نتحدث إليك قليلا!" ثم يجلسون أمامهم. وبعد أن يشعلوا له سيجارة، يطرطقون أصابعهم الغليظة ويقولون له بلطف لا يضاهيه لطف في الدنيا: "اسمع يا شاموئيل العزيز. أنت شاب ذكي وطموح. ونحن نعتقد أن ثورتنا المجيدة في حاجة ماسة إليك. لذا ارتأينا أن نبقيك هنا. هه؟! إذن ابق معنا يا شاموئيل الرائع...". أوه... كم هو غبي! كان عليه أن يقول للضابط الذي سلمه الجواز إن العراق أروع وأجمل بلد في الكون بأسره وإن فراقه يميت القلب ويذبل الروح. يقول له ذلك وهو على وشك البكاء. ثم يخرج من دائرة الجوازات بخطى صارمة مثل جندي غيور على وطنه. نعم... كان عليه أن يفعل ذلك...

دخل بارا في شارع "السعدون". شرب بيرتين فهدأ قليلا. هل يعود إلى البيت ليخبر عائلته بأنه حصل على جواز سفره. لا. مستحيل. مستحيل! أكيد أن أمه سوف تستشيط غضبا. وربما تذهب إلى الشرطة لتطلب منهم أن يسحبوا منه الجواز فورا. نعم. هي قادرة على ذلك. ودائما حين يتحدث أمامها عن السفر، تأخذ هي في الصراخ، بل وتنتف شعرها أحيانا لاعنة الزمن الذي فرض عليها أن تكون زوجة لرجل أبكم، أصم وأُمّاً لابن عاق.

مرة واحدة فقط سمحت له بالحديث عن السفر دون أن يعتريها الغضب وذلك عندما أعلمها بأنه سيسافر إلى بيروت. وهناك يدبر حاله مع الكنيسة مثلما يفعل جل الآشوريين بهدف الحصول على تأشيرة إلى أمريكا. حال وصوله إلى هناك سوف يغرقها ويغرق العائلة كلها في بحر من الدولارات. ولأنه كان سكران قليلا، فقد تحدث بشكل جميل. وكانت أمه تصغي إليه وهي سارحة الذهن. لعلها كانت وقتئذ تفكر في تلك الصور التي يرسلها الآشريون المهاجرون إلى كندا وأمريكا والتي يبدون فيها دائما واقفين إلى جانب سيارات ضخمة ونساء شقروات. لكن فجأة

انتفضت مثل الملدوغة وصاحت فيه: "أعرف أنك لن تكون مثل الآشوريين الحقيقيين فأنت ولد فاسد مثل أبيك ولا يمكن أن تشفى من هذا الفساد أبدا. وقلبي يقول لي إنك سوف تنتهي سكيرا مثله إذا ما أنت ذهبت إلى أمريكا. بل وستنسى أمك وإخوتك تماما... هذا ما يقوله لي قلبي !". وحده أبوه يرغب في أن يفر بعيدا. ومرة أشار له بأنه إذا ما سافر فإنه سيسافر معه. "كيف؟" سأله هو (بالإشارة طبعا). ابتسم كيكا وأشار له بأنه سيسافر معه بالخيال.

هل يذهب إلى جان، صديقه الشاعر الصعلوك الذي يكتب قصائد ثم يحرقها لأن كل الصحف والمجلات الرسمية ترفض نشرها؟ ولكنه يمقت الذهاب إلى ذلك البنسيون الحقير حيث يسكن لأنه تخانق أكثر من مرة مع صاحبه. أما إذا ما كان في البار على كورنيش أبي نواس الذي يرتاده يوميا فإنه سيكون سعيدا بالتحدث إليه.

ذهب إلى هناك فعثر عليه سكران حتى التلف.

- اسمع يا جان... لقد سلموني جواز سفري .

- حقا... أهنئك يا شاموئيل العزيز... ومتى ستسافر؟

- بعد يومين أو ثلاثة. هل تريد أن أرسل لك شيئا عند وصولي إلى هناك؟

- لا أريد شيئا. ألم أقل لك إنني إنسان ميت من زمان ! قال جان ثم أخرج من جيب سترته البالية، المبللة بالعرق ورقة صغيرة وأردف قائلا:

- هذه أبيات لشاعر أمريكي يدعى والت ويتمن. احملها معك أينما ذهبت حتى لا تنساني: "سأكون - حيثما عشت حياتي / متوازن الذات أمام الطائرات / لأواجه الليل والعواصف والجوع والسخف / والحوادث والإخفاقات / مثلما تفعل الأشجار والحيوانات".

غادر الفتى الآشوري بغداد ولا أحد من عائلته يعلم بذلك غير أبيه. انسل من البيت فجرا وليس معه سوى حقيبة صغيرة وضع فيها بعض الروايات البوليسية وأدوات التنظيف وبوسترات الممثلات وممثلين يعشقهم منذ كان طفلا في الحبانية. رافقه أبوه إلى عتبة الباب. احتضنه طويلا ثم أشار له ويداه فوق رأسه على شكل تاج بأنه إذا ما ابتغى الخلاص لنفسه حقا، فإنه يتوجب عليه أن يفعل

كل ما في وسعه للوصول إلى بلاد الملكة الجميلة ذات التاج المرصّع بالذهب. عند وصوله إلى رأس الدرب، التفت فرآه واقفا ويداه فوق رأسه على شكل تاج. واصل سيره باتجاه محطة الحافلات ودموعه تنهمر بغزارة. فجر اليوم التالي وصل إلى دمشق. وضع حقيبته في فندق بائس بمواجهة "سوق الحميدية" (لعله نفس الفندق الذي نزلت فيه أنا قبل ذلك بخمسة أعوام) وتاه في الشوارع والخطة التي رسمها لنفسه تشغل باله إلى درجة أنها لم تكن تترك له مجالا لكي يرى ما حوله أو يفكر في شيء آخر غيرها. نعم. هو الآن قريب من باب الخلاص. بعدها يصبح كل شيء هينا. جل الآشوريين العارفين بخفايا الأمور أكدوا له أن الكنيسة لن تبخل عليه بالتدخل لدى السفارة الأمريكية لكي يحصل على تأشيرة. كثيرون من أبناء الحبانية حظوا بهذه المساعدة وهم الآن يعيشون حياة الترف والنعمة. وهو حالما تترفه أحواله، ويصبح سينمائيا مشهورا، سيدعوا والده. سيقتني له بذلة أنيقة مثل تلك التي يرتديها اللوردات الإنجليز، ثم يطوف به من نيويورك وشيكاجو وكاليفورنيا وهوليوود ويأخذ له صورا أمام البيت الأبيض. حتى إذا ما عاد إلى بغداد حرق قلوب أهلها غيرة وحسدا بأناقته، وبحكايته الصامتة عن ناطحات السحاب، وعن تماثل الحرية، وعن النساء الشقراوات والسيارات الفخمة. المهم هو الوصول إلى بيروت. صحيح أن الحرب المشتعلة هناك منذ سنوات عدة تُعقّد الأمور، غير أن قلبه يقول له أن ابن حلال سيطلع عليه من مكان ما، ويقوده إلى باب الخلاص بكل يسر. آ... هنا أيضا صور الزعيم الأوحد تطالعك أينما نظرت! هذا الشرق البائد الذي ألف الاستبداد وألفه الاستبداد! لكن ما علاقته هو بهذا؟ عليه أن يحفظ لسانه من الزلات، وأن يتجنب كل ما يمكن أن يثير الشبهات. بلاد الشرق تعج بالعيون وخطأ واحد قد يؤدي بصاحبه إلى الهلاك وبئس المصير.

لابد من الحذر! إذ بعد أيام، بعد أسابيع على أقصى تقدير سيكون بعيدا عن هذا الشرق بعد السماء عن الأرض. عندئذ بإمكانه أن يرفع صوته عاليا، وأن يلهج بأي كلام يريد. أما الآن، فمن الأفضل أن يصمت، وأن يلبد مثل قنفد في الدغل.

اشتد الحر فعاد إلى الفندق لينام حتى نهاية الظهيرة. وكان يتأهب للخروج لما داهم غرفته رجلان بنفس القامة ونفس الملامح كما لو أنهما توأمان. حتى لباسهما كله متشابها إلى حد كبير. سأله الذي على يمينه:

- هل أنت شاموئيل؟

- نعم... أنا هو...

- أين حقيبتك؟

- هاهي.

- هذا فقط ما عندك؟!

- نعم. هذا فقط ما عندي؟

فتح الرجل الحقيبة أفرغها من كل محتوياتها. وبعد أن نظر تحت الفراش وفي الخزانة، استدار وقال له بحدة :

- تعال معنا !

- إلى أين؟ !

- ستعرف ذلك بعد قليل .

- هل آخذ معي حقيبتي؟

- نعم. خذ حقيبتك معك.

في مكتب عار عراء القبر، تحلق حوله أربعة رجال مشوربون مهتاجون كأنهم كائنات تلبستها الشياطين، وشرعوا يمطرونه بالأسئلة. في البداية كانت الأسئلة جدّ عادية حتى أنه لم يتمكن من أن يتبين من خلاله ما يمكن أن يساعده على الكشف عن سبب إيقافه. لكن عندما طرح عليه السؤال التالي: "هل أنت يهودي؟!" أدرك أن اسمه هو سر البلاء الذي حل به. وفي الحقيقة هو لم يكتشف أن اسمه يمكن أن يكون مصدر متاعب بالنسبة له إلا عندما انتقل ليعيش في الرمادي بعد أن أجبر جميع سكان الحبانيّة على إخلاء بيوتهم. وهو يتذكر أنه سمع حسين كوباي رئيس العائلة الشيعية الإيرانية التي كانت جارة لهم في الحبانية، يقول لأولاده ليلة وصولهم إلى هناك: "اسمعوا يا أولاد... يجب أن تعلموا جميعا أن

الرمادي ليست الحبانية، وأن أهلها هم بدو بنو دليم الأشداء الذين لا يترددون في ذبح من تسول له نفسه المس من شرفهم، وإلقاء جثته في الخلاء مثل كلب. لذا عليكم أن تكونوا جد حذرين وإلاّ فإنه لن يكون بمقدورنا البقاء في هذه المدينة أسبوعا واحدا. هل فهمتم؟!". ولم يكن يمضي شهر واحد على إقامته في الرمادي، حتى عاش الفتى الآشوري حادثا فظيعا أثبت له صحة هذا الكلام. فقد كان يتجول بصحبة ابراهيم، الإبن الأوسط لابراهيم كوباي، في تلك الواحات المتاخمة لنهر الفرات، الواقعة على مسافة بضع كيلو مترات من الرمادي لما اهتزت الدنيا من حولها بأصوات وصيحات غريبة. ارتعب الولدان فسارعا بالاختفاء في دغل قريب. من هناك، شاهدا جمعا من البدو بأيديهم سكاكين وهراوات وفؤوس، يطاردون شابا نحيلا، يرتدي بذلة رمادية كئيبة، وتبدو على ملامحه الدرجات القصوى للفزع. ثم لم يلبث أولئك البدو أن أدركوا الشاب.

وفي الحين انهالوا عليه ضربا وركلا ورفسا إلى أن تلطخت ثيابه بالدم. بعدها راحوا يجرونه هكذا على الأرض بينما كان هو يعول متوسّلا إليهم أن يرحموه، وأن يشفقوا على أمه العجوز المريضة.

عندما وصلوا به إلى ضفة النهر، هووا عليه بالفؤوس والهراوات وهم في حالة من الاهتياج الشديد. فلما خمدت أنفاسه ألقوا بجثته في النهر، ثم انصرفوا في حال سبيلهم وكأن شيئا لم يكن. في المساء علم الفتى الآشوري أن القتيل، معلم شاب من الشمال تحرّش بزوجة أحد أعيان الرمادي. إثر هذا الحادث الأليم، اتسعت مساحة الخوف حول الفتى الآشوري حتى بات يشعر كما لو أنه يسبح طول الوقت في مستنقع من الزفت. حالما يجتاز العتبة، ويمشي خطوات قليلة في الشارع، تنغرس في لحمه الغض النظرات الحاقدة، وتطوقه الأصوات الغليظة المتوعدة والأسئلة التي لا تنتهي: من أنتم؟ أكراد؟ يهود؟ من أين أنتم؟ ولماذا جئتم إلى هنا؟! وحدها ذكريات الحبانية الجميلة التي تنثال عيه في ساعات الوحدة القليلة، خصوصا في الليل لما يأوي إلى الفراش، كانت تخفف عنه وطأة الخوف، وتعيد إلى قلبه قليلا من الاطمئنان والأمل.

في المعهد، لحظة نطق باسمه، استدارت إليه الرؤوس، وانتصبت الآذان، واشرأبت الأعناق، وحملقت فيه العيون كما لو أنه عفريت مخيف ألقي في الفصل على حين غفلة. أما معلم اللغة العربية، وهو كهل سمين، قصير، أصلع، يتحرك بصعوبة ويتجشأ طول الوقت فقد صاح فيه:

أعد!

شاموئيل سيدي!

- هل أنت يهودي؟!

- لا عراقي سيدي!

- عراقي ولك مثل هذا الاسم؟!

- أنا آشوري سيدي!

- آ... آشوري... آشوري... لم أكن أعلم أن الآشوريين لهم أسماء يهودية!.

كانت تلك بداية عداوة معلم اللغة العربية للفتى الآشوري فأصبح يكيل له الأصفار على اليمين وعلى الشمال، بل ويتحاشى النظر إليه، والتلفظ باسمه. فإذا ما اضطر إلى مناداته أو مخاطبته، فإنه يفعل كل ما في وسعه كي لا يرد اسمه على لسانه: "أنت يا ولد... يا صاحب الاسم الغريب. عليك أن تنطق الحروف جيدا وإلا فإن العاقبة سوف تكون وخيمة!" أو: "أنت... يا ولد... يا آشوري... عليك أن تكف عن الحملقة وأن تنتبه جيدا إلى ما سوف أقول حتى تتعلم كيف تصبح آدميا!". فإذا ما ردّ الفتى الآشوري: "حاضر سيدي!" انفجر هو غاضبا، وصاح ضاربا المصطبة بحذائه الملطخ بالوحل دائما: "اسكت يا حيوان. أنا لا أتحمل أن أسمع صوتك. هل فهمت؟!". أما المعلمون الآخرون، فإنهم لم يبدوا أي علامة من علامات الاستغراب أو الاشمئزاز لما نطق باسمه. بل إن البعض منهم دأبوا على التنويه بذكائه وشطارته. وبطبيعة الحال، كان هذا الأمر يفرحه كثيرا غير أنه لم يكن كافيا لنزع فتيل الخوف من صدره. فالتلاميذ لم يكونوا يقلون قسوة وشراسة من آبائهم. وحتى بعد مضي أشهر طويلة على تواجده بينهم ظلوا يظهرون نفورا شديدا منه، ويسعون باستمرار إلى مضايقته بشتى الطرق والوسائل. وغالبا ما كانوا يسخرون

من اسمه: "أوه... شاموئيل... مثل شيطان... مثل شوك... مثل شر... مثل شؤم.. مثل شعر الأست الآشوري". وهو يحاول جاهدا أن يتجنبهم. وهم يدورون حوله ممعنين في الإيذاء. في أوقات الراحة، يتحلقون على مسافة قريبة منه، ويشرعون في إطلاق عبارات السخرية مقهقهين عاليا. وذلك الفتى عمر المخدوش الوجه طول الوقت بسبب ميله إلى العراك، كان أشرسهم وأعنفهم وأشدهم كراهية له. وقد نصح ابراهيم بأن يكفّ عن مصاحبته وإلاّ... "وإلاّ ماذا ؟ !" سأل ابراهيم.

وعندئذ ابتسم الفتى الشرير عمر بخبث وهمس: "ستعرف ذلك عمّا قريب !".

ظلوا يتربصون به. يتعقبون خطاه. يضيقون الخناق عليه. في صالة السينما الوحيدة بالمدينة، وكذلك في الفصل، يرمونه بقشور البرتقال، بالحصى، بالتمر المتعفن. ومرة أسرّ له ابرهيم وهما خارجان من حصة الرياضيات أواخر الظهر أن عمر وأصحابه مسلحون بسكاكين، "سكاكين !" صاح، وقد أحسّ أن قلبه ينزل إلى ركبتيه من هول الرعب. "نعم... سكاكين... ألا تعلم أن أول ما يتعلمه صبيان بني دلي هو الطعن بالسكين؟!" قال ابراهيم.

تضاعفت مساحة الخوف حتى أضحت تعادل مساحة المدينة بأسرها، وأصبح الفتى الآشوري يرى في اليقظة كما في المنام سكاكين هائلة الحجم، تتلامع مع أياد مكسوة بالشعر، وهو ملقى على الأرض مذبوحا من الوريد إلى الوريد. واصلوا ملاحقاتهم له ودورانهم حوله:

"تعال... تعال" كانوا يقولون له محاولين استدراجه إلى مكان بعيد ينفذون فيه مؤامرتهم القذرة التي يعدونها له منذ وصوله إلى الرمادي. وهو يحاذر، يراوغ، يتعامى يتصامم حتى لا يقع في الفخ المنصوب له. ولكنه ذات يوم لعب معهم البينج بونج، وبسهولة انتصر عليهم واحدا واحدا بما فيهم زعيمهم عمر الشرير. وكان يتأهب للعودة إلى البيت ليروي انتصاراته الساحقة على أبناء بني دليم لأولاد حسين كوباي لما أحاطوا به وعيونهم تتلامع مثل عيون أولئك البدو الذين قتلوا المعلم الشاب على ضفة النهر. وبسبب ما ذاقه يومها من لكمات وركلات، لازم الفراش لمدة أسبوع كامل...

طافت هذه الذكريات البشعة في ذهن الفتى الآشوري في رمشة عين وهو جالس وسط رجال الاستخبارات الأربعة، ثم ابتسم ابتسامة من يشعر أن الخطر المحدق به قد أخذ في الانجلاء وقال:

- لا أيها السادة... أنا لست يهوديا... ولم تريدون أن أكون يهوديا ؟

- اسمك يدل دلالة قاطعة على أنك يهودي !

- اسمحوا لي أيها السادة أن أقول لكم أنكم على خطأ !

- من أنت إذن؟

- أنا آشوري. والآشوريون كما تعلمون أيها السادة كانوا منذ بداية التاريخ ألدّ أعداء اليهود. فقد سباهم ملكنا نبوخذ نصّر وخرب مدينتهم أورشليم !.

بدا له كما لو أنهم اقتنعوا بما قال. مع ذلك ظلوا يقذفونه بالأسئلة، وينصبون له الفخ محاولين إرباكه والإيقاع به. أمّا هو فقد كان يردد طول الوقت:

- أنا آشوري أيها السادة. آشوري قح. وجدّي نبوخذ نصّر فعل باليهود ما فعله بطلكم صلاح الدين بالصليبيين!.

بعد ثلاثة أيام من التحقيق المتواصل، أخلوا سبيله فخرج إلى الشارع يهزه نفس ذلك الزهو الذي استبد به يوم حصل على جواز سفره... لا يهم. لم يضربوك ولم يهينوك. فقط أرادوا التثبت من هويتك. وهذا من حقهم. وأنت عليك أن تتقبل هذا بصدر رحب. الوصول إلى باب الخلاص ليس سهلا. وفي طريقك إليه، يتحتم عليك أن تكون على استعداد دائم لمواجهة المصاعب والمفاجآت غير السارة. لذا امح من ذاكرتك ما حدث لك خلال الثلاثة أيام الماضية وحافظ على توازنك وعلى رباطة جأشك وإلاّ فإن الوصول إلى باب الخلاص سوف يكون مستحيلا. والنبي يونس الذي تعشق قصته منذ كنت صبيا في الحبانية، طرح في أعماق البحر، ومكث في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال، ثم نجاه الرب. وأنت أيضا سوف ينجيك الرب. لأن الرب رؤوف رحيم بطيء الغضب وكثير الرحمة ونادم على الشر.

مضى شهران، وهو في دمشق. أحبّ مقهى "هافانا" بقلب المدينة فأصبح يرتاده يوميًا. جلّ الزبائن -كما تبيّن له- كتاب وشعراء وصحافيون ورسامون ومثقفون فاشلون. يطلب بيرة مع مزّة، ويمكث هناك ساعات طويلة متطلعا إلى الداخلين والخارجين، منصتا إلى الدردشات والنكات والمناقشات الجدية حول الأدب والفلسفة والسياسة ولا يعود إلى الفندق إلاّ في ساعة متأخرة من الليل. وفي ذلك المساء الممطر، دخل المقهى فوجده مكتظا، وكان عليه أن ينتظر ما يقارب العشرين دقيقة لكي يخلو له مكان بجانب شابّ وسيم، أنيق، أزرق العينين، كان يدخن ساهما وأمامه كومة من الجرائد. طلب منه أن ينظر فيها، فأذن له الشاب بلطف بالغ. راح في نيّته أن يقرأ مقالا تحليليا عن الانتفاضات الشعبية في إيران التي مهدت لتلك الثورة التي أطاحت بنظام الشاه، لما مدّ الشاب رأسه باتجاهه وسأله: "هل أنت عراقي؟"، "نعم..."، ابتسم الشاب وقال: "أدركت ذلك من النظرة الأولى!؟". جذب نفسا عميقا، ثم أضاف: "لي أصدقاء عراقيون كثيرون. وقد زرت بغداد مرتين لأن لي أخا يعمل هناك مهندسا لذا لا يصعب عليّ تمييز العراقيين!".

ثم قدّم الشاب نفسه قائلا بأنه يدعى أديب، وأنه فلسطيني تخرج حديثا من جامعة دمشق -قسم فلسفة- وأنه ينوي السفر إلى برلين لاستكمال تعليمه. أما الفتى الآشوري فقد اكتفى بالقول أنه جاء إلى دمشق للسياحة. ومن المحتمل أن يسافر بعد ذلك غير أنه لم يحدد بعد وجهته. وعندما سأله أديب عن اسمه، تردد قليلا ثم أجاب: "سامي... سامي شاهين!".

شدّ أديب على يده بقوة وهو يقول: "أنا سعيد بالتعرف عليك يا سامي؟". وفي تلك اللحظة بالذات، قرر الفتى الآشوري أن يحتفظ بهذا الاسم للأوقات الحرجة. ولعل الشاب الفلسطيني أدرك أن جيب الفتى الآشوري لا يسمح له بأن يشرب أزيد من بيرتين، لذا دعاه إلى ثالثة، ثم رابعة، ثم خامسة. وشيئا فشيئا نشأت بين الشابين المتقاربين في السن تلك الألفة التي عادة ما تنشأ بين الغرباء، فذابت الكلفة بينهما، وعلت ضحكاتهما، وانطلق لساناهما بالحديث في أمور

شتى. ولمّا انتهى بـهما الحديث إلى السينمـا، تبيّن الفتى الآشوري أن أديبـا مهووس مثله بهذا الفن، ومفتون بنفس الأفلام التي فتن بها هو. عندئذ انهارت جميع مخاوفه وبدا له أنه يستعيد من جديد تلك الطمأنينة التي طبعت طفولته في الحبانية.

في اليوم التـالي، وبعد أن شربا البيـرة الأولى، قرّب الفتى الآشوري كـرسيّة من كرسي الفتى الفلسطيني، وهمس له:

- اسمع يا أديب. لابدّ أن أعترف لك بأنني لا أدعى سلمي شاهين بل شاموئيل!.

- ولم أخفيت عني اسمك الحقيقي؟

- خفت أن تظن أنني يهودي كما هو الحال مع العديد من الناس !.

ضحك أديب عاليا، ثم قال :

- يا عزيزي شاموئيل... هل لك سرّ آخر ترغب في أن تبوح به إليّ؟!

- أريد أن أذهب إلى بيروت !

- بيروت في هذا الوقت الذي يأكل فيه الناس بعضهم بعضا؟ !

- نعم بيـروت. لأنه بإمكاني أن أتـصل هناك بالكنيـسـة لكي تسـاعـدني على الحصول على تأشيرة دخول إلى أمريكا كما يفعل جلّ الآشوريين...

- وماذا ستفعل في أمريكا؟

- سأدرس السينما. وأنا واثق من أنني سأكون سينمائيا كبيرا ذات يوم !

- طيب. أنا أعرف أحدا يمكن أن يـساعدك... لكن بشرط !

- ماهو هذا الشرط ؟

- أن تقـول له أنك متـعاطف مع الثـورة الفلسطينيـة وأنك مـستعـد لأن تكون واحدا من مناضليها...

- ولكن...

- الغاية تبرر الوسيلة يا شاموئيل العـزيز. وإذا ما أنت قبلت بهذا الشرط، فإنك ستكون في بيروت في ظرف أربع وعشرين ساعة: بعدها بإمكانك أن تدبر حالك.

في بيروت، عمل الفتى-الآشوري في مكاتب الإعلام التـابعة للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين. وتجنبا للشبهات في مـدينة يقتل فيها الناس على الهوية، تخلى عن

اسمه القديم وأصبح يدعى سامي شاهين. ولكي يمحو كل أثر لذلك، مزّق جواز سفره العراقي، وباسمه المزور حصل على جواز سفر يمني جنوبي وبه سافر إلى عدن والقاهرة وقبرص. ولأنه عشق بيروت رغم الموت والدمار، ابتلى بحب فتاة أرمينية شقراء، فإنه ظل يؤجل تنفيذ أحلامه الأمريكية إلى أن غزا الإسرائيليون لبنان.

ننتقل إلى مطعم فرنسي قريب من "كعب الحصان" يقدم أكلات الزاسية لذيذة، وتحرص صاحبته السيدة لوسي التي لها بعض من ملامح سيمون سينيوريه على امتاع زبائنها بأشهر أغاني أديث بياف وجورج براسانس وليوفاريه وجاك برال.

بعد الطلبات، يرتفع صوت أديت بياف مرددا تلك الأغنية المحببة إلى نفسي: "نازلين النهر الفضي الذي يتدفق حتى نيفادا / نشاهد السهل الذي يمتد شرقي سانتالوسيا / المدن تسمى ناتيفيداد، سان ميجيل أوسانلورانزو / الفتيات يدعون سوليداد / الفتيان يرعون القطعان".

كلما سمعت هذه الأغنية إلاّ وطفت على سطح الذاكرة نتف وصور من الماضي، وجوه ومشاهد، أماكن ومدن عبرتها خلال تيهي الطويل: مسارب الرمل التي قطعتها في طفولتي. أغاني القمر المكتمل في زفاف فاطمة بنت سعيد مطلقين نيران بنادقهم في الهواء، وأنا في مخزن التبن أبكي نهاية حبي لها. سهول القيروان المتماوجة في سراب الصيف. بساتين الزيتون في الأندلس. الأحراش المسلوخة المحيطة بقفصة. شانتال لمّا ضاجعتها ليلا على رمال شاطئ بنزرت. عسل الفجر على كثبان صحراء دوز. الغروب على كورنيش أبي نواس في بغداد. قوافل الطوارق في فيلم "سماء فوق الصحراء" لبارتولوتشي. ساحة "فاطمة" في حي البيازين بغرناطة. مطلع رواية "ضوء في آب" لويليام فوكنر : [جالسة على حافة الطريق، عيناها مثبتتان على العربة التي تصعد باتجاهها، فكرت لينا: أنا قادمة من ألا باما: مسافة لا بأس بها. على القدمين من ألاباما حتى هنا. مسافة لا بأس بها]. الصحراء الليبية من الطائرة. "الوادي الكبير" في قصائد لوركا. جولاتي الخريفية في جبال باڤاريا. الرجال السبعة في انتظار شارل برونسون في بداية فيلم "حدث ذات

مرة في الغرب" لسارجيو ليوني. موسيقى "الفادو" في بارات لشبونة العتيقة. قطار الشرق السريع. لوحة "حقل القمح" لفان كوخ. الثلوج على جبال الأطلس في عز الصيف. أحلام شاموئيل الأمريكية. صليحة وهي تغني: "بالله يا أحمد يا خويا/ يا راكب العتيل / جيب الخبر منك / نسمع عن نجعنا دريد".

أسوق كلّ هذا لأصدقائي دفعة واحدة، فيعلق شاموئيل قائلا: أنا أيضا أحبّ هذه الأغنية لأنها تذكرني بمشهد عزيز على قلبي: "أنا في العاشرة من عمري في قاعة سينما الحبانية أتفرّج على فيلم "غزو الغرب" لجون فورد وبجانبي أبي وقد شدته المشاهد حتى باتت عيناه الصغيرتان الكابيتان تضيئان مثل الحباحب في الظلام البهيم!".

جئت إلى ميونيخ صدفة. ركبت قطار الحادية عشر ليلا من محطة "الشرق" في باريس، وفي الصباح كنت هناك وليس معي غير حقيبة صغيرة فيها بعض الملابس وأدوات التنظيف ودفتري الأزرق وعدد قليل من الكتب. لم يكن في نيّتي أن أمكث في هذه المدينة أكثر من أسبوعين غير أن الأقدار شاءت أن أحط الرحال فيها واضعا حدّا لسنوات طويلة من الترحال بين المدن، ولحياة مضطربة أفادتني كثيرا غير أنها لم توفر لي الوقت الكافي لإنجاز أيّ من أحلامي ومشاريعي الإبداعية. وفي الحقيقة بدت لي ميونيخ منذ وطأتها قدماي، مكانا مثاليا للإقامة. فهي هادئة وجميلة وخالية من المثقفين العرب، بل وخلوّها من المثقفين العرب هو الذي لعب الدور الأساسي في حسم الأمر. ذلك أن قرفي من الحروب القذرة التي يخوضها المثقفون العرب ضد بعضهم بعضا في لندن وباريس كان قد بلغ أوجه، وكان حلمي بالعثور على مكان منعزل يتيح لي تلك المحاسبة العسيرة مع النفس قد أخذ يطغى على جميع أحلامي الأخرى.

عثرت على شقة صغيرة مؤثثة في قلب "شوابينج"، أهم أحياء ميونيخ وأكثرها كوزموبولوتية. حالما دخلتها، ارتميت على الكنبة البرتقالية، وانخرطت في البكاء لسبب لا أدريه. ربما لأنني تذكرت وأنا أدير المفتاح في القفل كل تلك العذابات التي كابدتها على مدى سنوات التشرد المرة. في الليل، على أنغام سمفونية "الفصول الأربعة" لفيفالدي، كتبت رسائل إلى أصدقائي في تونس والرباط ومدريد ولندن وباريس

أعلمهم فيها بتفاصيل أطوار حياتي الجديدة. وكان الفتى الآشوري واحدا منهم. بعد أسبوع هتف لي في الثانية صباحا وقد أثقل الشراب صوته:

- اسمع أيها الوغد. لا بدّ أن آتي إلى ميونيخ لمقاسمتك نعمة الشقة !

- متى تريد أن تأتي؟

- حالما أعثر على ثمن تذكرة القطار سأكون عندك.

مرّ شهران ولا خبر عنه. الثلوج تتهاطل وأنا أقرأ سيلين وأستمع إلى السمفونيات الكلاسيكية وأحاول أن أتعلم بعض الكلمات الألمانية تساعدني على قضاء شؤوني الضرورية. أحيانا يقرصني الألم لأنني لا أفهم ما يقال من حولي، ولا أقدر أن أخاطب الآخرين، بل ويجبرني الجهل باللغة على أن أقتني الأشياء التي أريدها بالإشارة فقط. لكأني روبنسون كروزوي وهو يواجه ألغاز الحياة في تلك الجزيرة النائية المتوحشة. مع ذلك، لم يستطع كل هذا أن يفت عزمي، أو أن يزعزع تلك السعادة التي كانت تهدهد روحي مثل أم حنون.

في الليلة التي كان فيها البافاريون يحتفلون بـ"الفاشينج" لذت كعادتي ببار "جيني" القريب مني للاستماع لموسيقى الجاز على الكونتوار، بجانبي، امرأة ثلاثينية شقراء، بفستان أسود يكشف مفاتن صدرها، تدخن وأمامها كأس شمبانيا. حين تأكدت أنها وحيدة، رميت شبكتي، فاستجابت لي في الحين. بأنجليزيتي الفقيرة، وبأنجليزيتها الأفقر، استطعنا أن نتفاهم. ناتاشا بولونية. تعمل في "سوبارماركت" في ميونيخ. شربنا زجاجة شبانيا كاملة. رقصنا قليلا على أنغام الجاز. عند الفجر، أخذتنا إلى شقتي الصغيرة وظللت أحرثها حتى لم أعد قادرا على الوقوف على قدمي. بعد ذهابها، غرقت في النوم، ولم أستيقظ إلاّ عند الظهر. وكنت لا أزال أحاول أن أنتشل نفسي من الفراش حين رنّ الهاتف.

رفعت السماعة فانفجرت في أذني ضحكته الشيطانية مخلوطة بضجيج مقهى:

- أمازلت نائما أيها الوغد؟ !

- من أين تهتف لي ؟

- خمّن من أين ؟
- من... من... من الجحيم...
- كنت على يقين من أنك لن تتوصّل إلى معرفة ذلك أبدا !
- هيّا قل لي من أين لأن الصداع الذي يثقل رأسي بسبب سهرة البارحة لا يسمح لي بتحمل هذا المزاح الثقيل.
- أنا في ميونيخ !
- حقا؟ !
- وتحديدا في بار "يتركنهوف" الذي حدثتني عنه في رسالتك. إنه بالفعل بار جميل. وهذه النادلة التي تسقيني كم هي لذيذة !
- متى وصلت؟
- هذا الصباح. لقد أخذت نفس القطار الذي أخذته أنت...
- ولم لم تهتف لي؟
- لقد أردت أن أثبت لك مرة أخرى أنني بالفعل شيطان أزرق !
- سآتي حالا!. قلت. ثم لبست ثيابي على عجل وهرعت إليه.

في تونس، كنت قد لاحظت أن الفتى الآشوري لم يكن يعير المال أيّ اهتمام. يبذره يمينا وشمالا دون أن يفكر في نتائج ذلك أبدا. لا يهمه أن يحرق مبلغا ضخما في ليلة واحدة ليستيقظ في اليوم التالي وليس في جيبه ما يكفي لشراء علبة سجائر. مرة دخل علينا ونحن في بار "الانترناسيونال". كنا عشرة. دفع مشروبنا وحتى مشروب من كانوا في الطاولة المجاورة لنا والذين لم تكن تربطنا بهم أية صلة. في الليل دعانا إلى العشاء في مطعم من أفخر مطاعم العاصمة. بعد يومين جاءنا إلى "طونطوفيل" ليطلب منا أن ندفع له ثمن الغداء ونشتري له علبة سجائر! فعل هذا معنا ومع آخرين مرات ومرات. بل إن خالدا حكى لي أنه كان معه في الحمامات ذات يوم. وإذ به يأتي على مبلغ ألف دولار في ليلة واحدة. في الصباح، كان عليهما أن يبحثا عمن يعيدهما إلى العاصمة لأنهما لم يكونا يملكان ثمن تذكرة الحافلة !

وعندما قدم إلى ميونيخ، كان كل هذا في ذهني، غير أني لم أكن أتصور أنه سيفعل بي ما كان قد فعله كونراد تيريكان بهنري ميلر دعاه إلى بيته في "بيج سور" !

في البداية مرّ كل شيء بسلام. كان مزاحه رائعا إلى أبعد حد. ينظف الشقة يوميا. يقرأ أشعار الجاهليين وقصص شارل بوكوفسكي الذي يعشقه كثيرا. يكتب بطاقات إلى أصدقاء وصديقات مفاخرا بوجوده في ميونيخ التي لا يعرفها أحد منهم. يروي لي طرائف تضحكني حتى تدمع عيناي.

يعيد علي ما كان قد حكاه لي عن الحبانية وأهلها، وعن أبيه الأبكم الأهم. حكايات حفظتها عن ظهر قلب غير أن طريقته البديعة في سردها تجعلني لا أملّ منها أبدا. في الليل نخرج إلى البارات ونظل نشرب حتى طلوع الفجر أحيانا. أحبّ "التيركنهوف" وفيه ربط علاقات مع العديد من النساء والرجال. أخذته إلى بار "جيني" ففتن به إلى درجة أنه أصبح يرفض العودة إلى الشقة قبل أن يشرب كأسا فيه.

بعد أسبوعين لم يعد بإمكاني تحمل هذه الوتيرة الجهنمية. ملأت الثلاجة بالبيرة ثم قلت له:

- اسمع يا شاموئيل العزيز. علينا أن نقلل من الخروج ليس فقط لأن جيبي لا يحتمل ذلك بل لأن الأعمال المتراكمة على طاولتي باتت لا تطيق المزيد من الانتظار.

- عندك حق ! قال.

انشغلت بترجمة قصائد لهنري ميشو. تمدّد هو على الكنبة البرتقالية ونام. أو أنه تظاهر بالنوم. لا أدري. عند الظهر أخذ دشا. أكل "أومليت" ثم شرع يشرب البيرة تلو الأخرى نافثا دخان سيجارته بغيظ. واصلت أنا العمل وكأنه غير موجود. فجأة نهض واقفا:

- ليس هناك شيء في الدنيا أمقته مثلما أمقت الشراب في البيوت !، قال بنبرة محمّلة بالتقزز والسخط.

ظللت صامتا.

اتجه نحو الباب:

- أريد أن أشم الهواء!

أمعنت في الصمت.

- وأنت... أليس في نيّتك أن تخرج؟ قال.

- لا رغبة لي في الخروج، قلت.

- لقد عملت بما يزيد على السبع ساعات. أليس كافيا؟

- لا... ليس كافيا...

- طيب... طيب... قال بصوت خفيض.

ظل واقفا قرب الباب لبضع دقائق. ثم عاد ليتهالك على الكنبة وقد اربدّ وجهه من فرط التوتر.

- ألم تقل إنك تريد أن تشم الهواء؟ قلت.

- صحيح... لكن...

- لكن ماذا؟!

- أتريدني أن أخرج إلى الشارع وليس في جيبي مارك واحد؟!

مددت له عشرين ماركا. أخذها وراح يدعكها بتشنج واضح. ثم قال:

- ولكن هذا ليس كافيا يا عزيزي!

صعد الدم إلى رأسي. وأحسست كما لو أن نارا اندلعت في كياني كله:

- لماذا ليس كافيا؟! قلت وأنا أرجف.

لأنني بحاجة إلى علبتي كمال بدون فيلتر. ثم أني أنوي أن أعزم شخصين في بار "التيركنهوف" على كأس.

- ولماذا تريد أن تعزمهما؟

- لأنهما عزماني بالأمس. وسوف يكون من الصعب عليّ...

رميت له بعشرين مارك أخرى. دسّ الورقتين في جيبه، ثم تحرك نحو الباب وهو يقول:

- مع ذلك أرى أن هذا ليس كافيا.

الأسابيع الثلاثة التي استغرقتها إقامته بعد ذلك، كانت جحيمية بأتم معنى الكلمة. كل يوم يتجدد نفس السيناريو: أعطيه مبلغا فتثور ثائرته ويصرخ عاليا: "أنتم العرب أبخل أمة في العالم. ومع ذلك أنتم تحرصون دائما على إخفاء عيبكم هذا بقصة ذلك الغبي حاتم الطائي الذي ذبح فرسه لضيوفه عندما لم يجد شيئا آخر يقدمه لهم !".

أو: "يبدو أنك جئت بي إلى هنا فقط لكي ترضي نزعاتك الساديّة !".

مرة فاجأته في "التيركنهوف" فإذا بي أتبين أنه قد دعا إلى الشراب عشرة من الرجال والنساء كانوا واقفين معه على البار. وكان هو مبحرا في مونولوج بلا نهاية مستعرضا أفلامه الوهمية بحماس من هو على وشك إنجازها وإخراجها للناس على أبعد وأكمل صورة! أحيانا يحتضنني ويقول لي بلطف لا مثيل له :

- لن أنسى أبدا فضلك عليّ يا عزيزي. وتأكد أن اليوم الذي سأثبت لك فيه كل هذا ليس بعيدا على الإطلاق. وعلى أية حال كن على يقين أن الأفلام التي سوف أنجزها في المستقبل القريب ستكون كفيلة بحل جميع المشاكل المادية التي أتخبّط فيها ويتخبّط فيها أصدقائي. وستكون أنت أول المستفيدين !

أداري أنا ضحكة، فيصيح هو محتجا:

- لا... لا... لا تضحك عليّ. أرجوك. أنا لا أمزح. وما أقوله سيتحقّق مائة بالمائة !

يشعل سيجارة. يأخذ بيرتين من الثلاجة. يفتحهما:

- لقد عملت أزيد من ثلاث ساعات ويحقّ لك الآن أن تستريح قليلا. أليس كذلك؟ خذ. لنشرب نخب صداقتنا الرائعة !

أسقط في حبائله. أشرب معه بيرة. أو ربما بيرتين أو حتى ثلاثة، ينشرح صدري، ويخف لهب الحنق الذي أشعر به تجاهه. يعاود احتضاني:

- أنت بدوي كريم. أعرف ذلك جيدا. بل أقدر أن أقول إنك أكرم من كل الذين عرفت حتى هذه اللحظة. وأنا سأكافئك على هذه الفضائل في السنوات القليلة القادمة !.

يرمي بعلبة البيرة في صندوق الزبالة. يفتح ثانية. ثم يقول:

- البارحة التقيت في "التيركنهوف" بطالبة جميلة جدا ولطيفة جدا. اسمها روفيتا. قالت لي إنها زارت تونس مرتين وإنها أعجبت كثيرا بالناس وبالطبيعة هناك. وقد تحدثنا طويلا عن السينما. وأنا متأكد من أنها ستعجبك كثيرا حين تلتقيها.

- أتريد أن أقدمها لك؟

- لم لا؟

- طيب. هذا أمر في غاية اليسر ذلك أني دعوتها للعشاء هذه الليلة !.

تنفتح أمامي هاوية وأراني ساقطا فيها بلا أدنى ريب.

- نعم سأتعشى معها هذه الليلة في "لا بوهام". إنه محل جميل ورخيص. أليس كذلك؟.

أظل صامتا بينما الهوة تجذبني إليها بقوة مغنطيس.

يقترب مني. يضع يده على كتفي ثم يقول لي بوداعة طفل أفلح في إرضاء والده وبات متأكدا من أنه لن يرد له طلبا :

- اسمع يا صديقي العزيز. هذه المرة ستكون الأخيرة. بعدها ورأس أبي كيكا لن أطلب منك شيئا أبدا... أبدا !

أنا الآن في قعر الهاوية ولا أمل لي في الخلاص. وإن أنا حاولت التملص فإن الوضع سيكون أعسر وأمر.

- كم تريد؟

- مائة مارك، يقول ذلك ببساطة مطلقة وكأنه يطلب مني أن أعطيه بيرة من الثلاجة.

- مائة مارك؟! أصيح أنا ملتاعا.

- نعم. مائة مارك فقط يا أعز صديق لي في الدنيا. بعدها إذا ما أنا سمحت لنفسي بأن أطلب منك ماركا واحدا فلا تتردد في إلقائي في الشارع !.

تدهور وضعي المادي وبت على حافة الإفلاس. حاولت أن أقنعه بهذا غير أنه صم أذنيه ورفض رفضا قاطعا سماع أي كلمة بخصوص هذه المسألة. عندما ألح،

يستشيط غضبا ويخرج من الشقة مثل عاصفة أو هو يسلك أسلوبا ليّنا، خصوصا لمّا يكون في حاجة ماسة إلى مبلغ معين، وعندئذ يحتضنني ويغرقني في بحر أوهامه التي لا حدود لها :

- لا تحزن يا صديقي البدوي. كل هذا البؤس سينتهي وذات يوم سنستيقظ لنجد أنفسنا أغنياء حدّ التخمة. نعم. سيحدث هذا. أنا متأكد من ذلك !.

لم يكتف بهذا بل راح يثير قلاقل وزوابع هنا وهناك ضاعفت من تعكير مزاجي وأفلست علاقتي مع أصحاب البارات. بصفة خاصة. ففي أواخر ليلة طش ورش، دخل إلى الشقة وعلى وجهه آثار شجار عنيف: جروح وكدمات ورضوض ودم قميص الدجينز. استفسرته عن السبب فقال لي أنه سقط في الشارع.

- ولكن يا شاموئيل، قلت له، الآثار التي على وجهك تدلّ دلالة قاطعة على أنك تشاجرت مع أحد ما !.

- لم أتشاجر مع أحد. كل ما في الأمر أني عثرت وسقطت هكذا على وجهي! قال بصوت غاضب، ثم أطفأ النور وأخلد للنوم.

ظهر اليوم التالي. كنت مارا أمام بار "جيني" فإذا بصاحبته الصهباء النحيلة التي تتكلم الفرنسية بطلاقة تناديني:

- هناك أمر لا بد أن أتحدث فيه معك !

دخلت. البار كان فارغا تماما. وضعت كأس بيرة أمامي:

- هذا على حسابي ! قالت.

- شكرا جزيلا قلت.

أشعلت سيجارة، ثم قالت:

- في الحقيقة أنا محرجة جدّا من التحدث معك في موضوع لا يهمك مباشرة. مع ذلك. أعتقد أنه من الأفضل أن أحيطك علما بما حدث هنا البارحة...

- ماذا حدث؟

- صديقك...

- ماذا فعل؟

- جاء إلى هنا بعد منتصف الليل وهو لا يكاد يعي ما يفعل وما يقول من فرط السكر. جلس إلى الكونتوار وراح يراود فتاة أنجليزية كانت بصحبة صديقها وحدث شجار عنيف بين الاثنين فانقلبت الكراسي والطاولات وتحطمت كؤوس، وفرّ الزبائن هاربين. أما أنا كدت أن أخرج عن طوري. ألم يخبرك بشيء؟

- لا أبدا.

- على أية حال أنا أريد أن يظل محلي كما كان وكما سيكون. لذا أرجوك أن تبلغ صديقك بألاّ يحاول العودة إلى هنا أبدا. أبدا. وإذا ما تجرأ على ذلك، فإني سوف أكون مضطرة لإبلاغ الشرطة !.

بلغ السيل الزبى ولم أعد أطيق. وكنت على وشك أن ألقي به وبحقيبته في الشارع حين رن الهاتف على الخط، مستشرقة ألمانية تدير مجلة أدبية. ترغب في أن أكتب لها مقالا عن المخرج السينمائي يوسف شاهين. حالما نطقت باسمه، لمعت الفكرة في ذهني مثلما يلمع ضوء النهار أمام من مشى طويلا داخل نفق مظلم:

- ولكن أنا أعرف صديقا يمكن أن يكتب أفضل مني عن يوسف شاهين، قلت لها.

- صحيح؟ ! قالت .

- نعم... صحيح. وهو على صلة قوية به. ثم إنه يمتلك ثقافة سينمائية رفيعة المستوى .

- هذا شيء رائع... أطلب منه إذن أن يكتب لي مقالا عنه وسأدفع له مبلغ 1300 مارك ! قالت.

ركضت إلى "التيركنهوف". وجدته يهذي على الكونتوار مع زنجي. والزنجي الذي أعتقد أنه من النيجر يستمع له مبهورا كما لو أنه في حضرة ساحر إفريقي يروي خرافات عجيبة. تحاشى النظر والتحدث إلي وواصل هذيانه. طلبت له وللزنجي ولي بيرة. ثم أعدت الكرة. عندئذ التفت إلي وقال وعلى شفتيه طيف ابتسامة ساخرة حدست دائما أنها ربما تكون شبيهة بابتسامة كيكا حين يكون سكرانا في بار الحبانية القذر، وقال:

- أنت كريم اليوم على غير عادتك ! قال.
- اسمع ! قلت له.
- ماذا ؟
- عندي لك خبر سار !
- هاته بسرعة لأني حزين طول هذا النهار وأريد أن أسمع ما يفرحني ويسليني قليلا.
أبلغته بما دار بيني وبين المستشرقة الألمانية، فقفز في الهواء وهو يصيح:
- هذا بالفعل خبر سار. بل هو أسعد خبر سمعته منذ دخولي إلى أوروبا... تعال أقبلك يا صديقي البدوي الجميل !.
أنجز المقال على كونتوار "التيركنهوف" في ظرف أربع ساعات. قرأته فوجدته في غاية الاتقان والجودة. سلمته إلى صاحبة المجلة فسلمتني بدورها مبلغ 1300 مارك. أمضينا ليلة صاخبة متنقلين بين مختلف بارات ومراقص المدينة ولم نعد إلى الشقة إلاّ في الساعة السادسة صباحا. استيقظنا عند الظهر فإذا به يفاجئني:
- اسمع يا صديقي. أعتقد أني مكثت هنا بما فيه الكفاية. لذا من الأفضل أن أرحل في أقرب فرصة ممكنة.
- هل تريد العودة إلى باريس؟
- لا .
- إلى أين تنوي الذهاب إذن؟
- إلى لندن التي كان من المفروض أن تكون أول مدينة في الغرب تطأها قدماي كما كان يتمنّى ذلك أبي. والآن وقد حصلت على مبلغ كاف للسفر إلى هناك، فإني أعتقد أن الوقت قد حان لإنجاز هذا الحلم القديم ! .
اقتطع تذكرة قطار وسافر فجرا إلى لندن عبر بلجيكا. رتبت شقتي وعدت إلى وحدتي التي حرمت منها ما يقارب الشهر والنصف الشهر. أمضيت يومين هادئين، أقرأ وأكتب ولا أخرج إلاّ لماما. في الليلة الثانية التي تلت سفر الفتى الآشوري، قمت

بجولة طويلة تحت الثلوج المتهاطلة بغزارة، ولم أعد إلى الشقة إلا بعد منتصف الليل. وكنت بصدد خلع ثيابي تأهبا للنوم حين رنّ الهاتف. رفعت السماعة فإذا بصوته يأتيني مخذولا منطفئا :

- اسمع يا صديقي. لقد رفضت شرطة الحدود البريطانية دخولي وأعادتني إلى بلجيكا على نفس الباخرة التي أوصلتني إلى هناك.

- ولماذا ؟

- الحكاية طويلة وأنا لا أملك المال الكافي لكي أوضح لك كل شيء عبر الهاتف.

- وأين أنت الآن؟

- أنا الآن في كولونيا.

- في كولونيا؟! وماذا تفعل هناك؟

- أعرف صديقا يقيم هنا غير أني لم أعثر له عن أثر. والآن أنا في محطة القطارات أموت بردا وجوعا !

- ألم يتبقّ لك أيّ شيء من المبلغ الذي معك؟

- لم يتبق غير عشر ماركات !

- وأين الباقي؟ !

- لا أدري. ألم أقل لك أنه ليس باستطاعتي أن أشرح لك كل شيء في الهاتف؟!

- وماذا تريدني أن أفعل لك الآن؟

- ابعث لي تذكرة حتى أتمكن من العودة إلى ميونيخ.

- ولماذا ميونيخ. أليس من الأفضل أن تعود إلى باريس؟ !

- وماذا تريدني أن أفعل في باريس وأنا على هذه الحال من الجوع والقهر؟ !

- ولكن...

- اسمع... أنا جد متعب ومنهار نفسيا وبحاجة إلى صديق مثلك حتى يخفف عني وطأة كل هذا. وأعدك أني لن أمكث عندك سوى يومين أو ثلاثة ثم أعود إلى باريس.

وصل ظهرا إلى ميونيخ. كان شاحبا هزيلا كأنه قطع صحراء الربع الخالي بدون زاد. لم أشأ أن أكون قاسيا معه فاشتريت له علبة سجائر كمال بدون فلتر، ثم دعوته إلى بيرة في "التيركنهوف". ولأنني فضلت أن يبادر هو بتوضيح ما حدث له خلال رحلته الفاشلة إلى لندن، فإني لم أطرح عليه أي سؤال، ولم ألمح بأيّ كلمة بخصوص هذا الموضوع. بعد البيرة الثانية بدا وكأنه استعاد حيويته. عندئذ التفت إليّ وقال وعيناه مثبتتان على عيني:

- هل تريد أن تعرف ماذا حدث لي بالضبط؟

- إن شئت ذلك؟

- طيب. هل تأمر لي ببيرة أخرى؟

أشرت إلى الجرسونة فوضعت أمامه ما طلب.

- آ... هذا أمر يسعدني ويسمح لي بأن أتحدث كما ينبغي عن مغامرتي الفاشلة!

أشعل سجارة، ثم تابع: الرحلة من ميونيخ إلى دوفر كانت جد ممتعة. بل لعلّها واحدة من أمتع الرحلات التي قمت بها في حياتي إلى حد هذه الساعة. فقد تعرفت على مسافرين كثيرين من مختلف الأعمار والجنسيات والمستويات وبيني وبينهم دارت مناقشات شيقة للغاية حول الدين والسياسة، حول الشرق، حول الشعر، وحول السينما بالخصوص. سليت بعضهم بالعديد من حكايات أبي كيكا الأبكم الأصم. واحدة سويدية تدعى انجريد ضحكت حتى الدمع لما رويت لها بالتفصيل حكاية حب أبي الرومانسية للملكة إليزابيت. نزلت في بروكسيل. أعطتني عنوانها في ستوكهولم وألحت عليّ أن أزورها. "سأكون سعيدة أن أراك ثانية!" آه. كم كانت لطيفة وكم كانت دافئة! واحدة أخرى هولندية اسمها فلور تحدثت معي طويلا عن السينما. وقد تبيّن لي أنها تعشق نفس الأفلام التي أعشقها. ضحكت كثيرا لما قالت لي أنها لم تكن تعلم أن العرب يعرفون السينما. ويبدو أنها، قبل أن تلتقي به، على يقين أن العرب لا يزالون يعيشون تحت الخيام، ويسافرون على ظهور الجمال من طنجة إلى مكة، ومن مكة إلى سمرقند! هي أيضا أعطتني

عنوانها. تعيش في امستردام وتدرس في أكاديمية الفنون الجميلة. نزلت في "بريج" لتزور الكنائس القروسطية هناك. التقيت أيضا شابا صقليا له ملامح تونسي من الشمال. يدعى بياترو. معه شربت نصف زجاجة ويسكي على ظهر الباخرة. كان ذاهبا مثلي إلى لندن لزيارة أخته هناك. وقد سعيت أن أعرف عن عمله، غير أني لم أفلح في انتزاع أي كلمة أو إشارة منه يمكن أن توضح لي ذلك. لعله مافيوزي. لا يهم. أنت تعلم جيدا أني أميل كثيرا لمصاحبة اللصوص والكحوليين والأنذال والصعاليك والفاجرات والقتلة. حالما صعدت إلى الباخرة في "اوست ايندا" تلبستني حالة عجيبة من المرح والزهو حتى أني رحت أرقص وأغني أغاني آشورية تماما مثلما كان حالي وأنا على شاطئ النهر في الحبانية. ثم بدا لي أن أبي وأمي وإخوتي وقارياقوس وخاجيك الخباز، وساوي صاحبة الكيلوتات الجميلة، وإسرائيل المصور، وعدنان الحلاق، ويوشا صاحب بار "السلام"، وآخرين من أهل الحبانية هم أيضا كانوا معي على ظهر الباخرة، وكانوا يغنون ويرقصون. عندئذ أحسست كما لو أنني نوح، وأن تلك الباخرة هي باخرة نجاتي ونجاة كل من أحب من الطوفان العظيم !

في دوفر انتشلني الشرطي من أحلامي الجميلة بالسؤال التالي :

- كم معك من المال من فضلك؟

- 600 مارك، قلت .

- أرني إياها من فضلك، قال .

كنت متيقنا من أنني أملك مبلغا قريبا من المبلغ الذي ذكرت، غير أنني لما أدخلت يدي إلى جيب سترتي، لم أعثر إلا على 150 ماركا. صعقت. فتشت جميع جيوبي الأخرى، وأنا في أقصى درجات الارتباك، فلم أجد إلاّ بعض الماركات والفينيجات الحقيرة !

- أهذا كل ما عندك؟ !

- ولكن أنا متيقّن من أن معي ما يقارب 600 مارك. صدقني !

- أين هي؟ !

- لا أدري !

- إذن نحن لا نستطيع أن نسمح لك بالدخول إلى المملكة المتحدة ! قال الشرطي بتلك البرودة البريطانية البغيضة إلى النفس خصوصا في حالات كهذه. رحت أولول مستعطفا إياه غير أنه ظلّ متصلّبا في موقفه: "لن نسمح لك بالدخول إلى المملكة المتحدة!" كان يردد وشفتاه مزمومتان مثل شفتي عجوز ماكرة. فلمّا ألححت أكثر من اللزوم، أشار إلى شرطيين فرميا بي في الباخرة مثلما ترمى السلعة الفاسدة. طوال الساعات الأربع التي استغرقتها رحلة العودة إلى بلجيكا لم أنقطع عن الشراب ولو للحظة واحدة. وعندما رست الباخرة في ميناء "أوست إيندا" لم يكن قد تبقى معي غير 50 ماركا. بهذا المبلغ تابعت رحلتي إلى بروكسيل. وهناك التقيت شابا لبنانيا أراه من حين لآخر في باريس غير أنني لم أتبادل الحديث معه مرة واحدة. رويت له قصتي وعبرت له عن رغبتي في متابعة رحلتي إلى كولونيا أملا أن أعثر على صديق عراقي رسام يعيش هناك، فرافقني إلى محطة القطارات. اقتنى لي تذكرة، واشترى لي سندويتشا وبيرتين: "هذا كل ما أستطيع أن أفعله لك ! قال ثم ذاب في الزحام. تلك هي تفاصيل مغامرتي الفاشلة يا عزيزي. وعلى أية حال هي ليست الأولى ولن تكون الأخيرة على ما أظن !".

تغادر رنا، ويتبعها بشير. نتيه نحن في شوارع "الماريه". بين وقت وآخر، نتوقف لشرب كأس، ثم نواصل السير بهدوء في الليل الخريفي الدافئ. هو الآن في أقصى درجات الانتشاء. يبدو كما لو أنه يمشي فوق الماء، غائبا تماما عما حوله، منخرطا انخراطا كليا في ذلك الهذيان البديع الذي لا يماثله فيه أحد ممن عرفت وممن أعرف: أخيرا وجدت العنوان المناسب لفيلمي المنتظر هو الآخر منذ زمن بعيد. إنه "An Iraqi in paris". وهذا يعني أن تسعين بالمئة من مشكلتي قد انتهت، ولم يبق إلا أن أجد التمويل. وهي مسألة في غاية البساطة. ربما أنتظر سنة أو سنتين. لنقل خمسا أو ثماني سنوات، وهذا ليس كثيرا بالنسبة لشقي مثلي. وليذهب أصدقائي إلى الجحيم، هؤلاء الذين سمّوني "أبو العناوين". نعم أنا أحب العناوين. ففيلمي

هذا قبل أن أسميه "An Iraqi in paris" كان اسمه "Windows without house"
وفي عام 1994 كان اسمه "Explosion of a memory" وفي عام 1993 كان اسمه
"Death of a young screenwriter" وفي علم 1992 كان اسمه "Road to America"
وفي العام 1991 كان اسمه "مارلين مانرو تترجم نصا عربيا" وهو العنوان
الوحيد الذي كتبته بالعربية. وقد ندمت أيما ندم رغم محبتي الكبيرة
لمارلين مانرو التي تفوق محبتي لكل أجدادي وتراثي القومي. ندمت لأنني كنت
أعرف منذ البدء، أنا الذي رضع من "ديس" هوليوود مبكرا أن العناوين
الأنكليزية هي التي تعطي للنفس البشرية قوة جذب هائلة في كتابة المواضيع
التراجيدية، فيما العناوين بالعربية تكون باهتة وكسولة، لأنها عناوين شمسية،
بينما الانجليزية (عناوين بلد الضباب وتمثال الحرية) فرومانسية أي Fancy بأتم
معنى الكلمة. أضف إلى أن الانجليزية (مهلا، إنني أتحدث عن اللغة) لها جمالها
الخاص في كتابة الحوار وقدرتها الاختزالية المذهلة في تسجيل أدق التفاصيل في
المشهد السينمائي. أتحدث كسينارسيت. مش مهم كنت فاشلا أم لا. المهم هو أنني
أحلم بكتابة مشاهد جميلة وإن كانت بائسة. وقد عثرت على عنواني الأخير بعد
أن قلت لنفسي: "طالما أن هناك فيلما أمريكيا اسمه "An American in Paris"
وأن بلدي العزيز في حالة حرب مع البلد الذي أعشقه منذ الطفولة، فلم لا أسمى
فيلمي "An Iraqi in Paris" وأضرب عصفورين بحجر (أي عصفورين؟ مش مهم).
أضف إلى ذلك أن العنوان ملائم تماما لمحتوى السيناريو الذي أكتبه. في الحقيقة
السيناريو الذي سوف أكتبه. وحين أنتهي منه سوف ألقي به في وجه المنتج قائلا
بصوت مرتفع: "حسنا، هاهو السيناريو الذي سيجلب لك الأوسكارات التي
تنتظرها منذ أيام توت غنج آمون !".

أظلم الشرق من جديد ولاحت بوادر كارثة أخرى لها نفس مواصفات تلك
الكوارث التي تستفيض الكتب السماوية الثلاثة في وصفها. فقد غزا صدام حسين
الكويت وبدأت طبول الحرب تضرب على مدار الأربع وعشرين ساعة. تزوجت في

نفس اليوم الذي دخل فيه الجيش العراقي "كويت سيتي"، ثم سافرت صحبة زوجتي لقضاء شهر العسل في تركيا، ومعي راديو صغير لمتابعة ما يحدث. طوال الأسابيع الأربعة التي أمضيناها هناك لم أستمتع بالطبيعة وبالبحر إلا قليلا. كنت كمن أطل على قبر فلم يعد يرى من حوله غير ظلمة الموت. أو كمن حلم حلما مريعا فباتت وقائعه وتفاصيله تلاحقه أينما ذهب وأينما التفت.

عانت سوزان كثيرا من الإسهال ومن آلام الشقيقة حتى أنها أحيانا كانت تمضي اليوم أو اليومين وهي هامدة. أحيانا أخرى كانت تعتريها نوبات قيء شديدة فتصبح عاجزة تماما عن الكلام وعن الحركة. حطّمت الراديو الصغير. وامتنعت عن شراء الجرائد وحتى عن النظر إليها. بعد بورصة التي بلغت فيها آلام سوزان أوجها، أصبحنا نتجنب المدن الكبيرة، وباتت القرى الصغيرة المنسية محطاتنا الأساسية. في "سالجوق" القريبة من افسوس حيث عاش هيرقليطس، أمضينا أياما هادئة، سعيدة. سكنا بنسيونا نظيفا كان صاحبه المرح طول الوقت يقدم لنا كل ليلة بطيخا، وبألمانيته البسيطة يسلينا بحكايات عن الأتراك. في المساءات، كنا نجلس على قمة هضبة صغيرة لنتأمل جمال الغروب على الجبال وعلى البحر بينما أطفال فقراء يلعبون ويزعقون تحتنا. خفت آلام سوزان، فأخذنا نتردد يوميا على البحر وفيه نمكث حتى أواخر الظهيرة. بعد أن طفنا في آثار أفسوس تحت الشمس اللاهبة، جلسنا في مقهى شعبي تظلله شجرة ضخمة. كتبت سوزان بطاقات بريدية إلى أهلها وصديقاتها في ميونيخ. أما أنا فسجلت في دفتري الأزرق الشذرة رقم 53 من شذرات هرقليطس: "الحرب هي ملك الجميع وأب الجميع أيضا. ولقد أظهرت البعض على أنهم آلهة وأظهرت البعض الآخر أحرارا".

عدنا إلى ميونيخ فازداد صخب الحرب حدة وشراسة حتى أنه طغى على أيّ صخب آخر. ركب صدام حسين جوادا أبيض وراح يختال أمام جنوده في "كويت سيتي". مناديا المسلمين لخوض الحرب المقدسة ضد "الصليبيين الجدد". على شاشة التلفزيون، ظهر جورج بوش بوجهه البغيض وهو يطوف بين

جنود "المارينز" مرفوقا بزوجته باربارا التي بدت كما لو أنها أمه الحنون التي تحرسه من عيون الأعداء والحسّاد. احتميت بشقتي الصغيرة وغرقت في القراءة محاولا أن أتناسى ما يحدث، غير أن أخبار الحرب كانت تتسرب إلي مثل ذلك الرمل الدقيق الذي تدفع به إليك العواصف الهوجاء، حتى عندما تسد جميع المنافذ. ثم اندلعت الحرب، وأمطرت الطائرات بغداد بالقنابل، فلم أعد أطيق الخروج ولا مشاهدة التلفزيون ولا قراءة الجرائد. بين كل الأصدقاء الذين أعرف، كان الفتى الآشوري الوحيد الذي كنت أتحرق إلى رؤيته والتحدث إليه. لكن كيف السبيل إلى ذلك، وأنا لا أملك له عنوانا، ولا أتوفر على أي طريقة أخرى للاتصال به. آخر مرة التقيته فيها كانت قبل عامين حينما كنت أقضي عطلتي الصيفية في أصيلة، تلك المدينة المغربية الصغيرة التي أتاحت لي الاستمتاع بشيء من بهاء الشرق المفقود. طلع علي بحقيبته الصغيرة المملوءة ببوسترات الممثلين والممثلات وبقصص شارل بوكوفسكي، سائقا أوهامه وأحلامه مثلما يسوق الراقي قطيع شياهه العزيزة عليه. عقب سهرة ممتعة في مطعم "غارسيا" المواجه للشاطئ، طفنا معا في الشوارع الخالية من الناس، وأثناء ذلك قال لي:

- اسمع يا صديقي... يبدو أن جميع متاعبي المادية ستنتهي قريبا !

- كيف؟ !

- عندي صديقة مغربية أقدر أن أقول أنها عزيزة علي مثل أختي شميران. تعرفت عليها قبل عشر سنوات في بيروت. وهي تعيش الآن في الدار البيضاء، وتملك ثروة طائلة. وقد علمت أنها مقربة من القصر الملكي، وأن لها علاقات وثيقة بوزراء وبشخصيات كبيرة في الدولة. قبل نحو شهر، حصلت على رقم هاتفها الخاص. اتصلت بها فكادت تطير من الفرح.

"لا بد أن تأتي حالا إلى المغرب!" قالت. وها أنا أتيت.

- متى ستذهب إليها ؟

- غدا. في قطار الثامنة صباحا.

أمسكت بصعوبة ضحكة كادت أن تفلت مني، ثم سألته :

- كم تقدر أن تهبك؟

- لا أدري. لكن أنا متأكد أن نهاية متاعبي المادية وشيكة !.

في الصباح الباكر، وقف عند رأسي :

- هل بإمكانك أن تعطيني 200 درهم لمواصلة رحلتي؟

- مددت له ما أراد، فأشرق وجهه وصاح:

- ثق يا عزيزي أنك ستكون أول المستفيدين من النعمة التي تنتظرني !

حال انصرافه، رحت أضحك متمرغا في الفراش مثل مجنون. بعد ثلاثة أيام عاد إلى أصيلة، وعلى ملامحه ظلال الخيبة والانكسار. وربما لكي يخفي عني ذلك، أصر أن يدعوني إلى العشاء في "غارسيا". طوال السهرة لم أشأ أن أسأله عن حصيلة رحلته، ولم يلمح هو بأي شيء إلى ذلك. آخر الليل، نفذ صبري، فقلت له:

- كنت أعتقد أنك ستمكث مدة أطول عند صديقتك !

- صحيح... صحيح... لكنها مشغولة وأنا لا أرغب في إزعاجها، قال بصوت متعب ثم غرق في صمت ثقيل موصدا بذلك الباب نهائيا أمام أي سؤال جديد.

دمرت الترسانة العسكرية العراقية التي كلفت ملايين الدولارات في أيام قليلة، ونقلت شبكات التلفزيون صورا لجنود عراقيين يتضورون جوعا في الصحراء، ويبوسون أيدي جنود المارينز. وتحصن صدام حسين داخل "بونكر" تاركا الأطفال والنساء والشيوخ يموتون بالآلاف تحت القنابل المتهاطلة بدون انقطاع. وكنت مكوما في الفراش أكابد أوجاعا في الجسد والروح، حين مدت لي سوزان رسالة من الفتى الآشوري :

"أيها الوغد البدوي الجميل... كيف حالك في هذه الأيام العصيبة على العرب العاربة؟! أنا مشتاق لك كثيرا. ومشتاق أكثر لشرب كأس معك. ذات يوم شبهتني بكونراد تيريكيان الذي رسمه هنري ميلر في روايته الجميلة: "شيطان في الجنة" وأنا أحتج احتجاجا شديدا على هذه المقارنة، ذلك أنني أبعد ما يكون عن هذا الشيطان اللئيم، الخبيث، الدنيء. ولو لم يكن كذلك لما أساء لشخص نبيل، إنساني، عذب، ومتسامح مثل هنري ميلر. صحيح أنني أملك كثيرا من

الصفات السيئة، وإنني أبالغ أحيانا في إزعاج أصدقائي، وفي إرهاقهم بالطلبات غير أني لا أفعل ذلك متعمدا، ولا أخطط له بخبث مثلما يفعل تيريكيان، ولا أعرف للخيانة وجها. وربما لهذا السبب لم أفقدك، ولم أفقد أصدقاء آخرين أعزاء على القلب مثلك.

متى التقينا آخر مرة؟ آ... أظنك ستقهقه عاليا ضاربا الأرض بقدميك مثلما اعتدت أن تفعل في لحظات الفرح حين أروي لك ما حدث خلال الزيارة التي قمت بها إلى المغرب قبل ما يزيد على العامين. ولا بد أن أصارحك بأنني كنت على يقين وأنا في طريقي إلى هناك، بأن صديقتي ستضع حدا لمعاناتي وبؤسي. لم لا... ألم تكن الأوهام زادي منذ أن كنت طفلا في الحبانية؟! ألست ابن كيكا الأبكم الأصم الذي ظل حتى آخر لحظة من حياته (أقول حتى آخر لحظة لأنه مات وسأعود إلى هذا الموضوع لاحقا) يعتقد وهو يشرب البيرة الرديئة مع فارياقوس وخاجيك الخباز، أن ملكة الأمبراطورية التي لا تغرب عنها الشمس تهيم به حبا؟!

استقبلتني صديقتي بترحاب بالغ. بعد الغداء واستراحة القيلولة، مدت لي ظرفا وقالت لي: "خذ هذا يا عزيزي... أعرف أنك تحب أن تسرح وحدك في المدينة". وفعلا سرحت وحدي لا في المدينة بل في باراتها، وأكملت السهرة في فندق "ريجنسي" مع أثرياء الدار البيضاء. وعندما عدت في الفجر إلى بيت صديقتي، لم يكن قد تبقى من المبلغ الذي أعطتني إياه صديقتي (3000 درهم) غير عشر دراهم! ويبدو أن صديقتي أصيبت بالهلع أمام ما فعلت، فأرادت التخلص مني بأقصى السرعة، وهكذا أعطتني 1000 درهم وقالت لي: "اسمع يا عزيزي. أنا مضطرة للسفر الآن إلى مراكش لشأن هام. وأنت بإمكانك أن تذهب إلى زوجي في طنجة. وهو سيتكفل بأمرك كما تحب وتشتهي!" جئتك إلى أصيلة وأنا مكسوف البال غير أني لم أشأ أن أصارحك بذلك. وبعد العشاء الذي دعوتك إليه في "غارسيا" لم يكن قد تبقى من المبلغ الذي أعطتني إياه صديقتي إلا ما يكفي لشراء علبة سجائر ودفع أجرة التاكسي من أصيلة إلى طنجة !

زوج صديقتي تخلص هو أيضا مني بسرعة. اقتطع لي تذكرة الباخرة من طنجة إلى الخيزيراس، وتذكرة القطار من الخيزيراس إلى باريس، ثم أعطاني 600 فرنك فرنسي وقال لي: "أرجو أن أراك قريبا في باريس!". بددت المبلغ قبل أن أصعد إلى القطار في الخيزيراس. وعندما وصلت إلى باريس بعد رحلة طويلة شاقة في قطار قذر يمتلئ بالمهاجرين المغاربة، كان الجوع قد نال مني حتى أني لم أكن قادرا على أن أرى بوضوح !

منتصف الليل. جادة السان جارمان دي بريه تبدو فارغة، موحشة. مع ذلك أشعر أني بحاجة إلى أن أبقى هنا حتى الصباح في هذا البار الذي تمزقت جل سراويلي على مقاعده. منذ حين اشتريت علبتين من سجائري اللذيذة "كمال بدون فلتر". وفي جيبي الآن مائة فرنك كافية لشرب أربعة كؤوس من البيرة. وهذا لا يهم. أعرف أن الجرسونة الطيبة نادين لن تتخلى عن مساعدتي أبدا. فحتى في هذه الأيام الكالحة التي أصبح فيها وجهي الأشوري كافيا لأن يجلب لي مصائب عدة، ظلت نادين تحنو علي وتهب إلى نجدتي كلما أحست أني بحاجة إلى ذلك. لقد ساء وضعي كثيرا خلال الأشهر الماضية. وعندما أكون في الميترو، أو في الشارع، أو في المحلات العامة، وحتى في المكتبات، أشعر أن الجميع ينفرون مني، ويتفرسون في ريبة وحذر. ذلك اليوم مثلا، طلبت بيرة في بار صغير في ساحة "كليشي" ثم نزلت إلى التواليت وإذا بالجرسون العجوز يتبعني إلى هناك لكي يتأكد من أنني لم أضع قنبلة! نعم يا صديقي... أنا الآن في عيون أغلب الفرنسيين قاتل وشرير وإرهابي ومتوحش وحشرة قبيحة تسمم هذا الكون الجميل. وحتى عندما حلقت شاربي لأن الشارب أصبح في فرنسا وفي جميع أنحاء العالم رمزا لصدام حسين مثلما كان الصليب المعقوف رمزا لادولف هيتلر، فإن الأمر لم يتغير. لذا بإمكاني أن أقول أن نادين في الوقت الراهن امرأة جد نادرة في هذه المدينة التي أصبحت قاسية علي بشكل لا يتصور. هاهي تبتسم لي بود وكأنها تريد أن تشجعني على البقاء هنا حتى الصباح. سأبقى إذن حتى الصباح ! وعلى أية حال، فإن البقاء هنا أسلم بكثير من الذهاب مثلا إلى ذلك البيت المهجور في ضاحية "آرياجون"، الذي ألجأ إليه بين وقت وآخر. بيت

أسود موحش تحيط به الأعشاب البرية وحقول الذرة وبرك مياه آسنة لها رائحة زيت السيارات. أذكر أنني أمضيت شتاء كاملا هناك. كان البرد شديدا، والثلوج تتساقط بغزارة. وأنا كنت وحيدا، أقضي الوقت في البحث عن الحطب، وفي شرب البيرة، وقراءة الروايات البوليسية. أحيانا تشتد علي وطأة الوحدة، فأغني أمام النار أغاني حزينة بآشوريتي البائدة. وقد حاولت أن أكتب بعض الأشياء، غير أنني لم أستطع. فمنذ أن تعلمت الكتابة بالآلة الكاتبة، وكان ذلك أيام الخدمة العسكرية، وأنا أشعر أن الكتابة باليد تقتلني. وكلما حاولت أن أفعل ذلك، أصبت بآلام شديدة في الذراع. حتى الكلمات تفقد سيولتها ورقتها، وتتحول إلى كتل معدنية جامدة. لذلك أنا أعتقد أن الآلة الكاتبة هي الوحيدة القادرة على الاستجابة لسرعة تفكيري. يبدو أني هكذا منذ الطفولة: "فاست مان"!

بعد أن تركت ذلك البيت المهجور في "آرياجون" وعدت إلى باريس، شعرت أني مثل بدوي يدخل مدينة كبيرة لأول مرة في حياته. وقد انتبهت إلى أنني أتلفت حتى ذلك النزر القليل الذي تعلمته من اللغة الفرنسية. وكان علي أن أمضي أزيد من أسبوعين في بارات السان جارمان دي بريه لكي أصبح من جديد كائنا متحضرا!

ثم إن البقاء في هذا البار حتى الصباح، هو أيضا أفضل بكثير من أن أهتف لواحد من أصدقائي القليلين لكي أتسول، كما أنا أفعل عادة، فراشا لليلة أو ليلتين. لقد قرفت من كل هذا، ولم تعد لي طاقة علي إعادة تلك المسرحية المضجرة التي تجعلني أشعر أنني شحاذ بالفعل. لذلك أخير أحيانا أن أنام على الرصيف بدلا من أن أمسك بالهاتف في أواخر الليل، وأنا سكران، ثم بصوت مخنوق ومرتبك، أعتذر عن الإزعاج. بعدها أختلق أي موضوع حتى أطيل النقاش قليلا، ثم أفصح عن طلبي الحقيقي. ولا بد أن أعترف لك بأن جل أصدقائي هنا أصبحوا خلال الفترة الماضية كائنات لا تحتمل. فهم يمجدون صدام حسين متصورين أنه قادر على أن يلحق هزيمة مرة بأمريكا وحلفائها تماما مثلما تصور آباؤهم ذات يوم أن بإمكان عبد الناصر أن يلقي باليهود في البحر. يا للغباء! ألم أكن على حق عندما قلت لك ذات يوم أن كل مثقف عربي يحمل في داخله دكتاتورا صغيرا؟! يكفي أن

يأتي حدث كهذه الحرب القذرة التي سوف تدمر ما تبقى من حياة في بلادي، لكي نكتشف أن الأغلبية الساحقة من المثقفين العرب عاجزون عن إحداث القطيعة الجذرية مع طريقة تفكير حكامهم. تلك الليلة مثلا دعاني أحدهم إلى العشاء. كنت أعرف من أيام بيروت أنه من أتباع عبد الناصر والقذافي، غير أني قبلت دعوته بسبب ما كنت أعانيه من جوع وإفلاس.

طوال الساعات الأربع التي استغرقها العشاء، راح هذا الثور البليد يقدم لي الدليل تلو الدليل لكي يثبت لي أن صدام سوف ينتصر في النهاية. بعد العشاء، أوقف سيارته على ضفاف السين. أتدري ماذا فعل بعد ذلك؟ أخذ يصيح عاليا متصورا أن مياه السين هي تلك الجماهير العريضة التي سيخطب فيها عندما يصبح زعيما لكل العرب: "يا جماهير أمتنا العربية... أنتم خير أمة أخرجت للناس...". تركته يزأر ويزعق وانسللت هاربا. نعم. هم بالفعل خير أمة أخرجت للناس. وما كانوا في حاجة إلى براهين لإثبات هذه الحقيقة. وربما يكون من المفيد التذكير بالبعض من هذه البراهين التي لا تحصى ولا تعد سواء في التاريخ القديم أو في التاريخ الحديث. وكلها مقتبسة من مصادر وثيقة فثلاثة من الخلفاء الراشدين قتلوا وهم داخل المسجد أو هم خارجون منه. ومثّل بنو أمية بجسد الحسين بن علي، ثم ظلوا يتقاذفون رأسه من كربلاء حتى دمشق. وعندما خطب الحجاج بن يوسف أمام أهل العراق "أهل الشقاق والنفاق" كما كان يسميهم، قال لهم دون أن يحمد الله أو يثني عليه، أو يصلي على نبيه: "إني والله لأرى أبصارا طامحة وأعناقا متطاولة ورؤوسا أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها. كأني أنظر إلى الدماء ترقرقت بين العمائم واللحي". وقتل بنو العباس تسعين من بني أمية في رمشة عين، ثم بسطوا عليهم الأنطاع، وأكلوا عليها وهم يسمعون أنات بعضهم حتى ماتوا أجمعين. بعدها نبشوا قبور الخلفاء الأمويين في دمشق، غير أنهم وجدوا جماجمهم قد تحولت إلى غبار إلا هشام بن عبد الملك فإنهم وجدوه صحيحا لم يبل منه إلا أرنبة أنفه فضربوه بالسياط وصلبوه وحرقوه ثم ذروه في الريح. وعندما وقع القرامطة في الأسر بعد أن خربوا المدن والقرى وسبوا النساء، وقتلوا الأطفال، أمر المكتفي بالله بقطع أيديهم وأرجلهم وضرب أعناقهم، ثم

ضرب زعيمهم مائة سوط وقطعت يداه وكوي فغشي عليه. وبعد ذلك أخذ جلادوه خشبا ووضعوا على خواصره فجعل يفتح عينيه ويغلقهما. فلما خافوا موته، ضربوا عنقه، ورفعوا رأسه على خشبة فكبر الناس لذلك، وعلق على الجسر. وقال الحلاج لجلاديه يوم قبضوا عليه: "ما يحل لكم دمي واعتقادي الإسلام ومذهبي السنة. ولي فيها كتب موجودة. فالله الله في دمي". غير أن صاحب الشرطة بأمر من الخليفة ضربه ألف سوط فما تأوه، ثم قطعت رجله اليمنى، ثم رجله اليسرى، ثم يده اليمنى، ثم يده اليسرى، ثم أحرق بالنار. فلما صار رمادا ألقي في دجلة ونصبت الرأس في بغداد. وداهم القرامطة مكة في فصل الحج، فنهبوا أموال الحجاج وقتلوا منهم خلقا كبيرا في رحاب مكة وشعابها وفي المسجد الحرام وفي جوف الكعبة. وجلس زعيمهم أبو طاهر على باب الكعبة والسيوف تعمل في الرقاب وهو يقول: "أنا الله والله أنا يخلق الله وأفنيهم أنا".

وقد روى ابن بطوطة في رحلته الشهيرة أن سلطانا من سلاطين الشرق حاصر بعضا من المناوئين له، وشدد عليهم الحصار نزلوا غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم. فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم، ويسلخهم، ثم يملأ جلودهم تبنا ويعلقها على السور. ومن رؤوس قتلاه أقام وسط المدينة قبة في حجم الهضبة. نعم. هم بالفعل خير أمة أخرجت للناس. ومنذ أن تولى شؤونهم حكام من لحمهم ودمهم. ازدادت هذه الحقيقة سطوعا وبهاء. فصدام حسين الرافع شعار: "أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة" مثّل بشعبه كما لم يمثل به أحد، وأشعل حروبا أحرق بها الأخضر واليابس في بلاده وخارج بلاده، وبنفسه أعدم رفاقا له في الحزب دون أن يرفّ له جفن، وقطع آذان من عارضوه أو عصوا أوامره وأباد قرى بكاملها لأن بعض المناوئين له اعتصموا بها. آخرون ارتكبوا أفعالا لا تقاس بأفعال أعتى الطغاة في التاريخ البشري برمته. فقد عرضوا جثث معارضيهم على شاشات التلفزيون ليعتبر بها الناس، وبددوا ثروات بلادهم الطائلة في شراء كميات هائلة من الأسلحة الفاسدة، وأرسلوا فرق الموت لتصطاد الفارين. بالفعل هم خير أمة أخرجت للناس !

تسألني كيف أنا الآن أمام هذا الإعصار الجديد الذي يهز الشرق؟ وأقول لك بأنني جد هادئ، ولا مبال. وفي الحقيقة أقدر أن أقول لك أن هذا الهدوء وهذه اللامبالاة أصبحا سمة أساسية في سلوكي خصوصا بعد أن وصلتني تلك الرسالة المشؤومة قبل نحو عام ونصف. وقتها كنت في مأوى للاجئين. ويوما ما ضقت بالسيرلانكيين والأفغان والأكراد والصوماليين، ففررت إلى بارات السان جرمان دي بريه باحثا فيها عن نسغ لروحي التي يبستها مشاهد بؤس الهاربين مثلي من جحيم بلدانهم وأزماتها. وهناك التقيت خالد القادم للتو من مونتريال. لمدة عشر أيام، ظللنا نسكر ونعربد ونغني بالآشورية والبربرية ونعاكس السائحات الشماليات. عندما نتعب، نهرع إلى حي "مونمارتر" حيث تسكن صديقة قديمة لخالد، وهي رسامة هولندية نسيت اسمها الآن. عندما نتحمم ونشرب "الهاينكن" ونلتهم الجبن الهولندي، ثم نضاجعها سوية.

ولما سافر خالد، عدت أنا إلى مأوى اللاجئين. حال وصولي إلى هناك قيل لي إن فاطمة، الفتاة الجزائرية التي تعلمنا الفرنسية تجد في البحث عني منذ أسبوع. هرعت إليها ظانا أنها ستدعوني إلى كسكسي في مطعم جزائري كما وعدتني ذات يوم. فلما رأتني صاحت بي وعيناها العسليتان تلمعان بالفرح: "اسمع يا شاموئيل العزيز. عندي لك خبر سارا" ثم أخرجت رسالة من حقيبتها اليدوية وأردفت: "خذ هذه رسالة من أهلك على ما أظن !". استبد بي الخوف في الحال حتى أنني أخذت منها الرسالة وأنا أرجف. بعدها ظللت هكذا حائرا ذاهلا، أنظر مرة إلى الرسالة، ومرة إلى فاطمة. لاحظت فاطمة اضطرابي فقالت لي: "تعال نجلس قليلا في المشرب. أليس من الأفضل أن تقرأ الرسالة وأنت جالس أمام بيرة؟"، "حقا" قلت ثم تبعتها.

كان واضحا أن الرسالة المختومة في بغداد بتاريخ 1988/10/18 هي رد على رسالة كن قد بعثت بها إلى أهلي قبل ثلاثة أشهر. وهي أول رسالة كتبتها لهم بعد سنوات طويلة من الصمت. فتحت الظرف فطالعني الخط الغليظ والقبيح لأخي روبرت. في البداية قال لي روبرت أن أمي بكت بحرقة لما قرأ عليها رسالتي

وأنها لا تنام الآن إلا عندما تكون رسالتي تحت وسادتها. ثم تحدث باقتضاب شديد عن الآخرين وقال لي أن أخي ادوارد في الجيش، وأن أختي نهرين التي وضعتها أمي فوق أنقاض بيتنا المهدم لما طردنا من الجبانية سوف تتزوج من فتى آشوري مثلنا يعمل ميكانيكيا للسيارات. ثم عاد روبرت إلى السطر وكتب: "أما بالنسبة إلى أبي فإنه يؤلمني جدا أن أعلمك أنه مات منذ ثلاث سنوات تقريبا بعد أن ظل طريح الفراش مدة تتجاوز العام. وعندما كان يحتضر، أشار لنا سائلا إن كنت قد وصلت أخيرا إلى بلاد جلالة الملكة، ولما أدرك أننا لا نعرف عنك شيئا، سالت دموعه بغزارة".

تهت طول الليل في باريس دون أن أذرف دمعة واحدة إذ كان من الصعب علي أن أقنع نفسي بموت أبي. في الأيام التالية، انتابني ندم مرّ، ولازمني الإحساس بأنني خنت أبي خيانة لا تغتفر. وكيف لا وأنا لم أف إلى حد هذه اللحظة بما وعدته به في ذلك الصباح البغدادي الثقيل مؤكدا له أنني سأصل إلى بلاد الملكة بأقصى السرعة.

وها أنا عقب سنوات طويلة من الترحال والتيه، لم أتمكن بعد من الوفاء بما وعدت ! أودعك الآن على أمل أن ألتقيك قريبا !".

نحن الآن نسير على ضفاف السين. أنا مستغرق في وصف رحلتي إلى لشبونة مستفيضا في الحديث عن لياليها وأجوائها وباراتها وهو صامت. بين وقت وآخر يلقي نظرة على الساعة اليدوية التي أهدتها إياه صديقة أمريكية. فجأة توقف عن السير. انتزع الساعة من معصمه ثم رمى بها في النهر. انتظر إلى أن سمع صوت ارتطامها بالماء ثم قال: "هذه الساعة الحقيرة أصبحت تلهيني عن سماع أصدقائي لذا وجب التخلص منها بأقصى سرعة حتى لا أصبح عبدا لها".

صمت قليلا ثم أضاف: "نحن قوم بلا زمن. باطل الأباطيل. كل شيء باطل".

واصلنا سيرنا بهدوء بينما كان الفجر يمد أعمدته الحمراء على الأفق الباريسي.

فبراير 1996 - فبراير 1997

# صدر للمؤلف

**حكاية جنون ابنة عمي هنية**
دار الرياح الأربع 1985
طبعة ثانية، دار جلجامش، باريس 1995

**إلياس كانيتي: أصوات مراكش (ترجمة)**
الدار البيضاء 1987

**السلحفاة (مجموعة قصصية)**
دار جلجامش، باريس 1995

**هلوسات ترشيش (رواية)**
دار توبقال، الدار البيضاء 1995

**ليلة الغرباء**
دار سحر، تونس 1997

**كتاب التيه (رحلات)**
دار نقوش عربية، تونس 1997

**الآخرون (رواية)**
دار تبر الزمان، تونس 1998

**وداعا روزالي (رواية)**
منشورات الجمل، كولونيا / ألمانيا 2001

## مؤلفات مترجمة إلى اللغة الألمانية

**So Heiss, So Kalt; So Hart**
Eischborn verlag, Frankfurt 1990

**Hinter den Schleierm des Uslam**
Beck verlag, München 1993

**Der Grüne Esel**
Beck verlag, München 1996

**Die rebellischen Töchter Scheherazades**
Beck verlag, München 1996

صدر ضمن روايات الزمن

- الرواية 1

الولي الطاهر
يعود إلى مقامه الزكي

الطاهر وطار

- الرواية 2

ضحكة زرقاء

محمد عز الدين التازي

- الرواية 3

قطار الصعيد

يوسف القعيد

- الرواية 4

ديك الشمال

محمد الهرادي

- الرواية 5

الوليمة المتنقلة

للروائي العالمي إرنست همنغواي
ترجمة: د. علي القاسمي

- الرواية 6

الوشم

عبد الرحمن مجيد الربيعي

- الرواية 7

الآخرون

حسونة المصباحي

- العدد القادم

حارث المياه

هدى بركات

روايات الزمن 7



# الآخرون

«هكذا يسهر حسونة المصباحي في كتابته الروائية على افتتاح الدروب التي تعمل أخلاق المجتمع العربي على إبقائها مغلقة. إنه يفضح النمطية والإخفاء والتمويه مطيحا بأخلاق الكذب والخداع، وهو في ذلك سرد لا يرسخ شجاعة ابتكار الأشكال وحدها وإنما يوسع كذلك الحدود لشجاعة ابتكار القول».

**أدونيس**

«قرأت هذه الرواية لاهثا. الأحداث تتوالى في حكي أهم ما فيه الصدق والقدرة على بث الحياة في الشخصيات أقرأها كأن حسونة يتلوها على أنها رواية تعبر عن جيل بأكمله، جيل السبعينات، ولكن من خلال منظور مختلف ومغاير لما اعتدنا أن نقرأه في تجارب هذا الجيل الذي ينتمي إليه المصباحي، ذلك الجيل الذي تعلق بالقضايا الكبرى وأخلص لها بنبل وتفان أيا كانت الاتجاهات التي انخرط فيها».

**جمال الغيطاني**

«هذه الرواية هي رواية الشعراء والصعاليك والمتمردين والمشبوهين وجوابي الآفاق والمنفيين والمطاردين والثوريين الفاشلين، يروون حكايتهم مع أوطانهم وأجسادهم وأحلامهم... هؤلاء على تعدد سيرهم واختلاف ملامحهم ينتظمهم خيط واحد هو خيط الخيبة التي تفضي إلى الاضطراب في الأرض من دون هدف معلوم... كل هؤلاء حاولوا ذات يوم أن يكرهوا هذا العالم على احتضان أحلامهم فتأبى، فعادوا مهزومين وانكفؤوا يلعقون في صمت جروحهم النازفة».



**محمد الغزي**

«نبدأ في قراءة هذه الرواية فلا نستطيع الإقلاع عنها ولا الإفلات منها، على الفور يمسك بك شلال هادر من الأحداث والنوائب المضحكة المبكية في الأقطار العربية والأوروبية تحدث لراويها، ومن خلالها نحن نتعرف على جحيم نعيش فيه نحن العرب غرباء في أوطاننا غرباء في غير أوطاننا».

**إبراهيم عبد المجيد**



منشورات الزمن

15 درهما

لوحة الغلاف: عبد الرحمان الملياني